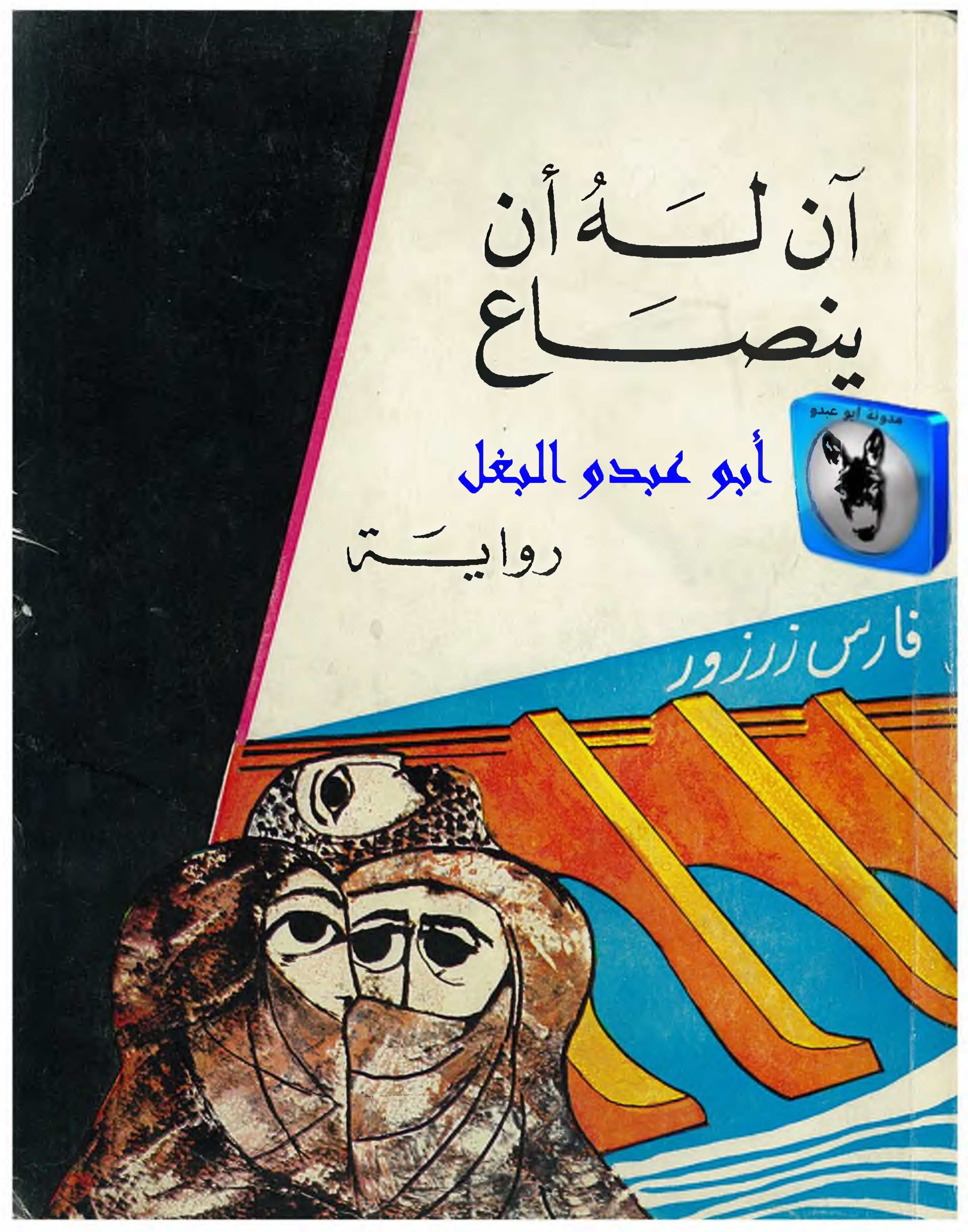


آن لهُ أن
ينصَاع
أبو عبدو البغل
مدونة ابو عبدو
رواية
فارس زرزور

فارس زرزور

آن له أن ينصاع

رواية

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٨٠

صمم الغلاف : نبيل الكراد

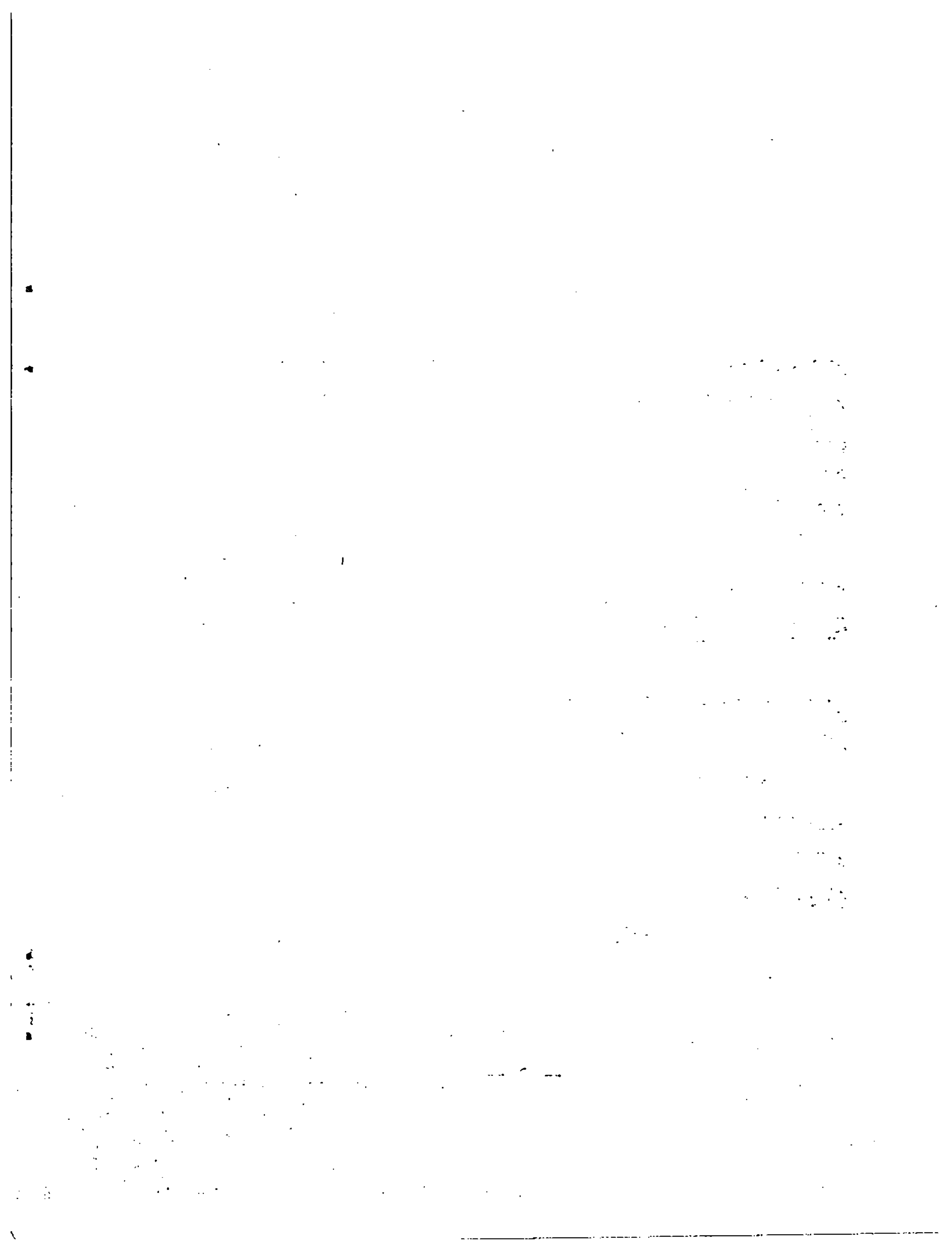
مقدمة

يبلغ طوله من منبعه الى مصبه ، الفين وسبعمائة كيلو مترا . وطوله في الاراضي السورية ستمائة وثمانين كيلو مترا . ومساحة حوضه سبعين الف كيلوا مترا . ومعدل ارتفاع مطره السنوي من مائة وخمسين الى اربعمائة ملمترا . وتشكل مياهه في سورية اربعة وثمانين في المائة من مجموع مياهه . منسوبه في جرابلس الفان وثلاثمائة وخمسة وعشرون ، وفي البوكمال مائة وخمسة وستون مترا .

بهذا أجاب الطالب عن سؤال : (اذكر ما تعرفه عن نهر الفرات بالارقام) . فنال شهادته الثانوية ودخل الجامعة . وفي سنته الجامعية الاخيرة أجاب على السؤال :

وتفكر الحكومة العربية السورية بمشروع اقامة سد تخزيني وآخر تحويلي على الفرات . وهو موضوع دراسات منذ فجر الاستقلال ولكن لم يبت بها حتى الآن لما يعترض تنفيذها من عراقيل وصعوبات .

ونال الشاب شهادته الجامعية . تأبطها ومضى الى الطبقة مع آلاف العمال والمهندسين . وحين وصل الى النهر توقف امامه لحظة ، فألفى نفسه قد نسي كل ما يعرفه عنه . وبات لا يفقه شيئاً . فقرر ان يزيح شهادته جانبا ، وأن يبدأ الدراسة من جديد .



العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التي لا تفنى . هذا شعار حقيقي ، يتبناه كل انسان حي ، الانسان المعاصر خاصة ، الذي تنشب في وجهه اظافر مسنونة ، تهدده بالطمس او الفناء . ونايف سعيد المراقب ، لا يؤمن بهذا الشعار فقط ، بل ينفذه في جهد وأنـاة . ولكن .. هل يختار لـه الاينم ؟! فالعمل يحتاج الى راحه كما يحتاج الى دافع . لقد فشلت مساعيه لتغيير مسكنه المتواضع ، والقائم على الطريق ، او انه اصبح قائما عليه . فعندما بنيت هذه الحظيرة التي يسكنها ، لم يكن هناك اي طريق . ولم يخطر لبـال أولئك الاعراب الذيـن بنوا لا نفسهم دوراً من الطين واسموها « الطبقة » ، ان سيارة ما ، مهما كان هدفها ، ستصل اليهم . ولكن اول عجلات مرت من هنا لتنقل العتاد ، ومن زمن غير بعيد ، رسمت لنفسها خطا ، اتخذتـه العجلات اللاحقة مسلكا . ومع مرور الساعات والايام ، اصبح هذا الخط طريقا ، ووضع على خارطة المهندسين المعماريين والجيولوجيين القادمين الـى المنطقة . وهنـا فشلت مساعي المراقب في تغيير سكنه الفقير . فادارة المؤسسة فرضت عليه ان يكـون قريبا من موضع العمل ليشرف على سير الأمور . وفرع الحزب لم يشأ ان يتدخل في شؤون عمله الوظيفي . وعلى كل حال ، لم يكن هناك اي مسكن افضل حالا ، ما عدا بعض البراكات والخيام ، التي اقامتهـا المؤسسة لإيواء المهندسين المحليين والاجانب ، ولحفظ المعدات المعرضة للعطب ،

الادوات الطبوغرافيه خاصة . غير ان الحالة المفضلة التي كان نايف سعيد يسعى للحصول عليها ، هي مسكن بعيد نسبيا ، هادىء ، يتيح له قسطا أكبر من الراحة ، والحصول على نوم هادىء ، لا تنغيص فيه .

انه مضطر في كل مرة أن يستيقظ ، ليقود الآليات القادمة ، والتي تمر حتما من تحت نافذته ، ويفسح لها مكانا للراب والاصطفاف ، وهذه الاليات لا تصل عادة الا في الليل . وليس هناك اي سر او تدبير مسبق ، فهي في انطلاقها من ميناء طرطوس ، تضطر لان تسلك طريقا متعرجة وطويلة . ولم يصادف مرة أن وصلت قافلة في النهار . وكأن الليل لم يوجد ، الا لتصل فيه القوافل الآلية الآتية من بعيد . والليل هو الليل ، سواء بدأ من بعيد غروب الشمس، أو انتهى عند انبلاج الصبح . والعجيب أن وصول القوافل الآلية يكون في هذا الوقت بالذات ، الوقت الذي يحلو فيه النوم المستعصي على الاجفان .

غير أن ما نقص عليه اليوم ، ليس قوافل السيارات . فالقافلتان اللتان وصلتا الليلة ، لم تكونا متأخرتين كثيرا ، وصلت الاولى في الساعة العاشرة ، ولم يكن قد نام بعد ، ووصلت الثانية في الواحدة ، حين كان قد غفا قليلا بعد أن انتهى من تصفح مذكراته . ان ما ازعجه في الواقع هو الصياح الذي انبعث فجأة وراء نافذته .

ـ والله لاغرقنك في النهر يا عمياء .

« لا حول ولا قوة الا بالله » .وفتح عينيه . كان نور الفجر يعشش في زجاج النافذة الملطخة بالغبار وبقايا الذباب . وسمع صوتا آخر يدفع عن نفسه التهمة .

ـ والله لم يكن الامر مقصودا .

لقد تعثرت في الظلام فسقطت القفة من بين يدي .

ورد صوت الأنثى الآخر :

ـ لقد تكسرت البيضات كلها . فماذا نقول لمهيار ؟

وعـاد الصوت الآخر الاطرى والارشق انوثة يدبر الامر :

ـ انا ساحكي مع مهيار وافهمه القضية .

وانهى الصوت الاول تهديده صائحا :

ـ اذن سيقوم مهيار بنفسه برميك في النهر .

ورفع نايف سعيد راسه الى النافذة : « هناك اذن مسألة جريمة ستنفذ وعن سابق نية وتصميم ، وها هما ، الضحية والجاني بالقرب منه ، وأمام عينيه » وضحك في سره :

« ساعمل من بداية حياتي في سلك الامن الجنائي ، معقب جرائم » .

وتطلع الى الفجر في الخارج ، فلمح امراتين تمسك احداهما بشعر الاخرى من تحت العصبة وتهزه . لمح وجه ذات الشعر المشدود ، ولكنه لم يتبين ملامحه . غير أنه لاحظ انه وجه انثى صغيرة ، أو أنه خمن ذلك . فالمعقول ينبىء به . وادرك على الفور أن الاخرى هي امها أو وليتها ، ولن تكون سيدتها بأي حال . فالمجتمع هنا يخلو من سادة وعبيد ، ومخدومين وخادمات ، وهذه المسألة بصورة خاصة تهمة بقدر كاف ، وتخطف انتباهه وابتعدت المراتان ، بعد أن سلبتا من عينيه النوم . وخفت بالتالي صوتهما حتى أصبـح لفظا غـير مفهوم .. وبعـد ذلك ادرك الشـاب أنـه لـن

يتمكن من العودة الى النوم ،مع انه كان يهيء نفسه لان ينام مدة اطول . فاليوم هو الجمعة . لن يكون هناك سبر ، ولكن لـن يعدم أن تكون هناك أعمال اخرى . فروتين الدولة والوظيفة ليس لهما وجود في هذه المنطقة . مع أن الدولة والموظفين هما هنا ، وبكل تفاصيلهما .

تمطى قليلا ، والتفت الى زميله عبد السلام حيدر ، فألفاه يغط في نوم عميق وهنيء . ولم يحسد صاحبه على هذه الميزة التي يتحلى بها . فكثير من الناس ينامون وهم واقفون ، أو وهم يمضغون لقمتهم الى جانب صـوراي السيـارة ، وعلى صـوت ضجيجهـا واصطـدام اسنـانهـا بالصخر ، غير أن ما استرعى انتباهه هو أن عبد السلام حيدر ، الـذي يلغط كثيرا ، ويظل طوال الوقت يجهر بالكلام، يستطيع النوم مدة أطول ، ولا يؤرقه او يفصل بينه وبين النوم أي فاصل . فهـذا الزميل ـ وهـو مراقب أيضا ـ يحتفظ بالكراسات تحت وسادته . ويحملها تحت أبطه حتى أثناء العمل ، ويظل يتصفحها ويقرأ بها بصوت مرتفع الى أن يحفظ فقراتها عن ظهر قلب . فيداب على ترديدها غيبا . لم يكن ذلك درسا من دروس المحفوظات التي تتطلب استظهارا ، ولكنـه اصبح لديه هوايـة مستبدة . وهو يرفض رفضا باتا أن يقرأ بصوت منخفض . يحلو لـه أن يسمع صوته وكأنه مطرب مبتدىء ، فينتشي بترديد الحان تعجـز النوتة الموسيقية عن رسمها ، وهذا ما جعله يتساءل : ترى هل تلك القراءة وهذا الاستظهار يجلبان النوم حقا ؟!

خرج من باب الغرفة الذي لا يصر ، فلم تـكن فقراته محصورة او مشبعة بالزيت ، بل لانها مفككة . يظل الباب سهلا هينا حتى أمام ريح خفيفة . وافسح صدره لاستقبال نسيم الصباح ، وعينيه لاستشفاف

نوره . وحاول أن يكشف عمقاً آخر للحياة المتحركة ابدا ، عمقا او قيانوسيا لم يكن فيما يبدو قداكتشف . وراح يستوعب حالة من الانطباع فيها قيمة تفوق قيمة الاسباب والحقائق الموضوعية، لم يسطع ان يحكم عليها بتحويلها الى ظاهرة جمالية محض . أهي الظواهر العادية المعقولة للأشياء التي تشكل حياتنا العامة ، ام هي انطباعاتنا الأولى قبل ان تتحول الى ماديات ظاهرة للعيان . وشعر بهذه الاحساسات الملونة غير المتميزة كغبار الزمن ، والتي تكون العنصر الاول للحياة الواعية . لقد اعتاد ان يكتب هذه الاحساسات في مذكراته ، ويعطيها شكلا عقليا ، غير انه لاحظ انها ـ بالنسبة الى الأناس العاملين من رفاقه ومرؤوسيه ـ تشكل الحقيقة الأولى، وانها مادة الوجود البكر التي لا تحدد . وقرر بينه وبين نفسه : انه هكذا يتحول عالم الخمول والانفعال، الى غزارة حياتية عميقة الجذور . وكان يشعر، وهو يخطو فوق الحصى ، ويسمع صريره تحت قدميه ، بأنه مختلط بضبابية العالم . وآمن بأن الحياة ساطعة تبعث على التأثر . وفكر بالحس المشترك بين الكائنات ، وبالشعور العميق تجاه ما يراه ويسمعه ويفكر فيه .

وجد نفسه يجتاز براكة المهندسين ، ففتح بابها ودخل ، وبلا اية فكرة سابقة . لم يعتد ان يجعل قدميه تقودانه الى لا هدف ، ولكن الشؤون الهندسية تبقى هدفا على اية حال ، ولو كان الامر ليس من اختصاصه .

كان ينام في البراكة عاملان من عمال الصيانة ، حاول الا يوقظهما . واقترب على رؤوس اصابعه من الطاولات الهندسية ذات الالواح المائلة . هذه صورة العالم الجديد ، انها تغير الطبيعة الاولى وتضع مكانها طبيعة

مميزة . وتصفح المخططات والمصورات بعينيه وبنظرة مستقيمة ، تأمل الواجهات والمقاطع والمساقط والمستويات الافقية ، والتفصيلات مع الشكل الخارجي للتصاميم . وفوجيء بملاحظته أن الظلال وحمرة الشفق غير منطبعة على المقاطع الارضية .

وفكر بأن ملاحظته تشع دهاء ، ناسيا أن شعره أغبر اللون وأن وجهه النحاسي يعتريه شحوب . ولم يفكر بأنه متفائل ، برغم الصعوبات ، وانه ذو مزاج حسن ، ذو ملامح رحبة ، غير انه أيقن بأن الزمن يقرر النجاح . انه مسلم بأن أعماله مشبعة بالحياة ، وانه أمين على السبيل الذي اختاره ، أو الذي اقتيد اليه .

ولاحظ قطعة من الورق مشكولة بدبوس فوق احد المصورات «يلزم ورق كالك وورق كونتر كالك . ورق زبدة وزيباتون . مسطرة منحنية الزوايا ومسطرة قائمة الزوايا ، أقلام تحبير . » وفكر بأن هذا الخط الرديء هو خط المترجم عبد الرؤوف الازبكستاني . فنزع الورقة وتناول غيرها ، وكتب عليها الكلمات نفسها بخط مقروء ، ثم أعاد شكلها في مكان بارز . سيأتي بعد حين أو غدا مراقب الهندسة ، وينفذ حاجة المهندسين، ثم خرج . والتفت ناحية ضجة صبيان تقترب من الشرق . هاهم أولاء يأتون كالعادة ، وبيدهم سطول التنك ، هؤلاء الاطفال المساكين ابناء الرعاة ، لم يدركوا بعد ماذا يحدث . انهم يتوهمون أن معسكرا للجنود سيقام هنا . فهم يحملون سطولهم التي صنعوها من علب الحليب الفارغة وركبوا لها آذانا وايادي من الاسلاك ، ليملأوها من فضلات طعام الجنود ، غير عارفين ، ولن يخطر لبالهم ان اية جبهة لن تفتح هنا في هذه المنطقة ، ولا في اي وقت من الاوقات . يبدو أن احدا من العمال أو السائقين ، أو

حتى المهندسين والمراقبين لم يحاول افهامهم حقيقة ما يجري هنا ، بالرغم من ان الصبيان انفسهم لم يشاهدوا اي اثر لبندقية او خوذة او بزة عسكرية . ومع هذا فهم مصممون على جلب الطعام . وفكر هو بدوره :

«لن أحاول أن الفت نظرهم أو اردعهم عن ارتياد المكان . حتى ولو فعلت فلن يصدقوني . يظل الطفل الساذج منساقا وراء أو هامه على الدوام ، يتبعها دون هوادة ، ولا يدركه اليأس ابدا من تحقيقها حتى ولو انتهى الزمن نفسه . سيظلون يأتون بسطولهم ويرجعون ، دون أن يحصلوا على اية حبة فاصولياء أو ملعقة شوربا ، وبعد ذلك يدركهم الجوع وينتهي الأمر . لن يموتوا بمعداتهم الخاوية ، سيظلون يقتاتون بخبز الصاج الجاف وبعض الاعشاب ، وفي الربيع بما تجود به عليهم اثداء مواشيهم الضامرة ، الى أن يكبروا ويصبحوا رجالا ، وعندها يطرحون ماضيهم بعيدا ، ويعيشون حياة جديدة ، تكاد ان تكون اسطورية ، لا تدركها مخيلاتهم اليوم . »

وتذكر نايف سعيد المراقب ــ مما اضطره ان يضحك ــ أن بعض العمال يطلبون احيانا من الصبية رغيفا بثمنه ، فقد كان توفير الطعام ــ الخبز خاصة ــ تعترضه بعض المصاعب . اذ ان مدينة الرقة ــ على قربها ــ لا تصل سيارة التموين منها الا في وقت متأخر .

وتابع الشاب مشواره . ولكن اي مشوار ! ؟ اين يذهب والشمس لم تبزغ بعد ؟ ان الاطفال يعرفون دائما الى أين يذهبون ، والغاية التي يسعون اليها ، وهو ايضا يعرف ذلك . ولكن الآن . ! ماذا يفعل ؟ وانقذته من خواطره أصوات جديدة ، انه يعرف صاحبيهما حق المعرفة دون أن يلتفت ناحيتهما . انهما العاملان فواز هلال والشاعر ضيف الله ، يقودان الدراجة

ويتجهان شمالا الى شاطيء النهر نحـو القارب ، لينتقلا به الى الضفـة الاخرى ، حيث يلتقيان مع « المطران » الرسـام انطونينو ، ليشاكساه ويجعلاه يحدثهما عن منعم فرات . ولكن نايف لم يستطع صبرا، اويحافظ على وقار الجو الذي يعيشه . طالما عكر صفو سكونه جلبة الصبيان . ثم أن ظهور هذين المخلوقين المهذاريـن جعله يساهم في خرق حرمة الصمت الى أقصى مدى . ولعله وجد ذلك تسلية وخروجا على قاعدة استثنائيـة فالصمت بات في هذه المنطقة أشـد ارهاقا مـن دوي المحركات ، وخبط طارقات السبر في الصخور . ورفع صوته مناديا :

ــ اسمعا يا إخوان . . لا تنسيا المحاضرة . . في الساعة العاشرة .

ولم ينتظر اجابة . بل غض من طرفه متوجسا سماع رد يدعو الـى الغيظ . ولكنه مع ذلك راح يتخيل ما يدور بينهما من حديث .

ــ أيقظنا في الليل مرتين لنرشد الآليات الى مكانها وها هو ذا الآن يتشدق .

ويرد فواز هلال متهكما :

ــ انه يسعى للحصول على الترفيع والمناصب على حساب راحـة الآخـرين .

ويقول الشاعر وهو يشد حزامه :

ومع ذلك فهو لا يوقظ شاهدا لماذا ؟

ويجيب فواز بسلاطة لسان :

ــ لانه يخشاه . . فالاثنان كما تعلم يعتنقان أفكاراً متشابهة ، تختلف في بعض التفاصيل . ويبدو أن نايفا لا يريد أ ن يتيح له فرصة للجدل .

وفجأة يطلب فواز من الشاعر الشمري أن ينظم شعرا في هجـاء

الرفيق نايف سعيد ، ويصر على ايراد كلمة رفيق في شعره . ويتبدلل ضيف الله ويمتنع ، فيقنعه فواز هلال بالا يخاف فلن يسمعه احد ، ثم يغريه بانه سيعمله القراءة والكتابة ، ويسعف الشاعر شيطانه ، فيرفع راسه منشدا :

يا رفيقي يا رفيقي انت لست بصديقي
تصرم الايام دوما في نعيق وبهيق

وحدت هذه الافكار من نشوة المراقب ، فطردها عن مخيلته . واتجه ناحية سرير النهر الجنوبي المرتفع ليعود الى جوه الاول ، المثير للذكريات والباعث على التأمل .

اشرف على النهر من الاعلى . ان الطبيعة تعايش النهر في تهيب ، فهي تخشاه وكأنه كائن حي غريب الاطوار . ان كل ما على النهر وحوله مثير العجب . اذا سار المرء على ضفافه قد يجد بيوتاً طينية متطامنة ، دون ان تأخذ اسم قرية او بلدة ، ولكنها تسمى بأي اسم كان : اسم رجل حي كان أو ميت ، ولربما اسم حيوان منقرض أو كائن لم يوجد بعد ، وقد يكون اسم أحد البيوت صفة آفة من الآفات . ولربما يلتقي الباحث بخيمة منفردة تقرفص فيها عجوز لها عمر النهر ، وقد تقدم هذه العجوز لزائرها طاسة من اللبن الرائب ، ثم ترجع الى كعب قدمها تخيطه بأبرة مكسورة وخيط اسود . ولكن النهر يظل هائما لا يعبأ بها ، وكأنها احدى مخلفاته التي قاسى في انشائها ، دون ان يسألها عن سر قدمها المشروطة ، أو عن اية حصاة من حصاه المسنونة قد عملت حدها بها . وتأمل الشاب مياه النهر من الاعلى : يبدو ان ما قاله الرسام انطونينو عن النهر صحيح مائة بالمائة « ان النهر يحيا باستمرار و يتبدل باستمرار . ويغير لونه على الدوام . ان الحياة لمن يحيا ويتبدل » .

ويقول الرسام أن الفيلسوف ابيقور هو أول من أتى بهذه الحقيقة .
الحقيقة .

وهبط المراقب نايف سعيد سرير النهر ، محاذرا المساقط شبه القائمة ، والحفر التي خلفتها عمليات السبر . وشاهد الآليات الثلاث المنتصبة في أماكن متفرقة بعيدة عن بعضها ، انها صامتة صمت الصائم الذي اكتفى من التجشوء بعد أن ابتلع كميات هائلة من الطعام . ولكن معدات هذه الآليات لا تستقبل شيئا مما تأكله ، بل تقدم كل الصخر والغضار والحصا والرمل ، الى زبائنها من العمال ، الذين يحملون ماتنهشه من باطن الارض ، وينقلونه الى المختبر لفحصه وفرزه وتصفيته ، دون أن تدري بعد شيئا عما يسمى بالنواة الغضارية الكتيمة ، أو الصخور الباليوزية والنيوزية والراعية . ان السيارة لا تعرف شيئا من ذلك ، همها الوحيد هو أن تعض الارض ، وترمي لقمها الى الناس من حولها ودون هوادة ، الى ان يأتي الليل فتصمت وتستريح ، وتسترد انفاسها الى الغد .

سبر الارض ! . يتذكر الآن المراقب نايف سعيد ما يقوله فيورور يوركوفيتش عن فلسفة السبر . ان هذا المهندس الجيولوجي ليس عالما فقط ، بل هو أديب أيضا . فهو يقول . « ان عملية السبر هي كفن التحليل النفسي وكشف الاسرار . كالروائي الماهر الذي يساعدنا على معرفة حياتنا والتعبير عنها ، لنجعلها حياة أفضل ، ونحولها الى حياة جديدة . وذلك بأن نبني فيها جانبا من روحنا ، نختزن فيه الصالح من أعمالنا ، لننفقه عند أوقات القحط والجوع والأزمات والضياع . السبر هو عملية كشف الاسرار ، ورفع الستار عن المكنونات والمشاعر . هذا في الانسان ، أما في الارض ، فالسبر يتجه الى كشف الخفايا بين الصخور .

فقد ترى امرءا ما ، هادئا ومستقيما وصالحا ، ولكنــه يخفي في طوايـا نفسه شرا مستطيرا . كذلك الارض .. انها تبدو سهلة ، لينة أو قاسية ، انك تسير عليها في هدوء واطمئنان . ولكن الولوج في باطنها ،في ضميرها ، في جوها المشحون ، يريك العجائب . فهناك ترى ما هو غامض كاللاهوت ، الغموض نفسه التي تراه في نفس الانسان . اننا برغم كل عبقريتنا نرى انفسنا فقراء تجـاه الارض الفنية . انــك تسبر الارض فتخرج الذهب والبترول والمعادن ، انك في عملية السبر تجد كل شيء ، وما يتقاتل ويتنابذ العالم جميعه من اجله ، وبسببه ، ويموت بـذلك عشرات الملايين مـن سكان الارض كلما هجم غول من الفيلان في سبيل كسب ارض ما . كما يحدث في ارضكم فلسطين ، وكما حـدث في الحربين العالميتين الماضيتين الكونيتين . هذه هي الاعماق ، والمرء لا يدرك أعماقه الدنيا . نعم .. يجب أن نعرف أعماق الارض قبل أن ندفن فيها ونعيش في الابدية ، في الحياة الداخلية لامنا الارض » .

عصر نايف سعيد راسه خشية التعثر ، فقد سببت له هذه الافكار دوارا غريبا . ووصل الى شاطىء النهر . وراح يراقب الماء يسير هادئا لينا حنونا . فانحنى على الارض وتناول حصاة ، انتقاها مسطحة بشكل ما ، وخطر بباله أن يداعب الماء . لوى ساعده الى الايمن ، ثم قذف بكل قوته الحصاة الى السطح . وبصـورة مستقيمة ، فراحت تتقافز فوق الماء ، تظهر وتختفي وبصورة متوالية . فتخيلها اسنانا تصطف لامعة في ضحكة صامتة . ولسبب ما ردد في نفسه :

اذا رايت نيوب الليـث بـارزة فلا تظنـن أن الليـث يبتسـم

ولكن حركة الحصاة في الماء جعلته يفكر : « الا يمكن للانسان ان يبدع

اختراعا هاما من هذه البادرة ؟ فكيف استطاع اديسن ونيوتن وكوبرنيك وموسى بن شاكر ان يبدعوا مخترعاتهم من ظواهر متشابهة ! ؟ »

وفجأة احس الشاب بأن باطن حذائه مليء بالرمل ، فجلس الى جوار النهر فوق صخرة عريضة ، ليفرغه وينظفه . اذ انه حين رجع في الساعة الواحدة صباحا ، من مهمة قيادة الآليات الوافدة الى مكانها ، ليستأنف نومه ، آثر الا يقلع حذاءه ، متوقعا أن تصل قافلة جديدة . واستلقى على سريره وهو ينتعله .

فيما كان المراقب يقلب حذاءه ويطرقه على الصخرة ، وبما ان عمله هذا لا يتطلب جهدا فكريا ، وبينما هو هكذا وحيدا منفردا بين سريري النهر العاليين ، وامامه تجري « حياة بيقور » ، سمع صوتا يقول كمن يلفظ في نومه ، ولكنه يتكلم في روية وحزم :

« ماذا تفعلون هنا ؟ ! ما هذا العبث الذي تقومون به ؟ لماذا تشوهون الدنيا من حولي ولا تتركون أرضي مستوية وسمائي زرقاء . ما هذا الجنون ! وبالتالي فانتم لستم وحدكم ، اني ارى ذلك . لقد رايت قبل هؤلاء غرباء آخرين ، ومنذ اجيال طويلة . رايت تتارا ومغولا وبعد ذلك فلول الصليبيين الهاربين من صديقي اليرموك في الجنوب . وبعد ذلك عاش حولي عثمانيون وانكليز وفرنسيون . كل هؤلاء واولئك كانوا مدججين بالسلاح حتى اسنانهم . الاول كانوا مسلحين بالرماح والسيوف والخناجر والتالون بالاسلحة النارية . ولكني هزمتهم كلهم ، لانهم عكروا صفوي واقلقوا راحتي ، وحاولوا قهر ابنائي . وهؤلاء القادمون الجدد من ضفاف الفولغا قد تقول انهم غير مسلحين ، ولا تبدو على وجوههم امارات العدوان ، وانهم جادون ، وعلى وجوههم ترتسم خطوط من القسوة والصرامة ،

ولكن كما يبدو لي ، انهم ذوو نيات غير حسنة ويظهر عليهم انهم لا يهابون الصعاب ، وانهم متفقون معكم على راي ، وعلى التعاون في امر ما . لقد حدثني زميلي الدون والزميلان الآخران الفولفا والدنيبر ، ان هؤلاء هزموا الفاشيين منذ ربع قرن من الزمن ولكن . . اذا كان امر تعاونكم يختص بي، فلا اظن انكم وهم ستعتبرونني فاشيا . صحيح انه يحلو لي أن أمـرح احيانا ؛ وامد ساعدي واتمطى ، فتحصل بعض المتاعب ، ولكن في الحقيقة — وصدقوني — اني لا اقصد العدوان ، فهل تعتبرونني فاشيا انا الآخر ؟ لا اظنكم ستفعلون بي كما فعلوا في كيبان (١) . ولكني استطعت هناك أن اعرقل اعمالهم فتوقفوا عن العمل ، وتركوني احيا في طمأنينة وسلام . هل تسعون لان تجعلوني أغير من طبيعتي ؟ ! فما هذه الجحافل من الآليـات الغريبة المتقدمة والمعقدة ، القافزة منها والدارجة والمزاحفة ، بعضها ذوات الابراج وبعضها الآخر ذوات الانوف المفطوسة ؛ وهذه الاكوام من الصناديق المختلفة الاحجام . وهذه التلال من الحديد المتفـاوت في الطول والعرض والتسطيح ، وهذه وتلك من المعدات التي لا اجد لها اسما من التسميات ؛ هل تنوون بكل هـــذا ان تخضعوني لمشيئتكم ، أو تحطموا ما تظنون انه غروري !! انكم ان لاتعرفون عني شيئا ولكني سأفصح لكم عن نفسي . وها انذا . .

انني قديم جدا . . ولدت منذ اواخر الدور الهنسكي الثالث . كان الانسان الذي استقر في حوضي وجعله صالحا للسكن صاحب حضارة مجيدة . اتقي آخر نزواتي بانشاء بيوت متينة ومعابد ومدن ، واقتنى قطعانا من الماشية ،الكبيرة منها والصغيرة ، وعرف كيف يروي زراعتـــه

---

(١) سد كيبان في تركيا على نهر الفرات ظهر اثنـاء بنائه بعض الاخطاء فتاخـر بناؤه عـدة سنوات .

ويحفر القنوات ، ويصنع آلات الري . وكان انساني يذيب المعادن ويخترع منها الاسلحة . وقد عرف ابنائي الكتابة التصويرية على الطين المجفف . ويجد علماء الآثار في طبقات ارضي السفلى آثارا صناعية حجرية ممثلة في قطع الظران المشطوف . اما اسمي فقد عرفة العرب قبل الاسلام وبعده، حيث جاءوا من الجزيرة العربية الى شواطئي قبل العهد المسيحي بقرون .

واسمي بالسومرية (بورانونو) وبالآشورية (بوراتو) وبالآرامية (فرت) أو (فروت) ومعناها النمو والخصب . أما العرب فقد اسموني (الفرات) ، وصاروا يطلقون هذه الكلمة على كل ماء عذب ، وذلك لعذوبة مائي ، خاصة بعد ان صفيتموني أنتم بآلاتكم الشيطانية تلك . وجاء اسمي في القرآن (واسقيناكم ماء فراتا) و (هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج) .

اسمع يا هذا ! . وقل لرفاقك ابناء وطنك والغرباء ، ايضا . . أن لي حرمة وقداسة لدى الشعوب التي سكنت حوضي ، وكنت انا مصدر حياتها وخيراتها . اذ شيدت على ضفافي حضاراتها التي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم . وهذه الحضارات هي : السومرية والبابلية والحثية والآشورية والفارسية والاغريقية والرومانية ثم واخيرا ، وارجو ان يكون آخرا ، الحضارة العربية الاسلامية وينبغي لكم أن تعرفوا ، ان لي منزلة عظيمة منذ القديم ، وعند الشعوب كافة ، تلك الشعوب التي التجأت الي . وهم يعتقدون أني نهر من انهار الجنة . وقد وصفني جغرافيو العرب ، بأنه ، لو علم الناس ما في من الخير والبركة لضربوا على حافتي القباب . وقد ذكرني شعراؤهم على الدوام . فعمر بن أبي ربيعة يغازل سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف قائلا :

أسعيد بماء الفرات وطيبه ... هنا على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وان نأيت وقلما ... ترعى النساء أمانة الغياب

وقد غنت بمآثري المغنيات ، وهزجن لي الاهازيج حين قلن :

يا اهل بابل ما نفست عليكم ... من عيشكم الا ثلاث خلال
ماء الفرات وطيب ليل بارد ... وسماع منشدتين لابن هلال

اقول اذن ، انه كانت لي شهرة مستفيضة في العصور القديمة . وتعود اهميتي الى انني كنت طريقا ما ئيا ، سلكته سفن شعوب كثيرة اقامت في حوضي . وضفافي ايضا كانت طرقا برية هامة . وعن طريق ما ئي ، نشأت كثير من العلاقات بين شعوب الشرق القديم . وتأسست على ضفافي الموانيء النهرية ، فأصبحت مراكز تجارية وعسكرية معا . وشيدت القلاع على ضفافي لحماية الحضارات ، اهلها ومدنها وقراها . ولقد عرفت سهولي نظاما محكما للري ، كانت من اعظم الاعمال الانشائية في الحضارة السومرية ، التي يرجع عهدها الى اربعين قرنا قبل الميلاد . وكان العرب في العهد العباسي ايضا ، قد نهضوا بأعمال الري ، واولوها عناية كبرى ، في عهد هارون الرشيد وابنائه خاصة . فأخرجوا مني انهارا كثيرة ، مثل نهري الهنى والمرى عند الرقة ، ونهر مسلمة بن عبد الملك عند مسكنة . ثم نهر النيل الذي حفره هارون الرشيد بنفسه . ثم نهر سعيد بن عبد الملك بن مروان قرب الرقة ايضا ، وسأحدثك ايضا ، وانت غارق في احلامك عن الشعراء الذين عاشوا معي .

يا ليت ماء الفرات يخبرنا ... اين استقلت باهلها السفن

هل تسمع ؛ لاشك في انك قرات في دراستك عن الشعراء عمرو بن

كلثوم وأبي زبيدة الطائي ، والاخطل ، ومنصور النمري ، والعتابي ، وأبي تمام ، والبحتري ، ودعيل الخزاعي . وقد شجع حكام حوضي العرب هؤلاء الشعراء وقربوهم اليهم ، كما قد يحدث عندكم الآن .. نعم .. وقد شملوهم بالرعاية . كما عاش في حوضي الكثير من العلماء والأدباء ونوابغ الفكر من أمثال : الرقي والمبالسي والرحبي والجعبري والمنبجي والخانوقي والخابوري والرصافي أخيرا ..

ان الادب العربي القديم، يكاد ان يكون كله من انتاج أبنائي الفراتيين، ومن نزلوا في وادي . ولن احدثك عن آثاري العظيمة ، فمن تسمونه (المطران) ذلك الرسام وعالم الآثار الاجنبي ، الذي يتربع دائما على ضفتي هناك في الشمال ، يرسمني في كل لوحة دون كلل أو ملل، سيحدثكم هذا الرجل عن آثاري في محاضرة قادمة . ها .. انتبه .. لقد جاء صديقك ، والذي يسمونه الكسندر كاراتكيفتش .. »

وفعلا .. كان الكسندر كاراتكيفتش يقوم برياضته الصباحية . ولمح زميله المراقب نايف سعيد غارقا في أحلام مبهمة ، فوق صخرة ناتئة . فناداه :

ــ سباخ خير رافيك نايف

وانتبه نايف فجاة . ورفع راسه في شبه غيبوبة ورد ضاحكا ولكن ولكن بعسر :

ــ دوبري اوترا تافاريش الكسندر .

كان كل منهما يحيي الاخر ويجامله بلغة الآخر ، لان طبيعة العمل المشترك خلقت بينهما جوا من الالفة والتعاون ، ووطدت بينهما صداقة عميقة .

قال الكسندر وهو يدنو في خفة بحذائه المطاطي . وملابسه الداخلية:

ـ اراك غارقا في حلم .. عسى أن يكون حلما طيبا .

ورد نايف ذاهلا :

ـ انني استمع الى حديث النهر .

وهتف الكسندر :

ـ هو .. هو .. مرحى . اذن ستصبح شاعرا كصاحبنا ضيف الله ..

ثم زوى ما بين عينيه معاتبا ..

ـ ولكني أرى في وجهك دلائل هم وقلق . فهل كان النهر يشكو لك مما سيحل به ؟

ورفع نايف حاجبيه من الدهشة ، كيف عرف هذا الشيطان ؟ ثم فكر .. « مع ذلك سأتغلب عليه بالشطرنج لا محالة . انه يهزمني في كل مرة . معتمدا على اسلوبه المتقدم ودراسته العلمية لهذه اللعبة المعقدة . »

ونهض نايف مصافحا زميله ، وحددا موعدا للقاء جديد في مباراة في لعبة الشطرنج .

- ٢ -

استقبلهما انطونينو على الفور بهذا السؤال :

ــ اما وجدتما امرأة أ وفتاة اسمها عارية . ؟

والحق ان هذا السؤال يثير العجب في كل بقاع الدنيا ، واذا تجاوزنا الدنيا الى الآخرة ، فلا شك ان هذا السؤال يثير الحيرة في الدارين ، جهنم والجنة نفسيهما ، حيث الناس عراة حفاة كما خلقهم رب الكينونة . أما اذا طرح السؤال على فتيين أحدهما بدوي من عشيرة شمر والآخر قروي من جنوب دمشق ، فانه سيجعلهما لا يصدقان آذانهما في البداية ، ثم يجمح بهما الخيال بعيدا على نفسيهما كلية .

والواقع ان هذا السؤال لم يكن جديدا . وهو اذا كان يحير انطونينو نفسه في البحث عن جسد انثى عار يجعله يعيش على لوحاته ، فهو كفيل باخراج العاملين الفريين عن طورهما . ولكنهما باتا ــ بعد سماعه كل مرة ــ يعتبرانه طرفة نابية لا أكثر . وهذا ما جعل الشاعر الشمري ينشد اثناء عودته من هذه الزيارة ، في احدى المرات :

رسامنا قسيس يعيش كابليس

لحيته طويلة كجردل في كيس

ينشد منا امرأة اما أو عروس

يحكي لها حكاية الفجور والمجوس

يضجر من وحدته يحيا بلا أنيس

وانطونينو هذا ، القادم من ايطاليا كعالم للآثار ، وينقب في قلعة جعبر القريبة من المكان ، يحمل لوحاته وزيوته كل يوم جمعة ، ويمتطي دراجة عتيقة لا تشبه دراجة فواز الا من ناحية انها تدرج على عجلتين . انها دراجة اثرية تتفق مع ما ينبشه من باطن الارض من تراب قاس ، رسم عليه أو حفر مختلف الصور والافكار . وقد لقبه العمال بالمطران لطول لحيته ، التي ارخاها على سجيتها اسوة بالكثيرين من رجال الفكر والفن .

اما العامل بشارة اصطفان فقد اطلق عليه لقب « الشيخ » وذلك نكاية بالآخرين .

ومن الطبيعي ان ينبري فواز والشاعر للدفاع عما يسميانه شرف الديار ، عندما يطرح المطران عليهما سؤاله عن المرأة ، ويشرحان له تقاليد الناس هنا وفي كل مكان .

ويحدثانه عن العورة ، والعيب ، والحرام والحلال ، وما تتفتق عنه قريحتيهما في هذا المجال . ولكن المطران يهز راسه غير مصدق ، وكأنه يؤمن بأن المراة هي المراة ، سواء وجدت في معبد اوفي ماخور . ولعل عينيه او اذنيه ، من خلال عيشة في جعبر مدة من الزمن ، ومن جوله ينزل ويرحل كثير من قبائل الاعراب ، جعلتاه يرى او يسمع ما يجعله لا يصدق كل ما يورده زبوناه من سير واحاديث ، حول عفة المراة وطهارتها وعذريتها . لهذا يظل يطرح سؤاله كل مرة .

ـ اما وجتما امراة أو فتاة ارسمها عارية ؟

ثم يضيف مشجعا :

ـ سأدفع لها مالا .

ويبدو أن هذه الرغبة تستحوذ عليه بصورة حادة ، وهو لا ييأس من وجود فتاة من ذوات الثوب الطويل ، والعصبة الكبيرة السوداء التي تخفي تحتها شعرا فاحما أثيثا ، وذلك الثوب الذي ينام على جسد بض ريان تتمنى الالهة نفسها ان تباركه بنظرة حانية ، او لمسة مرتعشة ، او ابتهالة شفة .

رايته على أبواب نينوى
ينحت من رخامها الازرق تمثال عشتار
ويمنح للصمت جناحا أخضر

ساحدثكما عنه من جديد . عن منعم فرات :

أنا الذي ولدت منذ فجر السلالات
ورأيت بعيني الفرات كيف يولد
ولولا ذلك لبقيت ميتا الى الابد
أما أنا يا أحبائي
فقد عدت من مملكة العذاب
وأنا أحمل وردة حمراء
لارتحل في الازمان الآتية
الى مملكة الاستشهاد . .

انه ينقطع عن غمس ريشته بالماء الملون ، ثم يرفعها الى لوحته ليرسم خطاً جديداً ، أو ليطمس خطا آخر ، أو ليدعم خطا ثالثا بلون جديد . إنه لا ينظر ـ اثناء حديثه ـ الى اي كان ، تظل عيناه معلقتين بخطوطه ، يده وحدها تهبط وترتفع دون ان تضل المكان .

« ان المدنية الحديثة مهددة بأن تصبح عاجزة جماليا ، نتيجة للعزلة او الانفصال المطرد بين الملكات الانسانية والعمليات الطبيعية ، وذلك نتيجة للنزعة العلمية العقلية التي تتجه الى تحطيم القداسة والجمال » .

واثناء ذلك ، اما ان يخلد الفتيان كل الى خواطره الخاصة ، أو انهما يتحدثان عن أمر ما دون أن يصغيا الى نجوى أنطونينو الرسام . وقد يضطر احيانا لان يردعهما :

ــ كفى يا شقيان . ! ماذا اتيتما تفعلان اذا كنتما لا تصغيان لي ! ؟

كان في حوالي الستين من عمره ، ويقول في هذا المجال : اتيت الى الدنيا بلحظة . ولم ارجع بعد ستين عاما . وهو لا يفخر بكونه ينتمي الى دولة متقدمة هي ايطاليا ، بل يقول : انا غجري ، وهذا يعطيني حقا اكيدا لا يحصل عليه احد من جميع الناس ، هو انني مواطن عالمي ، استطيع أن انتقل من بلد الى بلد وراء اثان اشقر ، احمل عليه خيمتي ، دون هوية أو جواز سفر . نحن الغجر ليس لنا دولة ، وهذا ما تسعى اليه النظم الاشتراكية في المستقبل . لقد سبقنا الناس جميعا بأننا بلا دولة .

« يبرز الفن الفطري في اطاره التاريخي ، كما لو كان واحدا من مكتشفات هذا العصر ، وجانبا من جوانب الثقافة الانسانية المتعلقة بقرننا الحاضر . الفن الفطري ، هو فن الينابيع الصافية » .

ويفكر فواز هلال : « ترى الا يمكننا ان نعثر على كنز في تلك المغاور التي تتكشف لنا اثناء عمليات السبر » !

أما ضيف الله فيحدث نفسه :

« إذا قبلت شمسه أن تأتي معي الى هنا ، فساطرد فواز وبشارة وعائش من خيمتي ، وأسكن معها وحيدين » . وكان قد اصطحب معه خيمة من شعر الماعز ، من تلك البيوت التي تقيمها عشيرته في محافظة الجزيرة . دق أوتادها في منطقة العمل في الطبقة ، وسكن معه ثلاثة من الرفاق فرضوا عليه فرضا ، وكن فواز هو الوحيد الذي استطاع أن يستحوذ عليه ويلفه الى جانبه .

وبعد صمت قصير يستأنف الرسام نجواه :

« تنشأ رغبة الفنان ــ نتيجة لاستجاباته الوجدانية في ابداع عالم خيالي او واقعي ، تجري ايقاعاته الخفية في تيار اللاشعور والحلم ، وتحقق وجودها العضوي ، خارج تيار الميراث الجماعي للفنون التأليفية التقليدية . وهكذا تبقى مخلوقات المثال (منعم فرات) خارج اطار الذاكرة السلالية تماما ، لانها تعيش في عالمها الخاص بعيدا عن همس الآلهة ، فهي بشرية حيوانية بشكل محض ، وتمارس حياتها الجسدية بلذة يشوبها الالم الصافي العميق ، ولا تعرف عبارة الا طقوس الالتحام الجسدي » .

في لحظات استشهادك

فتحت أبواب الحلم

فلا تبك

بل نم على اخضرار العشب

كطفل

كما خلقت .. عاريا .

ابيض السريره

مغطى بشفيف السموات الزرقاء .

ويسأل ضيف الله عن الوقت ، فهو يخشى ان يتأخر عن المحاضرة ، فيتعرض لتأنيب المعلم نايف وتهديداته ، ولكن قواز يهز يده ، معبرا عن لا جدوى بأي شيء من هذه المحاضرات .

وتهتز لحية الرسام في اقتناع :

« كان منعم فرات يعمل في يقظة الحس ، مدفوعا بدوافع لا واعية ، لم تخمد جذوتها طوال اربعين عامــا من عمر بلغ السبعين . ونبرات اليقظة اللاواعية تلك ، كانت تهجم وتتدفق ذاتيا في ذاته ، فيقبل على النحت بانجذاب وجداني ، ينسى فيه ارتباطه بما حوله وينفصل عن العالم تماما . إنها يقظات فزعة في الليل ، وسهوم سادر في النهار ، وعمل دائب فيمابين الحالين ، وافتراق عن حياة الجماعة لم يألفه اي فرد منــا طوال الايام . وهكذا .. الرســـام يرى بالألــوان ، والاديب بالانطباعات والنحات بالحجوم ، فالنحــات اذن هــو ارسخ الفنانين مادية ، انه الاعتناق الذي يموت فيه الحلم . هذا هو عالم منعم فرات الحقيقي الذي طمست فيه عوالم من الحب الجسدي . الانسان الوحش ، الانسان المرتــد الى اعمــاق التاريخ ، هذا هو الرمز الوداعي الاخير في اعمال منعم فرات .

الرسام انطونينو يتحدث عن النحات منعم فرات ولكنه لايتحدث عن ذاته . انه في الحقيقة ثورة على فنه نفسه . فهو لا يؤمن بالاكاديمية ، انه يعرف الفنون التشكيلية ، ومارس التكعيبية والانطباعية والتجريدية وحتى السريالية ، ولكنه الآن يرسم وفق مذهب خاص ابتدعه هو نفسه.

يسأل ضيف الله :

ــ وهذا الخط ماذا يمثل ؟

ويتطلع فواز ويجيب بحدة :

ــ انه سكة قطار يا ابلــه . .

يضحك انطونينو بسذاجة مغمغما :

ــ لا . . انه الطريق الذي يقود الى الفضيلة . .

ويعترض فواز صائحــا :

ــ ولكن هذه السكة التي تقود الى حلب . .

ويصحح ضيف الله في اقتناع :

ــ بل يوصل الى دير الزور . . الا تعلم بأنهم سيمددون سكة قطار الى دير الزور ؟

ولا يكترث انطونينو بهذه المزاعم . انهم اطفال لا اكثر . . حتى وأن سلكا هذه الطريق التي ارسمها فلن يصلا الى اية فضيلة . فهما يجهلان ارتباط المساحة بالفراغ . ولا يعرفان الانطباع والايحاء ، ولا تهمهما علاقة الانسان بالطبيعة . كما انهما لا يدركان ماذا تعطي الالوان ، ومعنى الضربة اللونية . يجب تعليمهما أن اللوحة تعطي كل ناظر انطباعا معينا . ولـكن

هذه الانطباعات جميعها تصب في معنى واحد . ولكن ماذا يهمني . ؟ لـن انصب نفسي معلما لا مثال هذين الفرين .

« كان منعم فرات مطاردا من قبل الحكومـة ، بسبب نحته شخصيـات مسؤولة بشكل ساخر ، وقـد استدعته السلطة وحبسته ، واخذت تماثيله . وذات يوم كان منعم فرات واقفا يحمل تمثالا ليبيعه ، فاستدعاه مديـر المتحف واخذ التمثال منه وامر بحبسه من جديد . ووصلت القضية الى المحكمة . وحضر المحاكمة ممثل المتحف ، ولكن القضاء كان نزيها فبرا ساحة منعم فرات واطلق سراحه ليتشرد من جديـد . »

وراحت آذان الشابين تتفتح ، هذا أمر مشوق ، السجن التشرد .

ــ وهل كان منعم متشردا ؟ .

ورد الرسام وهو يمزج الصباغ :

ــ كمعظم الفنانين في العالم .

ولكن تشردهم ذو معنى آخـر .

وقال ضيف الله :

ــ وما معنى التشرد ! .

ورد الرسام في طمانينة :

ــ تشرد الفنان هو خروج على الواقع الأليم وشجبه . أما التشـرد الآخر فهو العيش في هذا الواقع .

وعف العاملان عن فهم هذه الفلسفة ، نظر فواز هلال في ساعة يده ، وتمطي لينهض قائلا :

ـ هيا يا ضيف الله .. الساعة تقترب من العاشرة ..

ولم ينس هلال وهو يودع المكان ، ان يلتفت الى الرسام انطونينو ناصحا :

ـ لا تنسى لحيتك يا مطراننا العزيز .. احرسها من التراب والشوك لتبقى طاهرة ..

ولم يبتسم الرجل لهذه النصيحة . بل مال جانبا ليتأمل الشمس الصاعدة .

* * *

وصل نايف سعيد الى غرفته شبه متعب ، صحيح انه زالت آثار تقطع النوم والاستيقاظ المبكر جدا ، الا انه حديث النهر حد" الى درجة ما من نشاطه . الفى عبد السلام حيدر يجلس على حافة سريره يدلي قدميه ، يهزهما ويقرأ :

فراح يصغي ليطلع :

« ولكن لا يمكن ازالة الشكوك حول طبقات الارض الا بعد جمع وفحص نماذج الحيوانات المتحجرة ، وقد وجد ان وادي الفرات في الطبقة متآكل ويحوي طبقات لينة من المارل الجيري والغضاري ، وفي بعض المناطق تشكل هذه الطبقات القسم الاسفل من المنحدرات وهي اقدم الصخور المفحوصة» .

وسأل نايف :

ـ هل هذا تقرير الامس ؟

ورد عبد السلام :
ـ بل هو تقرير اول امس .
واستأنف القراءة :
« ويمكن التفريق بين طبقات الصخور من الجير والفضار، ولكن هذه الفوارق ضئيلة جدا . والصخور التي يجري فحصها ذات لون خضراوي الى رمادي زرقاوي في الاسفل يتحول الى رمادي صفراوي واصفر في الاعلى .»
وعاد نايف يقاطعه :
ـ كفى قراءة الآن .. هل هيء مكان المحاضرة ؟ .
ولم يطو عبد السلام اوراقه بل رد وهو يتأملها :
ـ نعم .. وقد جهزت الكراسي بنفسي ..
وتابع عبد السلام حيدر القراءة :
« وفي الاجزاء السفلى تحدث تشققات متوسطة الى صغيرة ، اما في الاجزاء العليا في اتجاه الميوسين فتحدث تشققات اوسع محليا .. »
قال نايف سعيد :
ـ ارجوك يا عبد السلام .. ماذا لو اجلت القراءة الى حين آخر !
ورد عبد السلام على مضض :
ـ ماذا تريد . ؟ ..
سأل نايف :
ـ هل حضر الاستاذ عبد القادر عياش . !

ــ هز عبد السلام راسه :

ــ لا ..

« وفي انحاء اخرى احتل الجبس الاماكن الفارغـة وفي بعض الانحاء وجد السـبار الثقيل يملأ الفجوات . »

وعيل صبر نايف سعيد . فرفع يديه مستنجدا :

ــ اتوسل اليك .. اذا لم يحضر عبد القادر عياش فكـيف، سيتم القــاء المحاضرة ! .

ونفخ عبدالسلام نفخة كبيرة . وقال :

ــ لقد أناب عنه استاذا سيقوم بذلك . وماذا تريد ايضا ؟

وتذكر نايف سعيد شيئا بات يثير اهتمامه لاول مرة :

ــ هل سمعت في الصباح امراة تهدد اخرى بالقتل ؟

ودون اهتمام أجاب حيدر :

ــ نعم ..

وحملق نايف عينيه :

ــ وهل تقول نعم بهذه البساطة .. !

ورد حيدر بعفوية :

ــ وماذا تريدني أن افعل .. ؟

قال نايف بغضب :

ــ الا يهمك أن يغرق انسان في النهر !

وضحك حيدر لأول مرة :

ـ انه تهديد فارغ .. الناس يهددون بعضهم بعضا كل دقيقة ، ولكن حادثا واحدا لا يقع ابدا ..

ولكن نايف سعيد لم يقتنع بل سأل سؤالا جديدا :

ـ طيب .. هل تعرف شخصا اسمه مهيار ..؟

قال عبد السلام على الفور :

ـ اي منهما .. هناك اثنان .. مهيار عيسى عبيد ومهيار خلوف العبد الله ..

قال نايف ساخرا :

ـ انه مهيار الذي سيفرق الفتاة ..

وعاد عبد السلام الى الابتسام :

ـ اذا كان هو المقصود فسيكون هو مهيار الاول ..

ورد نايف بعصبية :

ـ ولماذا . !

قال عبد السلام حيدر واثقا :

ـ لانه كهل ودميم .. وهؤلاء ينتقمو من البشرية لكهولتهم ودمامتهم .

واراد نايف ان يفصل النقاش :

ـ هيا اذن .. لقد ازفت الساعة العاشرة .

★ ★ ★

خصصت احدى البراكات المنعزلة لتجري فيها الاجتماعات والمحاضرات، كما استخدمت لايواء بعض الفنيين وموظفي المكاتب . يتم عزل الاسرة صباحا ، وتصطف مكانها الكراسي، ويوضع في الراس منبر منخفض ليقف وراءه المحاضر او رئيس الاجتماع . واليوم بدأ العمال وبعض المهندسين والموظفين يفدون الى المكان .

« ان كلمة فاض قديمة في اللغة العربية ، ولما كانت ضفاف الفرات آهلة منذ القديم بقبائل عربية فقد شاع وصف هذه الظاهرة السنوية او الحدث الموسمي الطبيعي للفرات . ان لكثير من الأنهار في العالم فيضاناتها ، والفيضان ذو علاقة طبيعية بنظام مجاري المياه وتغذيتها وديمومة احواضها . . »

انحنى الكسندر كاراتكيفتبش على اذن نايف سعيد ، وكان يجلس بجانبه واخرج ورقة وقلما وسال :

ــ ما معنى ديمومة ؟ !

ورد نايف هامسا :

ــ ديمومة معناها وجود دائم .

وسجل الكسندر ذلك . كان يجلس في الصف الامامي ثلاثة من الخبراء فقط ، هم الكسندر والمترجم عبد الرؤوف سكرتير نائب رئيس الخبراء كيسينيا ايفانوفنا ، وهي فتاة لا تعرف شيئا من اللغة العربية ولكنها حضرت بايعاز من رئيسها توبا شيفسكي .

« وللفيضانات أخطارها اذا كانت تتغذى من السيول المتكونة من ذوبان الثلوج على الجبال ، وتزداد هذه الاخطار

اذا هطلت امطـار غزيرة على ارض حـوض النهر ، وكانت الارض غضارية لا تمتص الماء ، فيجري الماء فوقها ليترع مجرى النهر ويجتـاح الضفـاف ، فيهلك الزرع ويقوض البيوت الناس » .

سأل الكسندر :

ـ ما معنى يترع ! ؟

وبما ان نايف يفتقر الى فهم كثير من الكلمات الفصحى فقد رد :

ـ ينبغي لك ان تحصل على قاموس .. ساشتريه لك .

« لقد كانت الفيضانات منذ القديم مادة حية للآداب ، فقد وُجدت قصص عن الطوفان عند اغلب الأمم والأقـوام . وقد احصى الباحثون وجودها فاستنتجوا انها منتشرة في قارة آسيا وافريقيا وجزر المحيط الهادي . وقصص الطوفـان تختلف فيما بينها اختلافات كبيرة ، قسم منها كانت اساطير لا اكثر ، يضعها كتابها ليقراها الناس ويخرجوا عن ضجرهم ، او وقائع حقيقية يصورها الكتاب في مشاهد انسانية ، يدعو بعضها الى التوبة الـى الله والرجوع اليـه . اما الكتـاب الواقعيون فيهدفون الى لفت نظر الدولة الـى درء اخطـار الفيضان ، واقامة السدود والموانع حرصا على سلامة الناس، وتوفيرا للمحاصيل الزراعية والمواشي .. الـخ .

اما قصص الطوفان البابلية ، التي كانت في الاصل وقائع حقيقية ، فكانت قد حدثت في الماضي البعيد ، وروايات الكتب المقدسة عن الطوفان تشبه الروايات البابلية شبها ، يجعلها

ترجع الى حادثة واحدة وقعت الى حادثة واحدة وقعت في تركيا ، وفي القسم الجنوبي من العراق في بداية الالف الثالث قبل الميلاد ، كما تؤيد ذلك التنقيبات الحديثة في جبال ارارات ومدن العراق القديمة حيث كان موطن النبي نوح ، وقد ورد ذكر الطوفان ايضا في اثبات الملوك السومريين .

وكان الطوفان الوارد في ملحمة جلجامش حدثا عظيما ، وقع قبل تغلب الانسان على الأنهار ، بما أنشأه من السدود وأعمال الري . »

كان المحاضر الذي انتدبه الاستاذ عبد القادر عياش لينوب عنه في القاء المحاضرة ، جاف الريق ، لذلك يظل يطلب الماء أثناء قراءته ، ويتوقف عن القراءة ريثما يحضر كأس الماء ، مما اضطر المراقب نايف سعيد لأن يأمر له بابريق ممتلىء تم وضعه على المنبر امامه . ولا يمكن أن يوصف المحاضر بأنه كبير السن ، ولكن هيئته المتعالية ، التي اكتسبها ، اما من الوقوف وراء المنابر طويلا ، أو من وظيفته كرئيس ديوان محكمة التمييز ، جعلته يبدو كشيخ خلق والعصا في يده يهدد بها ويتوعد . وكان وهو يستأنف حديثه عن الفيضان كأنه يهدد به عباد الله غير الصالحين ليصلحوا ويرعووا .. والله شديد العقاب .

« كانت الانهار التي شقها الاقدمون من الفرات تستعمل لغرض الارواء ، وللتخفيف من وطأة الفيضانات » .

وفجأة لاحظ المراقب نايف ، أن لا وجود لفواز هلال وللشاعر ضيف الله بين الحضور ، فضغط على أسنانه ، ضاماً قبضتيه بغضب .

« هذان العاصيان ، ساعرف كيف القنهما درسا ! »

وابتلع المحاضر كمية اخرى من الماء قبل أن يستأنف :

« ان شهري ايلول وتشرين الاول يسجلان عادة أوطأ منسوب لمياه الفرات ، ثم تأخذ المناسيب بالارتفاع ، ويسجل النهر في كانون الاول والثاني وشباط مناسيب اعلى بسبب السيول والامطار .

وهذا ليس بالفيضان الشتوي ، أما الفيضان الربيعي فهو الفيضان الخطر الحقيقي الذي يسبب الكوارث والمصائب »

لاحظ نايف وهو يجلس في مكانه ويتطلع الى النافذة المقابلة أن مرؤوسيه يتجهان الى البراكة بتباطؤ ، وهما يشدان على خاصريتهما وينحنيان من الضحك ، وهذا ما ضاعف من نيته على انزال العقاب بهما . ثم خطر له أن ينهض ويوصد الباب بوجهيهما ، ثم استنكف لبعده عن الباب وكيلا يعكر صفو الهدوء ، ولكنه ظل محتفظا بتوتره ، محافظا عليه . ودخل الشابان أخيرا بجلبة وضجة ملأت جو القاعة ، مما جعل المحاضر يتوقف عن القراءة ، ويمسك ابريقه يشرب منه ، دون احساس بالعطش .

اما نايف سعيد فقد تحول توتره الى ما يشبه البهجة ، لماذا ؛ على الاغلب لان غريميه أضحيا في قبضة يده . واستأنف المحاضر نشاطه .

« ويضر الفيضان بساتين المنطقة وخاصة بساتين دير الزور والرقة ، ويسبب للدور المحيطة بالمنطقة أضراراً بالغة ، فيصدع جدران بعضها ، ويقلب السقوف على رؤوس اصحابها الآمنين » .

وفجاة نهض ضيف الله وبلا مقدمات، ارجع عقاله الى الوراء وهتف:

أيهـا النهر الشهـير دون مـوج او هدير

تسحب الثوب طويـلا كعروس مـن حرير

لست في الحق وقورا انت غـدار كبـير

وصفق مستمع وحيد في القاعة هو الكسندر كارانكيتفش .

ولكنه توقف فجأة حين لاحظ أن احدا لم يهزه هذا النداء .

اما نايف فقد ابتسم ابتسامة مرة تنضح بالغيظ . وأما المحاضـر فقد شد من هامته ، وكأنه هو المسبب لهذه الثورة المباغتة التي أثـارت المستمعين الى حد كبير . فاستأنف قراءاته :

« وينتشر البعوض بكثرة ، يزعج الناس بلسعه وأذاه . ويستمر كل فترة الصيف ، حيث يعشش في المستنقعات التي يخلفها الفيضان » .

قال فواز للشاعر وبصوت مسموع :

ــ قل لي شعرا لأخطب مثلك . .

ورد ضيف الله :

ــ اسكت . . ان المعلم نايف يراقبنا وعيناه حمراوان .

« ان فيضان الفرات هو اكبر آفة تجتاح المنطقة .

وهو اكبر مشاكلها الخاصة ، وستبقى هذه المشكلة الى أن نسيطر على النهر ونتغلب عليـه . . »

واحس نايف بصوت النهر يقول له : هل تسمع . ! هذا ما تنوون ان تفعلوه بي . . وأنا لكم بالمرصاد . ! .

« ويتناقل السكان بدير الزور وفي القرى اخبار الاماكن التي اجتاحها الفيضان ، والمواقع التي غمرها واتلفها » .

وعاد فواز هلال الى الشاعر يطلب اليه أن يسعفه بأبيات من الشعر ليظهر بها أمام الناس وجيها وذا قيمة .

ـ هيا ياضيف الله .. قل .. قل لي شيئا ..

ثم يغريه :

ـ سأعلمك القراءة والكتابة ..

ويعده برشوه .

ـ ساركبك على دراجتي ..

ولكن الشاعر ، وهو يتأمل نايفاً من بعيد ، يحس بأنه سيتعرض لغضبه اذا هو استجاب لنزوة زميله . وفرغ ابريق المحاضر فأمر له بابريق جديد ، ثم عاود قراءته :

« ان الفرات ، وان كان مصدر حياة السكان ، الا أنه مصدر شقاء للكثيرين من ابنائه ، يروعهم أشد ترويع و .. »

ـ هيا ياضيف الله .. قل .. قل لي شيئا ..

ـ حسنا .. اكتب ..

مامعي ورقة أو قلم ..

ـ طيب .. سألقنك اذن ..

ونهض فواز هلال يشد من سترته . وتنحنح نايف ملفتا النظر ، رادعا ومانعا القيام ببادرة قد تخل بالامن والأدب . ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح . وبالرغم منه امتلأت القاعة بالضجيج . وكان صوت فواز جهوريا

لا يستهان بقوته ، فقد كان في يوم ما موظفا في سلك الامن ، وقد شارك باعتقال كثير من الناس حيث أودعوا السجون ولقوا شتى صنوف التعذيب.

قد .. يراك .. المرء .. تمشي .. وئيدا ! ..

وهمس لضيف الله ..

ـ عجل قل البيت دفعة واحدة ..

وتمتم الشاعر في وداعة :

ـ ضاحكا مستبشرا وسعيدا .

ويبدو ان المحاضر راح يشارك المراقب نايف سعيد استياءه من هذا اللغط الذي لا داعي له . فراح يصرخ في هذه المرة ..

« ان آفات جسيمة متوالية تحل بهذا الوادي .. »

واختلط صوته بصوت فواز الذي كان ينادي :

ـ ناسيا أن في قلبك غولا

« فما يكاد يقضي فصلا حتى تنزل به نكبة ..

ـ يتمطى عند الربيع مديدا .

« وأكبر نكبة انه بفيضانه .. »

ـ يغرق الارض والنفوس غضوبا ..

« يستغل روح البداوة الطاغية على سكانه ..

ـ تاركا في الخراب مجدا تليدا ..

وضاعت الاصوات على المستمعين . ولم تتمكن الآذان أن تلتقط الاصوات معا ، وتفرزها كلا على حده . ولكنهم فهموا .. كما فهم الكسندر كاراكيفتش وكسينيا آفا نوفا ، بأنه يجب أن يوضع حد لجبروت النهر وقسوته واعتداءاته على الطبيعة والبشرية .

٣

« في بعض المناطق من المساحات المدروسة ، تظهر طبقات رقيقة ومتداخلة من الميوسين الاسفل . وتتألف هذه الطبقات من سطوح متعاقبة من الدولوميت الرمادي والرمادي البني، والدولوميت الجيري الصلب و . . .

نبر المراقب نايف سعيد في وجه صاحبه :

ـــ اقرا بصمت ارجوك . . اريد أن اعمل .

كان الوقت ليلا ، وقد تجاوزت الساعة العشرين ، وأوى العمال والمهندسون والمراقبون الى مضاجعهم ليستيقظوا مبكرين . والصمت مخيم على الطبيعة ، ماعدا حفارة آلية وردت حديثا ، يهدر محركها من بعيد ويدق الارض برتابة ، وقد وُضعت موضع التجريب ، يقوم ببعض الخبراء بتشغيلها لتدريب العاملين عليها .

قال عبد السلام حيدر :

ـــ وماذا تريد أن تعمل في هذا الليل ؟!

ورد نايف مغيظاً :

ـــ سأقوم بعمل لايقلق راحة الآخرين على أية حال . .

ولكن حيدر استأنف استظهاره مثيرا صاحبه :

« وهذه الطبقات الميسيوتية السفلى تشكل مرحلة انتقالية بين المارل الغضاري الجيري اللين في الاسفل ، والدولوميت المتجانس من العصر الميوسيني المتوسط .»

جمع نايف أوراقه ونهض في حدة :

ـ سأنتقل الى الجحيم في سبيل الابتعاد عن ازعاجك ..

ولكن عبد السلام هدّأه وامسكه من ساعده :

ـ تمهل .. هذا تقرير صباح اليوم ، يجب أن تحفظه بدورك ، لتعرف ماذا تعمل .. فورشتانا تقومان بالعمل ..

قال نايف شاكيا :

ـ انا اقرأ تقريري في وقته آخر .. أما الآن فأريد أن اتفقد مذكراتي:

ورد عبد السلام حيدر :

ـ ولكن ماهي الفائدة من هذه المذكرات ؟ أريد أن أفهم ..

قال نايف محتفظا بوقاره :

ـ قد تعتبرها هواية لا أكثر .. ولكنها هواية غير مؤذية على أي حال .. انها تجعلك تعيش في الماضي لتصنع المستقبل . الماضي بسوءاته وعيوبه ، والمستقبل بما تريده ان يكون ..

وهز عبد السلام حيدر رأسه :

ـ معك حق .. هذا عمل ممتاز .. ستعلمني كيف أفعل ذلك .

وهو يتصفح مذكراته ، توقف نايف سعيد امام احدى الصفحات،وراح يقرؤها . ثم أخذ يقلب الصفحات السابقة ، الى ان وصل الى بداية مذكرة يوم من الايام . وهنا تذكر شيئا . خشي أن يكون زميله قد تأذى من حمله عن السكوت ، فأراد ان يجعله راضيا . رفع اليه راسهضاحكاً:

ـــ اسمع ياعبد السلام . يحكى ان بعض الحكماء راى رجلا يكثر من الكلام ويقلل من السكوت فقال له : لقد خلق لك اذنان اثنتان ولسان واحد ليكون ماتسمعه ضعف ماتتكلم به . .

ورد عبد السلام متشفياً :

ـــ هذه الحكمة في صالحي يا نايف . . فأنت يجب ان تسمع بأذنيك الاثنتين ، وانا اتكلم بلساني الواحد . ثم انني بجوارك لا استطيع أن استعمل أذني على الاطلاق .

ثم مضى الى خيمة من خيام العمال ليلعب « الطزنيب » . ولم يأسف نايف سعيد لشيء ، بل مضى يقرأ مذكرة ذلك اليوم الذي وقفت الصفحة في بدايته .

● من دواعي التساؤل الملح ، أنه لم يبحث بشكل جدي ، وبالتالي لم يُتخذ اي اجراء لانصاف فئة بائسة من بنات شعبنا ، تستغل أبعد استغلال ، وتستعبد ابشع استعباد ، هذه الفئة هي «خادمات البيوت» .

كانت أخته خادمة .

● والظاهرة الخاصة لاستغلال هذه الفئة انه استغلال مزدوج، يشترك فيه أهل الخادمة واصحاب البيت الذين تقوم على خدمتهم .

كان ابوه يأخذ راتب اخته لينفقه كمصاريف لدراسته .

● فالأهل يستولون على كامل أجرها ، ويسلمونها كالحيوانة لاصحاب البيت المخدوم ، طالقين لهم العنان لاستغلالها واستعبادها في العمل والمعاملة الى ابعد مدى ودون اي اعتراض . وهكذا تغدو المسكينة دون اي معين . تعمل في ظروف قاسية بعيدة عن الرحمة .

أتت لزيارة أهلها في القرية ، فشاهدها في احدى العطل المدرسية متورمة الوجه .

● والخادمة غالبا طفلة دون سن العمل ، تنتزع من بين افــراد عائلتها وجيرانها وصديقاتها ، من مجتمع كانت تعيش فيه مالكة حريتها وذاتها ، كانت فيه موضع حرص ورعاية ، شاعرة بالدفء والسعادة ، تنتقل بعدها الى مجتمع غريب ، يختلف تمــام الاختلاف عن مجتمعهــا السابق ، حيث تعتبر جسما غريبا لايسمح لها بأن تتفاعل معـــه أو مع افراده . وتتحمل مسؤولية اكبر من عمرها ، تكون في أغلب الاحيان غير قادرة على تحملها . كتنظيف وتدبير أمور البيت والاهتمام بالاولاد ، وجلب الحاجيات من السوق،وحمل الاثقال التي قد تكون أثقل من وزنها الحقيقي.

شاهد ظهر أخته منحنياً ، سألها عن السبب فلم ترد ، ولكنه ادرك أنها تحمل سلالا مليئة بالخضار والفواكه .

● وتحاسبها مخدومتها عن كل تهاون او تقصير مهما صغر شأنه. ومما يزيد في صعوبة المهمة الموكولة اليها ، أن المحيط الجديد الذي فرض عليها العمل فيه ، هو اكثر تطورا وتعقيدا من محيطها السابق المتخلف . فله مقومات ومفاهيم مختلفة جدا عن مفاهيم ومقومات محيطها الاساسي، مما يجعلها تتعرض لأخطاء ، وتتصرف تصرفات تعتبر شاذة مما يعرضها للتنكيل والاهانة .

سمع أخته تردد كلمة عيب وحرام واستحي تجاه أمور عادية ، يمكن لاية طفلة قروية أن تقوم بها ببساطة .

● وبانتزاع الطفلة من مجتمعها الاصلي ، أما أنها تترك مدرستها

اذا كانت تلميذة ، او انها لاتذهب الى المدرسة اصـــلا ، اذا كانت دون السادسة او السابعة ، وبذلك تحرم من التعليم وتنضم بصورة آلية الى جيش الأميين في بلادنا .

ــ رآها مرة تلتقط ورقة جريدة من الارض ، تقبلها بخشوع .وسألها عن ذلك ، فقالت : انها قرآن . .

● وبما ان هدف الاهل الاساسي هو الحصول على المال ، فابنتهم تكون سلعة ، تؤجر لمن يدفع أكثر . وهكذا تنتقل البنت من بيت الى بيت ومن مستأجر الى آخر ، دون أن يرد في الحسبان ماتتعرض له نفسيتها من تعقيد .

اول من عملت عنده هو اقطاعي في مدينة حماه ، ثم نقلها أبوه الى دار ضابط دفع خمس ليرات زيادة .

● أما ظروف عمل الخادمة وعلاقاتها الاجتماعية مع افراد العائلة التي تعمل في خدمتها ، فتتوضح فيها الظروف الطبقية بأجلى معانيها . وليس هناك اي تحديد لساعات العمل او العطلة الاسبوعية ، أو عطل الاعياد ، فالعمل مستمر ليلا نهارا وفي جميع أيام الاسبوع بلا استثناء . واحيانا يستمر العمل الى ساعات متأخرة من الليل ، ويبدأ عادة في الصباح المبكر ، وقبل استيقاظ افراد العائلة المخدومة ، وعندما يأوي افـــراد العائلة ظهرا لأخذ قسط من القيلولة تذهب البنت الى المطبخ لجلي الصحون وترتيب الاواني .

رأى أخته مقرحة العينين ، فلم يسألها عن السبب ، عرف بأنهـــا تحن الى النوم .

● وقد يظن البعض أن الخادمة ستكون حالها أفضل من حالهـــا السـابق في بيت ذويها الريفي ، اذ انها هنا ستتناول ما لذ وطاب مـــن الطعام ، ولكن هذا الزعم باطل وغير واقعي ، فهناك شيء اسمه الفضلات. كما أن المخدومين لهم سننهم ووصاياهم وحكمهم . (اذا شبعت الخادمة ستفرض نفسها انها باتت السيدة فترفض وتعترض وتتذمر) لذا تظـــل مسألة ابقاء الخادمة جائعة سنة متبعة في اغلب البيوت .

لاحظ انها شاحبة الوجه ، جاحظة العينين ، ومع ذلك مدت يدها الى طبق البرغل بما يشبه القرف .

● ولايسمح للخادمة عادة بمجالسـة أفراد العائلة ، سواء عـــلى مائدة الطعام او في أوقات الاستراحة والسهرة ، لان ذلك لايفسد أخلاقها فقط ، بل يفسـد أخلاق فتيات العائلة وفتيانها .

تنبه الى انها تتكوم في الزاوية ، برغم أنها بين ذويها ، وسألها عن ذلك ، فردت محرجة : هكذا اعتدت .

● أما من ناحية اللباس فسيكون الامر داعيا الى الحزن والرثاء . انها هنا في بيت مخدوميها ليست قروية تفخر بثوبها وغطاء رأسها وحذائها الريفي مهما كان شكله ، وبالتالي ليست ابنة مدينة ترتدي البلوزة والخراطة او الفستان . انها هنا ترتدي المشوه من لباس المدينة ، ترتدي الخروق التي تأنف من استعمالها أمها في تنظيف أرض غرفتها الطينية .

شاهدها ترتدي ثوبا بدا من تفصيلته انه كان في يوم ما أنيقـــاً ، ترتديه فتاة في الثانية عشـــرة ، وكانت أخته في هذا السن ، أما اليـــوم فالثوب الذي ترتديه يأنف جامع الخروق من ايوائه في كيسه.

● بعد عامين او ثلاثة تصبح الخادمة الصغيرة فتاة تمتلك انوثة . وينظر اليها الابناء المخدومون على انها فريسة سهلة المنال . وهنا تتوضح العلاقة الطبقية أيضا .فكلمة الشرف والاخلاق والاستقامة وغيرها من الكلمات المتعلقة بالعلاقة الجنسية ، هذه الكلمات ستكون وقفاً لحساب طبقة معينة دون أن تخص طبقة اخرى . وينظر الشاب المخدوم الى الخادمة على انها فتاة مشاع ،حتى وانكان لها عذرية فليس لعذريتهاثمن..

حين قدّم ابوه ابنته إلى الآغا كخادمة ، اشترط عليه أن تظل عذراء، واخذها الى طبيب واستخرج لها شهادة بأنها عذراء ، ووقع عليها السيد المخدوم ، ووضع الشهادة في جيبه ولكن ...

● سوف يتساءل البعض عن وضع العائلة الريفية الفقيرة التي تعيش أساساً على تشغيل بناتها . ولن يتساءل بالطبع الا أولئك الذين يعانون من هذه المشكلة ...

حدث ذلك قبل ان يطبق قانون الاصلاح الزراعي ويحصل أبوه على قطعة أرض في منطقة الغاب ، راح يزرعها قطناً ، وفي ذلك الوقت تخرج نايف سعيد من الثانوية ودخل الجامعة ..

انه الآن يتثاءب ، ويطوي مذكراته ، ويتهيأ للنوم .

....

في تلك الامسية ، كان عمال الورشة الخامسة ، التي يرأسها المراقب نايف سعيد ، مجتمعين يتسامرون في بيت شعر ضيف الله الشمري ، وقد أسمي الشمرّي نسبة الى عشيرته . وقد هيأ الشاعر لضيفيه ابريقاً من القهوة المرة ، واشعل حولها الجزل على الطريقة

البدوية . وكان يجتمع بينهم العامل شاهد ، الذي لايتخلى عن كتابه في احلك الظروف ، وهذه الأمسية كان يحمل كتاباً اسمه (ما العمل ؟!) وقد كان هذا الكتاب ممنوعة قراءته في بعض العهود الماضية ، وكان حاضراً بالاضافة الى رفاق الشمَّري في بيته ، رفاق شاهد في خيمته ، وهم من يسميهم فواز الشهور والايام . فاثنان منهم هما شعبان الصالح ورجب السعدون ، والآخر جمعه السالم ، أما فواز هلال نفسه ، فقد ذهب الى القرية ليجلب سكراً لصنع الشاي . وكان يمكنــه ان يكلف بذلك أحــد زملائه ، عايش الحامد مثلا ، الا انه اراد الذهاب هو بالذات ، لأنه حن الى رؤية صديقته الفتاة اناهيد ، التي راح ينصب حولها شباكه .

وقد تحدث في تلك الليلة شاهد الشاهد ، الذي قلما يتحدث بأمور يومية عادية ، فهو اما انه يخلق مناسبة للتكلم عن قضية ذات دلالة ، أو يشارك في حديث ذي‌شجون ، أو انه يصمت دون حتى أن يصغى للغط لا اهمية له . وقد استغل فرصة غياب فواز كيلا يقاطعه أحد أو يتعرض لنقاش فارغ . وقد تحدث‌في هــذه الامسية عــن الديمقراطية فأكــد ان الديمقراطية هي المناخ الانساني الوحيد الذي يمكن العامل ، من التعبير عن مصالحه الاساسية ، وبلورة وعيه كطبقة واضحة المعالم ، تطمح لأن تمارس دورا قائداً في صناعة المستقبل المشرق ، وتشارك في صــمود الوطن في وجه التحديات ، والقفز من هوة التخلف ، متجاوزا القوانــين والانظمة‌القديمة البالية،وتغيرها لتصبح صالحة لخدمة المنتجين الحقيقيين، كما ان‌الديمقراطية لاتجعل الموظف يتقاضى أجرا أكثر من العامل.وتحدث عن البيروقراطية المكتبية التي تمتص تعب العامل وجهده ، ثم راح يربط العلاقة بين الاجر والانتاج ، وعن دور الاستقرار النفســي والمادي في

جعل العامل يحتل مركزه الاساسي في بناء المجتمع . وقد أصغى اليه رفاقه وهم يهزون رؤوسهم في اقتناع دون ان يبدي ايّ منهم اقتراحا ما لتحقيق ذلك .

وقد أدلى ضيف الله بدلوه ايضا ، فراح يتفقد حبيبته شمسه التي خلفها هنـاك وراءه ، متحينا الفرصة للذهـاب اليها ، الى تل علـو في القامشلي ، ليحملها على مرافقته الى هنا ، وذلك حين يؤمن السكن للعمال ويفرغ بيته الشعري ، كما يظل يحلم دائما . وقد عبّـر عن مشاعره في تلك الليلة قائلا : انحياتنا هنا خالية مما يفرح القلب . اننا نعيش هنا دون حب أو زفرات أو رعشات فؤاد . ان حياتنا الخشنة القاسية تشبه حياة المحكومين بالاشغال الشاقة . ثم أطلق الآهات منشدا :

يا أم الشفتين العندم

رقي لفتاك المغرم

سهماك قد خرقا قلبي

فعجبت لأني لم اُكلَم

واذا ماجرحتني عيناك

رشي لجراحي بلسم

اما عايش الحالم دائما ، فقد عبر عن خواطره ببعض الحكم : اذا اردت أن تحقق احلامك فالاولى بك أن تظل يقظا حذرا ، لامستلقيا ونائما. وساهم شعبان وجمعة بالحديث ، فبادر الاول قائلا : الايام صحائف الاعمار فيجب علينا أن نخلدها بأحسن الاعمال ، أما الآخر فأضاف :مقياس الرجال عقولهم ومقياس العقول الاعمال . وعلى حين غرة سمعت خطوات فواز

المتعجلة ، ثم اذا هو يرفع رواق البيت ويدخل منحنياً . القـى مظروف السكر جانبا ، وفرك يديه بسرور ملتهب ، وهتف بلا توقع :

ـــ لقد رميته بالشرك .. ذلك المعلم الظالم ..

وهتف ضيف الله مجفلا :

ـــ من تعني يا فواز .؟

قال فواز مستنشيطاً :

ـــ الرفيق نايف .. ومن غيره ؟. لقد اقترح أن تفرض بحقنا عقوبة خصم يومين من الاجر ، لأننا ـــ كما زعم ـــ اخللنا بنظام المحاضرة .. وها أنا قد دبرت له مقلبا .

رفرغ صبر الرجال فهتفوا بنبرة واحدة تقريبا :

ـــ وما هو هذا المقلب ؟

قال فواز محاولا ان يصبغ على روايته صبغة دراماتيكية :

ـــ القرية كلها تتحدث عن فتاة غريقة في النهر ، وقد تدخلت الشرطة في الحادث وباشرت التحقيق .

ولكن جمعة ـــ وكان حزبيا حديثا ـــ تدخل في الامر ، وكأنه يتسلم مهمة الدفاع :

ـــ ولكن ماعلاقة الرفيق نايف بالامر ؟

فانبرى فواز للرد ـــ وقد نصب نفسه مدعيا عاما ـــ فاتخذت لهجته صفة مميزة :

ـــ انه الوحيد تقريبا في منطقة الطبقة الذي يعلم بالحادث ..

وجحظت عيون الرجال ، وظل جمعة الوحيد المهيأ للرد والافحام :

ــ ولكن ماهو الدليل ؟. كيف تخرّص ترهات لا أساس لها ؟.

وأجاب فواز بتمهل ، وكأنه يدحض الزعم باليقين :

ــ سمعته يتحدث مع المهندس الجيولوجي عن امرأة كانت تهدد فتاة باغراقها بالنهر . . وهاهي ذي الفتاة قد وُجدت غريقة . .

وصمت الرجال مفكرين بحجج تزعزع اتهامات فــواز : اذا كــان الرفيق نايف قد سمع فعلا بأن امرأة كانت تهدد ابنتها باغراقها بالنهر ، فهل من اللازم أن تكون هذه الغريقة هي الفتاة المهددة نفسها ؟ ثم متى كانَ امرؤ ما يهدد شخصا على مسمع من الناس ثم ينفذ تهديده . . وثار النقاش من كل جانب ، مما اضطر شاهد ــ ولأول مرة ــ أن يغلق كتابه ويصغي الى النقاش ويحلل الامور . وشرح فواز لرفاقه ، كيف تم لنايف سعيد ان يطلع على الامر ، وكيف أنه استيقظ في الفجر . . الخ . . وكان فواز قد اطلع على الحديث بعيد الخروج من المحاضرة ، حيث التقى رئيس قسم الجيولوجيا بالمراقب نايف وراحا يتدارسان مراحل العمل ، ثــم افضى نايف للرئيس بذلك الحادث الذي لم يكن مشؤوما حتى ذلك الحين، وقد دفعه الى البوح به رغبته بتغيير نُزْله . ولم يُقفل نقاش السامرين حتى ساعة متأخرة من الليل .

. . . .

كانت صناديق طويلة وضيقة ، مصفوفة الى جوانب الحفارات على الارض ، وهي مهيأة لأن تمتلىء بالعينات المستخرجة من عمليات السبر ،

والتي تخرجها آلات الحفر على شكل اسطوانات ، اذا كانت الارض غضارية ، او على شكل مواد متفتتة اذا كانت الارض صخرية او جيرية. وقد تجمع حول الصناديق عدد من العمال جامعي العينات ، وبعض التكنيكيين والجيولوجيين ليقوموا جميعا بالفحوص الاولى لهذه المستخرجات. وكان عليهم أن يصنفوا كل المعادن الموجودة ، وربط شكل السبرات فيما بينها ، واعداد لغة جيولوجية موحدة ، تعطي تعريفا لكل نوع من هذه المكنونات .

خلال السبر يرفع الطرف الدائري من المسبر قطعة من الارض ، تدخل في الانبوب وتصعد الى سطح الارض بشكل اسطوانة . وهذا مايدعى « بالجزرة » . وعلى كل حفار ان يعمل جيولوجيا تكنيكيا ، وهو أول من يدرس العينة . ثم يملأ بطاقة ، يحدد فيها بصورة مبدئية حياة الجزرة ، والعمق الذي وُجدت فيه ، وغمرها ، وتركيبها . وبعد تجمع الجزرات التي تم الحصول عليها من عدة سبرات ، يمكن الربط فيما بينها ربطا نوعيا وشكليا وخاصية ، وبهذا يمكن كشف طبقات من الارض المختلفة. وبتحديد وضع الحفارات وابعادها بعض عن بعض ، يمكن رسم المقطع الجيولوجي لوادي النهر ، ويتمثل تناوب طبقات المواد التي يتألف منها : غضار رمل جير .. الخ . ويمكن أيضا تمثيل وضع هذه الطبقات ، ومعرفة ما اذا كانت أفقية أو مائلة ، عمودية أو منحرفة . وعندما يتلقى المهندسون المعلومات ، يعرفون بالتدريج على اية بقعة ستقوم اساسات الانشاء والصب والتعمير .

للوهلة الاولى لايبدو ذلك معقدا ، ولكن — كما يقول المهندس الجيولوجي — عبد الحميد الدرويش : الارض هي الارض ، وهي لاتحمل

هوية ولا جواز سفر ينبىء عن حقيقتها ، يجب فحصها وتفتيشها ذرة ذرة، ولانها ايضا خرساء لا تتكلم . وبالتالي تخرج الجرزات من الارض غير مكتوب عليها ماهي خصائصها أو كثافتها ومدى تأثرها بالحرارة والماء ، أو الى أي عصر تعود . فعلى الجيولوجي ان يحددها ، من الوانها ، من كبر حبها وصغرها ، من قساوتها ولينها ، من بقايا الحيوانات والنباتات الذائبة فيها . وكل جيولوجي يمكنه أن يقدر العينة على طريقته الخاصة، وفق مفهوماته وخبرته والقياسات والميازين التي يعرفها : موسيني ، تيوزي ، باليوزي ، راعي .. الخ . ومن هنا يمكن ادراك مدى العناء المبذول بصدد انشاء أول مصور جيولوجي . وباعتبار أنه غير متوفر في البداية أي مصمم متجانس ذي وجهة واحدة ، فان الدراسة تكون شاقة ومضنية ، ومعرضة لشتى صنوف الاخطاء والزلل .

وسيكون على الجيولوجيين والخبراء لكي يضعوا التعاريف ، ان يلموا بطبقات الارض الاساسية ، ويثبتوا القواعد العامة لملاحقتها وتعقبها . وفي سبيل ذلك يكون على عشرات من جامعي العينات من العمال ، وعلى المهندسين والجيولوجيين والتكنيكيين ان يتكلموا لغة جيولوجية واحدة ، وان يفهم كل منهم الآخر بمجرد ايماءة .

الكل يتفحصون قطعة الجزرة ، وهم يشقونها ويعرضونها للنور والحرارة والماء ، وللمحاليل الفيزيائية والكيميائية ، وحينها يزداد الامر تعقيدا ويتشعب ، فالالوان تتمازج فيما بينها جميعا ، بحيث تذوب الوانها الاساسية وتكتسب الوانا جديدة . ليس هنالك من لون لاتقع عليه العين ، هناك خطوط برتقالية ، وعروق معدنية ، والباب مخضوضرة ، وهناك شرايين متماوجة لونها كالزبدة ، وبقعا سمراء تشبه الصدأ ،

ونوويات وردية . وهناك خطوط صافية تطل على قاعدة رمادية . وكان المهندس الجيولوجي عبد الحميد الدرويش لايهتم بشرح الاشيـاء بقـدر اهتمامه بدفع مرؤوسيه من المهندسين والخبراء الى اكتشافها بأنفسهم. ويسمع العمال المهندسين وهم يتناقشون في جزرة من الجزرات ، فيخامرهم الظن بأن هؤلاء المثقفين ، ليسوا غير هاذرين مهووسين ، يشغلون أوقاتهم بأمور ليس لها شأن . فالتراب هو التراب والحصا هو الحصا والشيطان هو الشيطان ، فلم كل هذه الاحتمالات والحسابات والفرضيات العقيمة !؟

« أظن بأن هذا الموزاييك المعقد ليس سوى نتاج عمل الحيوانات آكلة الغضار ، وهذه الخطوط الصافية هي آثار مرور ديدان ماقبل التاريخ، وان هذا الصخر هو من الحوار الثلاثي . . »

متى بالله كان اي حيوان يأكل غضارا . . ومتى كان مرور ديدان ـ ، في تاريخ من التواريخ يترك خطوطا صافية على الصخر !؟ ولكن وجود المراقبين ، نايف سعيد ، وعبد السلام حيدر وغيرهما على رأس العمال، يجعلهم ينهمكون في اعمالهم في اخراج الجزرات ووضعها في الصناديق ، منصرفين عن أي تعليق ، وزاهدين في التعقيب على مشاورات المهندسين الجيولوجيين وتحزيرهم وافتراضاتهم . « يجب أن نجعل الطبيعة الخرساء تتكلم ، ولكن كيف ؟ الطريقة سهلة جدا . يقوم المهندس على صقل لوحة من الحوار ، ثم غمسها بالبترول ، فتبدو هذه اللوحة للناظر كالنسخة السالبة في الصورة . وعندما توضع اللوحة في المحلول المطهر ، تظهر عليها شبكة كاملة من الشقوق الصغيرة ، وهذه الشقوق تفصح عن معدن اللوحة ، وعن تاريخها وتركيبها وخصائصها كافة .

ان كل جزرة من الجزرات تعطي دروسا جديدة ، هذا فيما يبدو ،

وكان هؤلاء المهندسين الدارسين في المعاهد العليا ، كان ينقصهم منذ البداية الالمام بشؤون الارض والطبيعة ، وان ما قراوه وما تعلموه لم يكن غير كلمات مكتوبة لا أهمية لها .. ولكن حين يضغط الطالب المهندس بين أصابعه قطعة من الصخر فتنقسم بسهولة ، فيلاحظ على المقطع بعض النمش ، عندها يقرر : « انها آثار أمطار هطلت منذ خمسمائة ألف سنة سنة تقريبا » . ويهز الآخرون رؤوسهم مصدقين . لايجد أي منهم اعتراضا أو تصحيحا لهذا الرقم . قد يكون هناك خطأ بسيط بعدد السنين . عشرة آلاف أو عشرين الف أو .. مائة الف سنة ، ولكن ذلك غير مهم .. المهم هو ان الصخرة هذه لاتتحمل الثقل . انه على مستوى انقسام الطبقات الارضية ، يمكن ان يتبين للفاحص بوضوح التعليمات التي خلفتها أمواج البحر الثلاثي أو الخماسي . أما عن أي بحر يتكلم فالشيطان وحده يعلم .

ثم جرى الوصول الى نوع من الصخر أثار اهتماما خاصا . وهو صخر من الصخور الاساسية والرئيسية ، اتخذ كعلامة هادية ، وقد لوحظ وجوده في جميع السبرات وفي كل العينات . وكان الخبير قسطنطين غافريلوفيتش يمسك بيده قطعة من الصخرة ويتأملها بنظرة محيرة . كانت الصخرة تشبه الحوار في مظهرها الخارجي . ففيها الترقيش نفسه ، والخطوط الصافية عينها ، وفيها أخاديد ديدان ماقبل التاريخ . ولكن هذه الصخرة من ناحية التماسك ، يصعب كسرها بالمطرقة . وفوق ذلك يلاحظ ان حبتها أدق من حبة الحوار ، ولم تكن تتألف من الرمال ، بل من التراب ، انها نوع من أنواع الطحين المتلاحم .

قال غافريلوفيتش :

ـ انه يشبه الحوار ولكنه ليس حوارا ..

فرد عليه المهندس حليم أبو سعده :

ـ يجب أن لانخدع بالمظاهر .

وبدأ النقاش وفحص الصخرة . قال الخبير :

ـ لنفرض انه خداع مظاهر ، ولكن لماذا لانسميها نوعا من انواع الآليروفروليت أو اليفرون التي تعني الطحين باليونانية ، أما ليتوس فمعناها الحجر ، اي الطحين المتحجر ، وقد تكون التراب المتلاحم المتراكم، وهذا ماتعنيه التسمية .

وفي كل جزرة جديدة ، تبدأ دراسة جديدة ونقاش جديد . فقد اخرجت الحفارة الثانية عينات ما أن كشف عنها أبو سعده حتى صاح في حبور :

ـ هذا غضار حقيقي !

كانت هناك كتلة من التربة الخضراء الغامقة ، تكاد أن تكون سوداء. وحسبما ورد في جامعي العينات ، أنها تمتد هذه العينة بطبقات كبيرة ، وسمكها يتراوح من ستة الى عشرة أمتار . اذن هنا أيضا توجد احدى العلامات الهادية . ان هذا الصخر يشبه حقا الغضار ، ويرى بالعين المجردة . ان العينة لاتحتوي على حبة من الرمل . وحجم جزئياتها هو حجم الجزيئات التي تشكل الغضار . ولكن .. وفجأة نبع المهندس عبد الحميد الدرويش ، والواقع أنه لم ينبع بل كان حاضرا منذ البداية . فقال في روية :

ـ كلا يا أصدقائي .. لقد أخطأتم . ان هذا ليس غضارا .

رفع الصخرة الى فمه وقضمها . وتوقف العمال حائرين . أن رئيس قسم الجيولوجيا يأكل الصخور ، وهاهو ذا يمضغها ، وسيبتلعها أيضا ... وكتموا في حناجرهم ضحكات مبتورة ، بل أن بعضهم كتم صرخة ..

وفجأة توقف الجميع عن العمل ، وراحوا يرقبون سيارة فـــرع الحزب اللاندروفر تقترب من المكان . لوحظ بداخلها الرفيق أيوب أبو المجد رئيس الفرع ، وتهيأ المراقب نايف سعيد وهب لاستقبال رئيسه ، اما وجود بعض رجال الشرطة يجلسون في مقعد السيارة الخلفي فقد جعل الجميع يترقبون أحداثا عجيبة .

* * *

٤

بالنسبة الى الورشات الاخرى ، كان الامر لايسترعي النظر،فمراقب الورشة الخامسة رفيق حزبي ، وكثيرا ما تأتي سيارة الحزب وتصطحبه الى الفرع لتدارس بعض الشؤون . خاصة وان افراد تلك الورش لم يلحظوا وجود رجال الشرطة في داخل السيارة نظرا لكونهم بعيدين . أما الاضطراب الذي حدث ، فكان بين أفراد الورشة الخامسة . اذن ، ففواز هلال لم يكذب خبرا . وقد أوقع المعلم في ورطة لاشك فيها . تحدث العامل جمعة السالم عن الامر ، صباح اليوم في الناقلة التي تقل العمال الى مكان السبر ، ولكن الموضوع لم يكن ذا اهمية قصوى بالنسبة الى البعض، أما البعض الآخر من افراد الورشتين الثالثة والسابعة فلم يفلحوا بالربط بين ماتحدث به جمعة الصالح وبين ذهاب المراقب نايف سعيد بسيارة اللاندروفر .

وتوقف أفراد الورشة الخامسة فترة قصيرة عن العمل، ولكن تنبيه الجيولوجي حسان السعيد جعلهم يعودون لأعمالهم وهم يضربون أخماسا بأسداس . وراح جمعة السالم يحدج فواز هلال بنظرات مستطيرة ، غير أن فواز تجاهل الامر وراح يتشاغل برفع العينات ووضعها في الصناديق ، ومن اجل الحقيقة يجب أن يصبح غير خلي البال ، وبات الامر يهمه شخصيا لانه صار يتعلق بمستقبله ، وبلقمة عيشه كما يعبر عن ذلك البسطاء العاديون من العمال والناس . اما بالنسبة الى شاهد

والشاعر فالموضوع كان يستحق الاهتمام . ولعل عايش ، وهو الشخص الوحيد تقريبا الذي كان يقول في نفسه (فخار يكسر بعضه بعضا) فما دمت أنا بخير فعلى الدنيا السلام .

لقد توضح الآن كل شيء تقريبا ، ولم يبق هناك مجال للاحتمالات. وعزّى فواز هلال نفسه مفكرا : وعلى كل حال لم يعلم نايف بمن وشى به . فهو لم يتحدث الى رجال الشرطة مباشرة ، ولكنه — وهو في الدكان سمعهم يتحدثون عن الغريقة — أفصح ، وبلا نية سيئة تقريبا ، عن أن أحد المراقبين — وذكر اسمه — سمع امرأة تهدد فتاة باغراقها بالنهر، هذا كل شيء . وقد افصح عن ذلك عندما ذكروا أن الفتاة مجهولة ، ولم يتعرف على شخصيتها أحد من ابناء القرية . واذا نقل رجال القرية اسم المراقب الى الشرطة ، فلن يكون هناك تحقيق مبدئي وسريع حول من نقل الخبر ، ان مايهم الشرطة أولا هو التحدث مع المراقب ، وبعد ذلك تتفرع الامور وتتشعب ، والى أن يأتي دوره هو بالحديث يخلق الله ما لايعلمون . وسيكون بمقدوره أن ينفي القصة من أساسها ، ويعلن انه لاعلاقة له بالامر . هذا بالنسبة له ، أما بالنسبة الى المراقب نايف نفسه، فكان وهو في السيارة الى جانب رئيس الفرع يفكر : كيف علم رجال الشرطة ، بأني سمعت امرأة ماتهدد أخرى بالغرق ؟ فأنا لم أتحدث بامر الا مع عبد السلام حيدر والمهندس عبد الحميد درويش ، ولا يعقل ان يكون أحدهما قد أوصل النبأ الى الشرطة . اذن كيف حدث ذلك !.. وكان اكثر ما يؤرقه هو أ نمدير الفرع كان صامتا ، ورجلي الشرطة ظلا يتحدثان بأمور لاعلاقة لها بأي موضوع ذي بال .

وهكذا تسير الامور في هذه الدنيا ، بانتظار أن تنفجر قنبلة موقوتة

في طائرة غاصة بالمسافرين ، يعلن ربان الطائرة ان وقود الطائرة قد نفد . وقد حدث هذا في ميدان عمال ورشات الحفر . فقد سمعت فجاة ضجة مباغتة ، اثر اندفاع احد عمال الورشة الثالثة القريب وبيده افعى غليظة الحجم تتلوى ، وقد امسك بعنقها يمنعها من استعمال راسها . وتوقف العمل وارتفعت الرؤوس ، لتشاهد الحدث . حتى المراقبين والمهندسين شخصوا بأعينهم نحو الهارع من الشرق وهو ينادي : افعى.. أفعى.. وكان هذا العامل واسمه رمضان الدردار قد ذهب ليقضي حاجة في احدى الحفر ، ثم عاد لتوه ، دون أن يقضي اية حاجة ، وبيده تلك الافعى العجيبة . والواقع أنها لم تكن حية معقولة ، انها من تلك الافاعي التي يراها الناس او يتخيلونها ، انها غليظة جدا وقصيرة الذنب ..

صاح احد العمال من بعيد :

ــ انها رقطاء .. رقطاء ..

وعقب آخر :

ــ لا .. بل هي رقشاء .

وصحح ثالث قريب من المكان :

انها الأرقم بعينه . ولربما هي ذات القرون .

وبادر الشاعر ضيف الله الى المشاركة هاتفا :

ولا تأمن الأنثى حياتك انها ... كالأفعوان يراع منك الأنيب

وهتف شعبان الصالح صائحا :

ــ كرر .. ما سمعنا .

واضاف ضيف الله ملوحا بيديه :

ان الأفاعي وان لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب

وصفق بعض العمال معقبين :

ـــ طيب . . طيب . . ماصار .

وتزاحمت في رأس الشاعر الافكار والاشعار ، فأردف :

لا تقطعن ذنب الافعـــى وتتركها   ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا

وهاهو ذا مهيار عيسى عبيد ، ابن المنطقة والخبير بحيات الفرات، وهو من الورشة السابعة، راح يتندر قائلا :

« عند العقرب لاتقرب عند الحية افرش ونام ، والذي يأكل كمايه بيئـــة مثل الحية المشوية » .

وساعده ديري آخر هو مسعود خلف الله في ايراد الامثلة :

« حية المقطوعة يا ابني احذر وتوعى منها ، لو ينشري سم الحيايا لاشريه لكل من تاه رأيه . . »

وكان بعض الخبراء قد اشاحوا بوجوههم ، اما من الخشية أو من القرف ، في حين تجمع العمال حول رمضان الدردار يفحصون الافعى ويتميزونها . وقال احدهم : لقد شاعت عبادة الحية في الهند والصين. وقيل ان الهنود اذا رأوا حية في بيوتهم احترموها وتوسلوا اليها أن تخرج من البيت لزعمهم أنها من الارواح الشرسة . وعقب آخر : الحواة يعرفون طرقا عديدة توارثوها وتعلموها للقبض على الحيات فهل انت حاو يارمضان؟ وقال عامل له هيئة رجل دين : ان الحية النحاسية التي رفعها سيدنا موسى من البرية كما هو مذكور في الكتب المقدسة كان سببهـــا ان بني اسرائيل لما رحلوا من جبل طور على طريق البحر الاحمر ، بعد وقعـــة

الكنعانيين ، داروا حول أرض الروم ، فضجروا من طول الطريـــق ، وتذمروا من طعام المن ، فأرسل الله اليهم حيات نارية تلدغهم فمات منهم كثيرون . وعقب احدهم على هذه الحكمة قائلا : ولماذا لايرسل الله لهم اليوم بعضا من هذه الخبايا ؟

ولكن عاملا ظل صامتا طول الوقت أراد الآن أن يظهر خبرته :

ــ اسمعوا يا اخوان . . ان للحية منافع عديدة . .

وفغر العمال أفواههم ، منتظرين أن يسمعوا ما لم يسمعوه أبدا، وأضاف العامل وكان من منطقة جلابيا وزلابيا في دير الزور :

ــ اليكم بعض منافع الحية ، وهذه وصـــفات مجربة لاتحتمـــل التكذيب . ان المرأة العاقر اذا القيت في حجرها أفعى ستحمل فورا بعد أول جـــماع .

ونادى احد العمال الشبان دون مواربة :

ــ أئتني بأية عاقر وسأجعلها تحمل فورا .

وضحك العمال لهذا الصبي الغرّ ، مستهينين بقوته الجسدية ، في حين اضاف العامل الخبير قائلا :

ــ واذا حمل احد من الناس جلد الافعى في حجاب فانه سيتقي كل الشرور . .

وصدر صوت من بعيد :

ــ اسمع يارمضان . .

وفجأة تذكر فـــواز هلال شيئا : سأضيف اســـم هذا العامل الى

قائمتي في اسماء الاشهر .. وراح يعد بأصابعه : شعبان الصالح ، رجب السعدون ، رمضان الدردار ، محرم وربيع . كلهم عمال هنا . وذاك الذي يشاهد دائما قاعدا بجوار الحفارة سأسميه ذا القعدة . اما هذا المتجمد دائما وكأنه مقرور فسأسميه جماد اول او ثاني ، وذلك العامل ذو الذقن الذي يركع دائما فسيكون ذا الحجة .

وسأل شاهد فوازا ، وقد رآه سادرا في احلامه :

ــ بماذا تفكر ؟ هل انت مضطرب ؟

واشاح فواز بوجهه جانبا ، كان يكره ملاحظات شاهد ، ويتجنبها لأنها تضرب في الصميم .

حدث آخر لم يلبث ان دخل ميدان الجو المشحون،جعل سفر المراقب نايف السعيد والأفعى يغيبان عن الاذهان . فقد وصلت سيارة ذات صندوق واسع ، هبط منها شابان ملتحيان ، وعلى راسيهما يبدو شعر طويل متدل كأنه شعر مستعار . وهتف عبد السلام حيدر دون مقدمات :

ــ جاءت السينما ..

ولسبب ما صحح احة الخبراء القريبين :

ــ نيتو .. تلفزيون تلفزيون ..

نشر احد الشابين الملتحيين اوراقه ، وكان كما يبدو هو المخرج ، اما زميله كما بدا واضحا من مسكه الاوراق انه كاتب السيناريو .

« السماء بعيدة من ناحية النهر ، والارض القاحلة بعيدة من الناحية الاخرى ، النهر يسير الى مالانهاية ، وكل شيء بدون حدود او تفصيلات، ككل شيء يعيش في هذه المنطقة . »

ـــ وكيف يمكننا تصوير هذا .؟

رفع المخرج ساعده :

ـــ انتظر ارجوك . .

وتابع ملاحظاته :

« ودار ابو مسعود حول مايمكن اعتبارها خارج حدود الدار المعقولة. فهي خليط من خيمة وجدار وقن دجاج وزريبة . والشيء الذي انقذه من مزاج النهر هو عبقرية البناء لانه ارتفع فوق تلة صغيرة . .

واعترض المصور مرة ثانية :

ـــ ولكن كيف نجد مثل هذه الدار ؟

وعاد المخرج الى تطمينه :

ـــ سترى . . . سترى . . انتظر الآن . .

وعكف على القراءة والشرح :

« واذا حدّث امرؤ ما ابا مسعود عن اكثر ما يزعجه في هذه الدنيا، اجاب : اولئك اصحاب البناطيل والقمصان المفتوحة ، الصدر . . صحيح انه لم يكن بينه وبينهم اي حادثة شرف ، او ضغينة ، ولكنهم في رايه مزعجون اينما حلوا . وفي اعتقاده انهم يجلبون المصائب ، وفوق كل ذلك بعنجهيتهم وصلفهم . ولكنهم برغم ذلك مكروه لابد منه . مثل روث البقرة عندما يسقط في الحليب . انهم لا يغيرون شيئا في الحياة ولكنهم يكدرونها .

واعترض المصور من جديد :

ـــ يصعب علي تصوير هذا . . كيف ستجعل البقرة تفرغ احشاءها في الحليب ؟ . .

واغتاظ المخرج :

ــ سألعن البلد الذي علمك الاخراج .

وتكفل كاتب السيناريو في قراءة النص :

« وهذا ماحصل قبل ظهر ذلك اليوم القائظ . فلقد كان ابو مسعود منهمكا في رتق أحد جوانب الخيمة من داره ، عندما سمع سيارة ، والتفت نحوها ليجدها تسير على مرتفع قريب جدا من داره ، ويهبط منها اثنان من ذوي السراويل الضيقة اياها ، والقمصان المشمرة الاكمام ، وبيدهما خريطة كبيرة ، ينظران حولهما ويشيران ويضعان على خريطتهما بعض الخطوط ، وكأنهما يقرران مصير النهر .. »

انزل المصور آلته الضخمة وراح يركبها على سيبة ذات ثلاث قوائم.

« ويقترب ابو مسعود منهما وهو يهيىء ابتسامة مضيافة ، ولكن الرجلين ينشغلان عنه بالقياسات ونقاط العلاّم .. »

وفي تلك اللحظة وصلت سيارة صغيرة . هبط منها شاب وفتاة ، ظهرا وكأنهما يتهيآن لحفلة راقصة . واشار اليهما المخرج :

ــ هيا .. انت ابو مسعود ، وانت وضحا .. اذهبا الى صندوق الشاحنة وغيرا ثيابكما .. ستكونان قرويين من قرى منطقة الفرات .

وعاد المخرج الى أوراقه : ....

« وما ان تنقضي بضعة أيام حتى يرتفع الغبار الذي اثارته ثلاث سيارات صغيرة ، تتوقف في نفس المكان الذي وقفت فيه السيارة السابقة. ويهبط منها اكثر من عشرة رجال . بأيديهم الخرائط ، يتحدثون ويشيرون

هنا وهناك ، وينصبون أنابيب لامعة رفيعة ، ينظرون من خلالها . وهبط بعضهم الى النهر يقيسون عمقه ويكتبون ».

ورجع الفتى قبل الفتاة وهو يرتدي عباءة وحطة وعقال . اشار اليه المخرج أن يقترب . وراح يقدم له التعليمات :

« انت أبو مسعود ، وعليك ان تعرف ماذا جاء يفعل اولئك الرجال بمناظيرهم واجهزة قياسهم . انك تتجه اليهم ، وتسألهم ، ولكنهم ينشغلون عنك بأمورهم ، فيضيق صدرك .

مثل الآن . . كيف تبدو ضيق الصدر .

ونفخ « ابو مسعود » صدره واوداجه ونفخ نفخة كبيرة .

وابدى كاتب السيناريو ملاحظته :

ـــ لا . . هذا لايصور ماكتبته تصويرا صادقا .

وابدى المخرج رايه :

ـــ طيب . . سيتمرن على ذلك فيما بعد .

ورجع الكاتب الى القراءة :

«يعود ابو مسعود الى وضحا زوجته . . »

وقدمت الفتاة (وضحا) متسرولة سروالا طويلا ، ومتشحة بغطاء اسود . ولو كان هناك أبو مسعود ما وكان حاضرا لسخر من وضحا هذه ، ومن لباسها الذي لايشبه لباس بنات المنطقة ، ولكن المخرج اقترب من الفتاة وراح يلقنها الدور :

« سيقول لك أبو مسعود : ان وراء الاكمة ماوراءها . وان عادة المتسرولين هؤلاء ان يثيروا الضجة في كل مكان ، دون أن يفعلوا شيئاً ذا مغزى .

قالت (وضحا) :

وماذا اقول له ؟

وطلب المخرج الى كاتب السيناريو أن يجيب .وفكر الكاتب قليلاوقال:

ــ لم اكتب ذلك في السيناريو .. وستستعيضين أنت عن الاجابة باشارة من يديك ورأسك .

فالسيناريو يقول :

« بعد ثلاثة ايام وصلت قافلة من السيارات بمختلف الاحجام والقياسات ، وهبط منها رجال كثيرون مع معداتهم المختلفة الاشكال والالوان . وهؤلاء لم يسرعوا الى النظر من خلال مناظيرهم او يباشروا في حفر الارض ، بل راحوا ينصبون خياما ، ويشعلون نارا ، ويفرغون السيارات من حمولاتها . وابو سعود ووضحا هرب من عيونهما النوم. واخيرا يغفو ابو مسعود فيرى حلما . انه يزور القرية فيسمعهميتناقشون:

ــ والله الجماعة ناوون عمل شيء مخيف .

ــ سمعنا انهم ينوون ان يبنوا جدارا وسط النهر .

وسط النهر ؟. كيف ؟.

ــ هكذا .. الله أعلم ..

ــ ولماذا يفعلون ذلك ؟.

ــ يفعلون ذلك ليطفوا الماء ويغرق لنا الارض .

ــ يا لطيف .. يا لطيف ..

ــ وهل هؤلاء أعداؤنا ؟.

ــ لا .. انهم اصدقاؤنا ..

ويفسر الامر احد رجال الدين الحاضرين فيقول :

ــ وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ..

ويستيقظ ابو مسعود من الحلم ، ويلتفت فلا يرى وضحا الى جانبه. انها تستيقظ مبكرة لتحلب البقرة .

وسأل الكاتب المخرج :

ــ الى هنا كل شيء واضح أليس كذلك ؟

واجاب المخرج :

ــ اريد أن أفكر .. هل اجعل الحلم تمثيلا حقيقيا بطريقة المزج ، أم اجعله صورة وراء صورة ، اي من وراء الغيوم ؟

قال الكاتب :

ــ ان هذا من اختصاصك . ان ما اريده هو أن يكون فلما واقعيا مائة بالمائة ، خاليا من الحيل السينمائية والرمزية والسريالية .

ورد المخرج معترضا :

ــ ولكن هذه هي السينما الحديثة .

واجاب الكاتب :

ــ انني لا أؤمن بكل ماهو حديث . ان الكلاسيكية احيانا تعطي الحقيقة بأمانة دونما تشويه أو تحريف .

قال المخرج :

ــ لربما كان هذا صحيحا في الادب ، أما في السينما فالامر يختلف،

ورد الكاتب :

يجب ان توضع السينما في خدمة الادب .

وسخر المخرج ممازحا :

ـ من سوء الحظ ان العكس هو مايحدث . فالسينما تجند لخدمتها كل الكتاب ومن سائر الصنوف ..

وعلل الكاتب الوضع قائلا :

ـ هذا يحدث بهدف الركض وراء المادة لاغير ..

وهتف المخرج في انتصار :

ـ وانت لماذا كتبت هذا السيناريو اذن ؟..

واسقط بيد الكاتب ، فلم يدر بماذا يجيب .

وحضر أبو مسعود ووضحا وبيد كل منهما زجاجة شراب . وهتف المخرج هاتفا :

ـ ماذا تفعلان ؟ هل هذا وقت اللهو !..

ورد ابو مسعود في خنوثة :

ـ لاعاش من بات صاحيا ..

اما وضحا فقد تغنجت :

ـ جف ريقنا ياحبيبي ..

وراحت تغني : اسقني الكأس وقل لي ياغرامي ..

وطلب المخرج من زميله أن يتابع القراءة :

« ويلحق ابو مسعود بزوجته ليجدها في الخارج تتحدث الى أحد الرجال الوافدين . فيكظم غيظه في الوقت الذي أراد فيه أن يشاجر . ويقترب من زوجته والرجل ، ويسمع الحديث :

« عشر ليرات في اليوم . . .»

وتنتبه وضحا الى زوجها فتهتف :

ــ عشر ليرات يا خليل . . عشر ليرات . .

وزوى أبو مسعود مابين عينيه سائلا :

ــ ماهذه عشر الليرات ؟.

وردت وضحا مخلوبة اللب :

ــ سيعطونك . . عشر ليرات في اليوم اذا اشتغلت معهم . .

« وهكذا . . يتجند الكثير من رجال المنطقة للعمل في مشروع بناء جدار في قلب النهر ، ليحجز الماء ويجعله لايضيع هباء دون فائدة .

وهتف المصور :

ــ طيب . . من أين نبدأ التصوير ؟ . .

وأجاب المخرج :

ــ ناد سمير وليلى لألقنهما دورهما .

وانصرف المصور لينادي الممثلين ، في حين رجع الكاتب الى السيناريو :

« العمل قائم على قدم وساق . والايام تمضي ، وابو مسعود عاكف على العمل مع كل الرجال الذين قدموا من قريب وبعيد . غير انه الآن ذاهل ، فهو يرتدي البنطال الذي كان يبغضه كل البغض ، وفي الليل يجد نفسه يرتدي القميص ذاته ، وهو مشمر الاكمام . . ان الحياة تتبدل ، والطبيعة تتبدل أيضا . فالمشاريع الانشائية ، والعمل ، والآلات ، لاتبدل الملابس فقط بل تبدل النفوس والتفكير أيضا . ووضحا أيضا

اصبحت لاترضى بملابسها الماضية ، بل هي تطلب أن تذهب الى دير الزور أو حلب لتجلب ملابس قصيرة ، حتى أنها طلبت أن تقص شعرها .. ياللهول !.. »

وعاد المصور بعد لحظة ساخطا لاعنا . وهتف به المخرج :

ــ ما بالك !.. أين سمير وليلى ؟.

واجاب المصور :

لقد سكرا .. وهما يتعابثان ويتعريان داخل الصندوق .

فارسل المخرج صرخة نابية ، وهرع لاستقدامهما .. ولكنه هو الآخر ذهب ولم يرجع .. وبقي الكاتب والمصور وحدهما يتدارسان .

وسأل الكاتب :

ــ هل تظن ان فكرة ما قد تظهر في صورة ؟.

قال المصور :

ــ مثلا ..! اريد تحديد الفكرة اولا ..

وأجاب الكاتب حالما :

ــ مثلا .. عامل في ورشة من الورشات ، يفكر بأن يجمع مالاكثيرا .. وبعد ان يتحقق له ذلك ينزع ثيابه الزرقاء ، ويرتدي ملابس أنيقة ويشتري سيارة ويعابث السيدات في الشارع .

وضحك المصور لهذه الفكرة . ولكنه لم يخجل من ابداء رأيه فقال :

ــ ان هذه الفكرة بعيدة عن التصديق :

ورد الكاتب :

ــ « لماذا ؟. »

قال المصور :

ــ لان عاملا ما ، لاتواتيه ظروف عمله ليربي ثروة ، حتى ولــو اختلس ، وهذا بعيد الاحتمال أيضا ، لان العامل لايشتغل محاسبا أو رئيسا ، ولو أنه ربح ورقة يانصيب ، وهذا أمر يمكن وضعه في الحسبان ، الا أنه يظل امينا لطبقته .

وضحك الكاتب من هذا التعليل . وقال :

ــ هل تفسر الامر تفسيرا ماركسيا !.

ورد المصور ، فقال :

ــ لا .. فأنا لا أعرف شيئا عن الماركسية .. ولكن قناعتي تفرض علي الا يذهب بي الخيال بعيدا ..

ثم استدرك قائلا :

ــ أرجو الا تكون قد كتبت هذا في السيناريو .

ــ لم اكتبه بعد ، ولكني أفكر باضافته ..

ونصحه المصور قائلا :

ــ اذن .. وبرايي أن لاتتعب نفسك بهذا الهراء .. صوّر العامل عاملا ، والمهندس مهندسا وليس غير ذلك . الا اذا أردت ان تكتب قصة أميركيــة ..

وضحك الكاتب ، ورد :

ــ طبعا لا .. فالكاتب بالدرجة الاولى عليه أن يصور دنياه وعالمه

ومحيطه ... ولكن التفكير اللعين يقود المرء احيانا الى ابتداع حكايات ما انزل الله بها من سلطان .. اذهب الآن ارجوك..وتفقد زميلنا المخرج.

« الاشياء تكبر وتكبر . فالعمال يتضاعفون يوما بعد يوم ؛ ابـو مسعود لايستطيع تقدير العدد تماما ، ولكنهم يتكاثرون كل يوم ، ويفدون من كل حدب وصوب . هناك ابنية تشاد ، وصبات الخرسانة تقام صبة وراء صبة ، ونموذج كبير للجدار الذي سيقام وسط النهر يراه صباح مســاء . » .

وعاد المخرج وهو ينفخ من الغضب :

« كان يلزمنا فئة من الشرطة ، لتحفظ نظام العمـل .. هـذان المستهتران ، يظنان انهما في ملهى ليلي .. » .

قال الكاتب :

ــ وماذا حدث ؟.

ــ انهما سكرا .. ويريدان ان يرقصا .. وراحت ليلى تبكي لانها نسيت آلة التسجيل . هيا أين السيناريو ؟.

« تُبنى الآن هياكل من الخشب ، انه هيكل ضخم كبير ، فيه الكثير من الاسلاك الحديدية . سيملأ هذا الهيكل بالاسمنت . الجميع ينتظرون الخرسانة بفارغ الصبر . معمل مزج الخرسانة هناك يهـدر ويهـدر ، والناقلات في ذهاب واياب تنقل الحصا والاسمنت والرمل المزوج كل شيء يدور .. ويدور .

وفجأة سأل :

ــ لقد غابت الشمس .. كم الساعة معك ؟. أرى العمال هناك، ينفكون عن العمل ...

كانت الساعة تقترب من السابعة . وقد انفك عمال الورشات عن حفاراتهم . وارتدى أبو مسعود ووضحا ثيابهما الاولى . وقدما يستفسران عن العشاء . أين يتناولانه .

وذهب المخرج والكاتب لمقابلة المدير المسؤول ، وسؤاله بشأن الطعام والمبيت ، ثم رجعا بعد ساعة وهما يتضاحكان .

ــ سنبيت في خيمة أفرغت لنا ، وسنتناول علب اللحم المحفوظ .

وطار لب الممثلين من الرعب : خيمة ؟! لحم محفوظ ؟.

ــ لا .. لا .. سنرجع الى الشام .. نحن لن نبيت في الخيام ، ولن نأكل لحما محفوظا ... هيا يا سمير .. أين السائق ؟..

واستيقظ السائق مرتعدا .. أدار مفتاح السيارة ، وأعمل المحرك .. ورجعت السيارة الى الجنوب الغربي تنهب الارض نهبا ..

وفي طريقها ــ وقبل أن تنحرف ــ غربا ، التقت بسيارة لاندروفر ذات نمرة سوداء . وكانت هذه السيارة تقل مراقبا في ورشات العمل اسمه نايف سعيد ، وقد أمضى يومه في مديرية ناحية الرقة ، حيث تعرض لاختبار غريب من نوعه لم يخطر له أن يتعرض له في كل حياته الماضية .

٥

هبط من السيارة غير متعجل ، ثم التفت اليها وكأنه نسي فيها شيئا، ووقف لحظات ليقرر الى أي جهة يسير . هل يمضي الى كبير المهندسين عبد الحميد درويش ليفهم منه سر اطلاع الشرطة على القصة التي حكاها له عن المراتين ، أم يتوجه الى المدير مباشرة ليطلعه على حقيقة الامر ؟. أم ينسى القضية كلها وينحو الى خيمة الخبراء ليلعب الشطرنج مع الكستدر ! ووجد قدميه تقودانه الى غرفته . اذا التقى هناك بعبد السلام حيدر ، فستحل نصف القضية وتظهر الغازها . فحيدر هو أول من الم بحقيقة الامر ، وهو من غير المحتمل أن يكون الفاعل . وفوجيء بزميله يتأبط راسه مستلقيا في فراشه لايقرأ ولايستظهر . ووقف فوق راسه لحظات لايدري ماذا يفعل ، او كيف يبدأ . ولكن عبد السلام حيدر بادره على الفور :

ــ انها مشكلة لعينة .

وباعتبار ان مشكلة كبيرة تشغل باله هو ، فلم يغب عن ظنه أن هذه هي المشكلة نفسها التي يتحدث عنها زميله . فأجاب :

ــ نعم .. انها مشكلة لعينة ..

رفع حيدر راسه ، وقال :

ــ هل عرفت !

اجاب نايف :

ـ لا .. طبعا .. فهل عرفت أنت ؟

قال عبد السلام :

ـ طبعا ...

واجفل نايف ، وحبس انفاسه ، ولهث بسرعة :

ـ كيف .. من هو الفاعل ؟.

وفقد حيدر اتزانه ، ونبر في عصبية :

ـ عماذا تتحدث يارجل ؟.

وصمت نايف . ادرك ان مايقلق باله لايخطر على بال انسان آخر. وقال وهو يطلق انفاسه :

ـ اذن فأنت تتحدث عن موضوع آخر !

ورد عبد السلام في الم :

ـ ذلك الجبس اللعين .. طبعا انت لم تكن هنا .. اين ذهبت ؟

وحدجه نايف بنظرة متسامحة . وقال :

ـ اتمم .. ماقصة الجبس ؟.

قال حيدر :

ـ بعد التحريات الاخيرة ، ثبت وجود الجبس السميك في أعماق الوادي . وهذا الجبس هو سهل الذوبان في الماء ، وقد لوحظ وجوده في المنحدرات . ان وجود هذا الجبس يعتبر علامة خطرة ضد سلامة العمل وذلك بسبب تفكك الطبقات الباطنية . فالوزن النوعي والوزن الحجمي لا ...

وقاطعه نايف لانه لم يستطع أن يجعل افكاره تنقاد للحديث :

ـــ الم تعلم أين كنت طوال النهار ؟ .

ولكن صاحبه رفض الانصياع لسؤاله ، بل استمر في شرحه :

ـــ اذا أخذنا كمية من التربة المجففة ، ودققناها في جرن خزفي ، ثم نخلناها بمنخل ذي فتحات بقطر مليمترين ، واخذنا منها عينة لتحديد الرطوبة . . هل تسمع ؟.

هزّ نايف راسه في حزن :

ـــ نعم . . ان . . اني أسمع . .

واستأنف حيدر درسه :

ـــ وضعنا العينة في الوعاء المخبري ووزناها بميزان فني دقيق ، وذلك بعد تنظيفه وتنشيفه جيدا ، فيكون الوزن الصافي للتربة المجففة هو: ٥ غ ـــ ١ غ = ٤ غ وذلك مع ادخال عامل تصحيح لحساب الرطوبة الموجودة .

وضحك نايف ملء رئتيه .

وثار حيدر بلا سبب تقريبا :

ـــ ماذا يضحكك ؟ . .

ورد نايف وقد افلح في حصر افكاره في ناحية معينة ضيقة وتابع :

ـــ نملأ الوعاء المخبري بالماء المقطر حتى منتصفه بخضه جيداً ، ثم نغلي التراب مع الماء على موقد رملي .

قال حيدر فاحصا :

ـــ لماذا فيما تظن ؟.

أجاب نايف ، مصرا على المسايرة :

ــ لكي نطرد فقاعات الهواء ..

وسأل حيدر :

ــ وبالنسبة الى التربة الرملية ؟.

قال نايف :

ــ بالنسبة الى التربة الرملية تكون مدة الغلي نصف ساعة ، اما بالنسبة الى التربة الغضارية والغضارية الرملية تكون ساعة ..

وعاد حيدر لأسئلته كفاحص عتيد :

ــ وعند الغلي هل يسمح بتطاير ذرات الماء ؟

تردد حيدر قليلا واجاب :

ــ لا أعلم .

قال حيدر :

ــ طيب .. اذن سأخبرك بأنه لايسمح أبدا بتطاير ذرات الماء . وعند ظهور زبد على سطح الماء يجب تخفيض درجة الحرارة ، وان تعيين الوزن النوعي يتم باجراء تجربتين بآن واحد . و .. وفي وعائين مخبريين . وان التفاوت بين نتائجهما ...

ونفد صبر نايف في تلك اللحظة ، وصرخ بلا مقدمات :

ــ لقد أغرقت الفتاة .. الم تعلم ؟

وسادت الصمت . فلم يسمع غير دويّ بعيد ، ولعله كان هدير احدى الحفارات الضخمة التي وردت حديثا لحفر أساسات البيوت . وفرك عبد السلام حيدر عينيه وكأنه يستيقظ من حلم .. وهتف :

ـ اذن فقد كنت هناك !

واجاب نايف سعيد في خبث :

ـ اين فيما تظن ؟

ورد حيدر ببداهة :

ـ في الجنازة طبعا . . .

وجلس نايف سعيد على طرف سريره باسطا يديه ، وقرر بعناد:

ـ اسمع ياعبد السلام . . اذا كنت غير مستعد لمشاركتي أفكاري فسأنتقل وحيدا الى مكان آخر . . .

ومع قناعته بصعوبة هذا التدبير ، الا انه باح به ليجعل صاحبه يصحو من خدر السبر والتحريات وغبار الجبس والغضار . وخارجـا عن خشية عبد السلام حيدر من أن زميله سينفذ تهديده ، قال في صعوبة:

ـ اذن فقد أغرقت البنت فعلا ! . .

وعبر نايف عن برودة صاحبه بهذه العبارة :

انك لست ممثلا هزليا على كل حال . اسمع اذن . . عثـروا على فتاة غريقة في النهر ، في اليوم التالي لتهديد امرأة لفتاة ما باغراقها ،وكنت انا ـ نايف السعيد ـ الوحيد الذي سمع بهذا التهديد ، ولم اعترف بهذا الا . . اليك . . وها أنت ذا تنقل هذا الاعتراف لرجال الشرطة ليلاحقوني ويستجوبوني . وانا طوال اليوم لم اكن في جنازة مزعومة ، بل كنت في قبضة الشرطة . . هل تسمع ؟.

قال عبد السلام مازحا :

ـ ولم يحكموك طبعا . .

ورد نايف سعيد متحليا بالصبر :

ــ ارجوك ياعبد السلام اترك المزاح جانبا .. انني لا اكذب او اتخيـــــل ...

وافاق حيدر من شكوكه وقال :

ــ اذن فقد كان الامر حقيقيا !.

قال نايف محاولا اقناع زميله :

نعم .. والآن تريد الشرطة معرفة من هي الغريقة اولا ، ثــم من هو الفاعل !..

ومد يده الى جيبه واخرج صورة بحجم الكف ومدها الى صاحبه :

ــ خذ .. انظر .. هاهي ذي الفتاة الغريقة ... التقطوا لهــا صورا ووزعوها على مخاتير ومخافر المنطقة كافة ليتعرفوا على صاحبتها.

وتناول حيدر الصورة ، وهتف مذعورا :

ــ اوه .. انها فتاة عارية ..

وخبأها في صدره ، ولكن نايف انقض عليه وانتزع الصورة منه :

ــ اخجل .. انها فتاة ميتة ..

ورد عبد السلام حيدر وقد سال لعابه :

ــ وماذا يهم !.. انها عارية على كل حال . وكل فتاة عارية في اية صورة تكون ميتة ، اذا كانت نائمة خاصة .. كهذه .. ارجوك اعطنيها لاتصبب عليها ..

لم يكن المراقب عبد السلام حيدر بلا عاطفة انسانية كما توحي به تصرفاته هذه . ولكن الحقيقة ان الامر كان خارقا لدرجة لايمكن ان يصدق.

رجل يستيقظ في الفجر على صوت امرأة تهدد أخرى بالاغراق ، وفي اليوم التالي توجد فتاة غريقة ؟..

قال له عبد السلام حين اطلع على القضية : تحـدث كثير مـن التهديدات ولكن ايـاً منها لاينفذ . وهاهو ذا ينفذ احدها ، وبلا أدنى شك ، ولهذا وقد بدأ يراوده اليقين ، صحا لنفسه وبدأ يجحظ عينيه فعلا ، لا بطريقة ارادية :

سأل وقد بدأت انفاسه تتلاحق :

ـ وماذا سألك رجال الشرطة ؟..

قال نايف متروّيا :

ـ اريد أن اعرف أولا كيف علم رجال الشرطة بأني سمعت بأمـر التهـديد ؟.

وفكر عبد السلام لحظة وأجاب :

ـ ليس في الامر صعوبة ، فقد تكون قد تحدثت بالامر امـام أحد ما فنقلـه .

وأصرّ نايف على انه لم يتحدث بالامر الا اليه والى المهندس عبد الحميد درويش ، وباعتبار انه هو لم يبح بالامر ، فلا يمكن لعبد الحميد ان يبوح به ايضا ، فرجال الشرطة لم يظهروا هنا في اليوم الماضي ، ولن يتفرغ عبد الحميد للذهاب اليهم . بالاضافة الى ان احدا لم يعرف بالقضية هنا حتى الآن . وحاول عبد السلام أن يثنيه عن ملاحقة الواشي ، بـل العكف على معالجة القضية فيما يخصه منها ، وان كل مايخصه علـى

كل حال هو ما اذا كان يعرف احدى المراتين ، وبما انه لايعرف احداهما أبدا فينبغي له الا يقلق وان يبقى خلي البال . وشرح له نايف مراحل الاستجواب والتحقيق الذي أجراه معه رجال الشرطة .وقال له أن الشرطة رفضت — أو انها لاتعرف من هو الواشي — ولكنهم سمعوا في القرية أن المراقب في ورشات العمل في الطبقة والذي اسمه نايف سعيد قد سمع و . . . هكذا . هذا كل مافي الامر ، اما من هو المتكلم الاول فلم يفصح عنه أحد . وسرد نايف على زميله كيف سأله رجال الشرطة عن حقيقة الامر ، وكيف أنه حكى لهم القصة . وانه في ضوء الفجر الباهت لم يستطع ان يتبين تفاصيل المراتين ، أو حتى وجهيهما . وسئل عن لباسهما ، فأجاب بأنهما قرويتان لا أكثر ، اما ما اذا كانتا ترتديان عباءات فأجاب بأنه لايذكر . اما السؤال الذي حيره فعلا فهو :

— هل كانتا تلفظان الضاد ظاء عند ذكر البيضات .

وهنا تاه في دوامة من الخواطر والتذكر . بيض بيظ . . بيضات بيظات !. . وهل كان الامر مهما الى هذا الحد ! اما عن الشعر الذي كان مشدودا فلم يستطع المحقق أن يؤكد ما اذا كان الشعر كان قد تعرض للقلع أو الشد . كان شعر الغريقة فيما بدا سليما كاملا . كما أنجسدها لم يتعرض لأي عنف . أما أغرب مافي الحادثة هو أن الغريقة وجدت عارية تماما دون أي ملابس ، ولا يعقل ابدا أن يكون النهر قد جردها من كل ملابسها ، حتى وان كانت ترتدي ثوبا وحيدا على العظم . كانت الغريقة تلوح بشرتها الشمس ، كبنات المنطقة كافة ، ولكن لم يبد في عينيها آثار كحل قديم أو حديث ، كما أنها كما دلّ الفحص لم تكن تبكي ، أو انها بكت منذ فترة أقل من أربع وعشرين ساعة . أما الاساور في اليد ،

والحلق في الاذن والخلخال في القدمين فلم يكن لها اي اثر ، واكثر من هذا انه لم تكن لها علامة ايضا في اعضائها ، مما يدل على انها لم تكن نها علامة ايضا في اعضائها ، مما يدل على انها لم تكن تتحلى قبل الغرق بأية حلية . وكونها قادمة من المدينة لتغرق هنا فهذا ايضا بعيد الاحتمال، فالنهر نفسه لايمر من اية مدينة . وقد عممت البرقيات على كافة المخافر ، وعلى طول النهر من الحدود التركية وحتى الطبقة ، منذ الصباح ، ولكن ابة اجابة لم ترد عن ظهور اية مفقودة ، سواء أكانت مغرقة أو غريقة ، وحتى الساعة التي غادر فيها بلدة الرقة .

وصمت نايف سعيد ليسترد انفاسه ، أمام صمت عبد السلام وذهوله وبعثرته . وأخرجه نايف من حالته عندما طرق موضوعا جديدا ورد اثناء التحقيق ، سأله النقيب مدير الناحية :

ــ أما سمعتهما تلفظان اي اسم اثناء شجارهما ؟

قال عبد السلام :

ــ طبعا .. سمعتهما تقولان مهيار .. وان المرأة هددت البنت بأن مهيارا نفسه سيغرقها .

وضرب نايف كفا بكف واجاب :

ــ نعم .. ولكني قلت اني لم اسمع .. قلت ذلك فورا .. ولكن .. وبالتحديد اثناء لفظ كلمتي تذكرت اسم مهيار ، غير اني لم استدرك .. وظللت على لفظ كلمتي الاولى لا اعلم .. ودهش عبد السلام وقال:

ــ ولكن .. كيف تفعل ذلك ؟. ستكون شريكا في الجريمة اذا تواطأت ولم تذكر الاسم .. الا تعرف ذلك ؟.

وهز نايف راسه :

ــ نعم .. أكون شريكا اذا كان مهيار هو الفاعل .

وقال عبد السلام بعصبية :

ــ وما أدراك إذن أنه ليس هو الفاعل ..

وبدأ نايف سعيد يشرح المسألة ، فلو ذكر اسم مهيار ، ففي المنطقة يوجد اكثر من مهيارين ، هذين اللذين يعرفهما عبد السلام . واذا كبرت الدائرة ، فسيعثر على مهيارين آخرين . وبظرف أربع وعشرين ساعة سيتواجد في مخفر الشرطة اكثر من عشرين مهيارا . وبعد السينات والجيمات ، وبعد رفع السياط وسلخ الجلود ، قد يظهر الفاعل الحقيقي ولن يكون مهيارا بأية حال من الاحوال . واذا فُرض أن الفاعل اسمه مهيار فلماذا لايفرض انه امراة ، وفي هذه الحالة أيضا ستوضع جميع النساء في السجون ... وفي النتيجة خلص نايف سعيد الى هذه الخاتمة:

ــ اتعلم ياعبد السلام .. لقد تحتم علي أن أعمل في المباحث الجنائية، اصبح الامر يهمني اكثر مما يهم القضاء أو وزارة الداخلية . سأعمل شرلوك هولمز وسأساهم بكشف القضية بنفسي .. ستعرفني على مهياريك لألعب لعبة القط والفأر . ان في ذلك اثارة واشباعا للنزعات البشرية ، ان في كل منا ميلا لأن يكشف الغوامض .

ونهض لينزع ثيابه ، حين طُرق الباب ودخل حاجب الخبراء ، طالبا من المراقب نايف سعيد أن يسهر لدى الخبير الكسندر كارانكيفيتش لينازله بالشطرنج . وأراد نايف ان يعتذر لان منازلة الشطرنج تحتاج الى فراغ بال وهدوء أعصاب ، ولكنه خشي أن يظن الكسندر بأن نايف تهرب من منازلته ، فعاد يضع سترته على كتفيه ، مودعا زميله طالبا اليه الدعاء بالتوفيق ..

كان الكيسندر كارانكيفيتشن بسمح الخلقة ، رحب الملامح ، اشقر الشعر ، وبعض مميزات اخرى تجعله يبدو اصغر من سنه التي تجاوزت الاربعين . انه هادىء رصين ، لايكز على اسنانه ولايغضب ، لايشرب الشاي والقهوة ثقيلين ، اما لأنه لايعرف ذلك ولم يعتد عليه ، او لوصايا طبية يجهلها الناس القريبون . انه غير راض دائما ، ولكنه لايبدو عصبيا ساخطا . ويتساءل من حوله : ترى هل هو النظام الذي علمه هذه العادات ، ام انه اكتسبها بنفسه ؟ يحس المرء تجاهه انه مستعد للتضحية بالذات في سبيل استمرار الحياة وتحويلها الى افضل ، والادهى من كل ذلك انه لايعتبر الجنس مشكلة ولايرد على لسانه على الاطلاق .

اما مميزاته في لعبة الشطرنج ، فقد يبدو الامر غريبا لمن ينازله لاول مرة . انه يحرك الاحجار كما يحركها كل الناس ، فرسه وقلعته وفيله واحجاره كلها تتحرك كما تتحرك الاحجار على كل رقع الشطرنج في الدنيا ، ولكنه هو يحرك هذه الاحجار وفق خطط مدروسة ومحكمة ، بحيث لايحرك حجرا منها الا لغاية ، ووفق تكتيك بسيط ، لا يتصف بالعبقرية ، ولكنه ينجح على الدوام . هذا هو راي نايف سعيد ، اما آراء من ينازلونه من مستوى آخر فقد تكون مختلفة بوجه او عدة وجوه اخرى . ولكن نايف ظل يعزي نفسه : الكسندر يتعلم العاب الشطرنج من المجلات الشطرنجية التي يشرف على تحريرها ، وابتداع حيلها ، ابطال العالم السوفييت في لعبة الشطرنج من امثال : سباسكي وميخائيل تال وبيتروسيان وبوتفينيك . اما هو فلا يقرا اية مجلة ، بل يلعب كما تعلم لاول مرة في نادي جامعة دمشق . يحرك الاحجار فقط ، وينقلها ، ويقدمها ويؤخرها الى ان تنسقط كلها او بعض منها ، وبعد ذلك ينتصر

الشاه او ينهزم وينتهي الامر ، دون ان يخلف الانتصار او الهزيمة اي اثر بذكر . فاذا انتصر على خصمه ، ضحك الخصم قائلا : وماذا يهم ؟ لبس الحال غير لعبة شطرنج . والشعور نفسه يخالجه فيما اذا انهزم: لبس الامر ذا بال فليس الامر غير لعبة شطرنج ، ولكن الحال مع الكسندر بات يختلف كل الاختلاف . بات خصمه الجديد يشعره ان الهزيمة ذات وقع سيء في النفس ، يقابلها نشوة عارمة عند الانتصار ،من اجل هذا صار يحس بالعار حين ينقل الكسندر نقلته الاخيرة ويقول له باسما (شاه مات) . وهذه هي اللفظة التي يطلقها السوفييت على لعبة الشطرنج ، انهم لايعرفون هذه الكلمة ولا يتكلمونها ، ولكنهم يسمون اللعبة كلها لعبة (شاه مات) .

غير ان الكسندر يظل ذلك اللاعب الذي لا يعرف كيف يجد لـه تقييما . حين يقتل له شاهه يمد يده ويصافحه مبتسما دون اظهار نشوته بالانتصار ، ثم يربت على كتفه في محبة . مرحى .. انك تتقدم . هل هو يكذب عليه ؟ ولماذا !

انه لايجعله يحس بالهزيمة ، أو على الاقل يخفف من وطأة الهزيمة ويجردها من اي معنى .. ولكن ليس كما يفعل اللاعبون في نادي الجامعة: بعد ماعطائهم اية اهمية للهزيمة والانتصار ، بل باعطائه الامل الكبير، بجعله يسعى للانتصار في جولة قادمة ، مع الحفاظ على الشعور القوي بالهزيمة والانتصار .

وجد المراقب نايف سعيد خصمه ينتظره في براكة الخبراء علي طاولة جانبية وهو يصف الاحجار . حياه بحرارة مستقبلا اياه بود وبشاشة ، ثم اشار الى الكرسي المقابل ان يجلس ، وجلس هو بدوره . وقد اعتاد

ان ياخذ الحجر الاسود في كل لعبة ، وهذه ميزة يراعيها اللاعبون . فاللاعب الذي يلعب بالابيض تكون له الاسبقية في تحريك الاحجار ، وبهذا يعطيه هذه الافضلية . ولكن نايف فكر في هذه المرة « لربما كان الكسندر يعطيني الابيض ليرى كيف ابدأ ، فاما انه يلمس نقط ضعفي فيهاجمني من هذه النقطة ، أو انه يرى كيف ابدأ فيباشر هجومه المضاد ، ولم يشأ ان يعتبر هذه البادرة ،نوعا من التواضع الذي يظهره المضيف عند ضيفه ، ويبدو أن هذا بالضبط ماكان يسعى الكسندر اليه . غير أن فكرة أن خصمه يستهين بخبرته ، فهذا لم يعن له اطلاقا ، لان جميع الظواهر لا تدل عليه .

وفي هذه المرة تناول نايف الاحجار السوداء من الطرف الآخر للرقعة ، وقال بتحبب :

ــ سآخذ الاسود في هذه المرة ..

وابتسم الكسندر راضيا :

ــ لاباس ..

وبدا كانما فرح بثقة نايف بنفسه . كان يبدو وكانما يريد لنايف أن ينتصر ولو مرة واحدة . وكأن هذا الانتصار يحقق له أمنية عزيزة . بدأ الكسندر تحريك حجره الاول كالعادة ، وهو تقديم البيادق أمام الشاه بيتين . وكان نايف يحركه بيتا واحدا ، وأحيانا يقدم بيدق الوزير ، ولكنه بعد التجربة وجد ان تقديم بيدق الشاه يتيح الفرصة للوزير والفيل بأن يتحركا وينتقلا الى الامام .

احيانا يخطو نايف خطوة ليس لها هدف ، او خطوة خاطئة ، فينبهه

الكسندر الى ذلك . وكان هذا التنبيه يحز في نفسه ، ويعتبره مرة أخرى من قبل الاستهانة ، ولكن يرضى به لانه يجده مصيبا . ولكن ، وفجأة تبعثرت خواطر نايف سعيد ، وابتعدت عن مجال اللعب :

« لماذا لم يتصل رجال الشرطة بي مباشرة ، بل اتصلوا بفرع الحزب اولا؟ » ووجد في نفسه الجواب الاقرب الى الصواب : « لقد راوا ـ باعتبار اني رجل حزبي ـ فمن اللياقة أن يكون الفرع هو الوسيلة الافضل للاتصال بي .. » . ونقل فرسه ثلاثة بيوت الى جانب ، وسمع خصمه يقول له: خطأ . فتنبه متطلعا الى مكان الفرس ، فوجدها في بيت الجندي الابيض المتقدم ، فأعادها الى مكانها ، متطلعا الى مكان آخر . وكان كاراتكيفيتش قد لفت نظره الى أن ارجاع الحجر ممنوع في اللعب ، وان الحجر الذى يمسك يجب أن ينتقل حتما ، ومع هذا كان يتساهل معــــه ، معتبرا اياه لاعبا مبتدئا ، ولم يحز هذا الاعتبار في نفس نايف ، فهو مقر بأنه مبتدىء تجاه اللاعبين الحقيقيين . وعادت افكار نايف الى الشرود :

« هل هناك في كل مناطق حوض الفرات فتيات لايتحلين بالخواتم أو الاساور أو بزينات الانوف ؟ » وتمنى في تلك اللحظة بالذات أن يســــأل شخصا ما عن ذلك . وأفاق على صوت السكندر يسأله :

ـ أرى ان أفكارك ليست في اللعب .

فتضاحك نايف ، نافيا أن يكون غائبا عن الرقعة . ولكنه اكتشف فجأة أن قلعته تقف وراء الفرس ، وعلى خط الفرس مباشرة يقف الوزير الابيض .. اذن .. يستطيع أن يهدد حجرين ابيضين بآن واحد ، وذلك بأن ينقل الفرس الى مكان يعرض فيه حجرا للضرب ، في الوقــت الذي

يصبح فيه الوزير هدفا مباشرا للقلعة . وأسعفه الحظ ، فنقل الفرس ثلاثة بيو تالى الامام والجانب ، ثم انتظر لينقاد الى تخيل جديد حول الفتاة الغريقة . وأيقظه صوت كاراكيفتش الهادىء :

ـــ انك تهدد الشـاه .

وحملق نايف سعيد عينيه من الدهشة ، وهتف :

ـــ والوزير أيضا ..

وأجاب كاراكيفتش في رصانة :

ـــ نعم . انت تهدد الشاه بالفرس والوزير بالقلعة ، وبلعبةواحدة . خراشو .. يجب تدارك الوضع ..

وفي تلك اللحظة ، وكما يحدث في الاوقات العصيبة ، حضر غالاكتينوف طالبا من الكسندر أن يقابل نائب رئيس الخبراء . ونهض الخبير معتذرا :

ـــ أرجوك ، ابق كل حجر في مكانه .. سأرجع حالا ..

ومضى مسرعا . وغرق نايف لفترة في احلامه التي ستتحقق : يسيبعد الكسندر شاهه فقط ، فأقتل الوزير ، واذا غاب وزير الخصم فسيفقد نصف سلاحه ، ويصبح التغلب عليه سهلا جدا ، في غاية السهولة .» وشرع يهيىء نفسه للنشوة العارمة التي سيحصل عليها . ولكن افكاره في هذه المرة سرحت نحو توباشفسكي نائب رئيس الخبراء :

انهمتجهم الوجه دائما ، ولو رؤي على حال آخر ، لقيل انه غير طبيعته ، او ان حدثا هاما قد طرا على حياته . ويبدو انه لم يصادف في حياته شر بلية ، لان المرء يستطيع ان يؤكد بانه لم يضحك في حياته ،وذلك

مايتبادر للذهن ،وهو أن توباشفسكي اذا ضحك يوما ما فلن يكون ضحكه الا شر من بليّة ما،اما السرور والسعادة فيخامر المرء ان الرجل لايعتبرهما ضرورة من ضروريات الحياة ، ولاتستحقان ان يضحك المرء او يصفق ويهلل لوجودهما . وباعتبار أن انفراج الاسارير يدل على على الغبطة ، وتجهمها يدل على التعاسة فينبغي للمشاهد وللوهلة الاولى ، ان يعتبر الرجل شقيا لم يلق الهناء في حياته ، والواقع غير ذلك . فتوباشفسكي لقي كثيرا من ظروف الهناء ، ففي أوائل الاربيعينيات من هذا القرن ، دمر النصير توباشفسكي عددا من الجسور على نهر الدنيبر في وجه النازيين ، ودمر مثلها على نهر الفولغا ، ثم اشترك في بناء هذه الجسور اثناء الهجوم المعاكس الذي شُن في وجه النازيين . ان ذلك لم يحقق له الهناء سريعا ، وهو يدمر تلك الجسورخاصة ، غير أن الهناء حدث عندما اعلنت المانيا الهتلرية الاستسلام . ويتساءل المرء : ترى هل ابتسم توباشفسكي في تلك اللحظة ، وهل تخلص من تجهمه وعبوسه . لايستطيع الانسان أن يجيب على هذا السؤال بيقين .

ولم يعد الكسندر كارنكيفتش سريعا . لعلها مؤامرة . سيطيل الرجل غيابه كيلا يشهد هزيمته — ولاول مرة — في لعبة الشطرنج . وتطلع نايف سعيد في ساعة يده ، انها التاسعة . ينبغي له ان ينام مبكرا فلديه غدا اعمال كثيرة ، صعبة وهامة جدا . يجب ان تُدعم سدود الحماية في وجه الفيضان المقبل .ونهض يريد مغادرة المكان ، ولكن غالاكتينوف رجع في تلك اللحظة . حمل رقعة الشطرنج على حالها ، دون أن يغير من ترتيب احجارها شيئا .وقال لنايف :

— يجب كما امر الرفيق الكسندر أن يبقى كل حجر في مكانه .

وساودع الرقعة في الخزانة الى الغد . انه يعتذر منك لان هناك اجتماعا هاما في مكتب نائب الرئيس لمعالجة شؤون الفيضان ، وشكرا . سباسيبا .

. . . .

واستيقظ الرجال مبكرين ، وتجمعوا امام آليات النقل ، ووجدت في انتظارهم امام الناقلات ، اكوام من الرفوش والمعاول . انها مهمة جديدة، الى تكويم التراب مرة ثانية . يجب أن تدعم السدود على الضفتين .

ــ اين هو عائش الحامد ؟

وعائش لايبدو شاذا الا حين ركوب الناقلات . فاما انه يزاحم ويسابق ليركب اولا ، او انه يتخلف ليتعلق بها تعلقا .. وهذا ماحدث هذا الصباح ايضا . كان في هذه المرة متخلفا . وقبل ان تتهيأ الناقلات للسير ، جاء يهرول وهو يشبك ازرار بنطاله . وهتف فيه الشاعر :

ــ اما يسعفك التبول الا في اللحظة الاخيرة ؟

حتى ان السائق واسمه « الضبع » راح يبربر ساخطا :

ــ لماذا لاتمتطي جملا ياعدو الله ؟.

وسارت الناقلات ، تتمايل وتتقافز ، والرجال محشورون فيها حشرا .

وارتفع صوت الشاعر مرددا قصيدته :

ناقلة تميد بي كأنها

زورق نار فوق بحر هائج

وناداه جمعة السالم من وراء :

ــ وهل ركبت الزورق في حياتك ياضيف الله ؟.

وردد الشـاعر في رثاء :

ــ لا والله ياصاحبي ولكني رايته . .

واحرجه بشارة اصطفان :

ــ واين رايته بحق الله ؟.

واجاب الشـاعر على الفور :

ــ رايته في السينما .

وضحك الرجال ملء اشداقهم . قال شعبان الصالح مداعبا :

ــ وكيف كانت السينما في خيمتك يا دجالي المحترم ؟.

ولم يحرج ضيف الله بل اجاب بطلاقة :

ــ رايت الزورق في سينما حمص .

وكان ضيف الله قد ادّى خدمة العلم في مدينة حمص قبل بضعة اعوام . . وهناك برزت موهبته كشاعر . فحين كان يرتدي ملابســه فخورا ، وقف في فترة احدى الاستراحات وراح ينشد مباهيا :

ــ انا جندي انا جندي

سأعطي كــل ماعندي

حياتي سوف أعطيها

فإم شرفي وإم لحدي .

واسترعت انظار العمال انواع جديدة من الآليات الضخمة الصفراء. واشار احدهم اليها صائحا :

ــ هاهي ذي كراكات الديزل العتيدة .

ورد عامل من جانب :

ـ وما مهمة هذه ايضا ؟.

أجاب صوت من المؤخرة :

ـ هذه الكراكات لحفر أساسات البيوت .. ستبنى لنا بيوت للسكن .. وستشاد هنا عاصمة ..

وهلل الرجال . ولكنهم لم يصفقوا لضيق المكان ـ لهذا الخبر المفرح . وعادت أمنية ضيف الله تقترب من التحقيق . سيفرغ بيتي من النزلاء ، وسآتي بحبيبتي شمسة لتدق عظامها بعظامي .

فواز هلال هو الوحيد تقريبا الذي كان سادرا في خواطره . ترى ماذا حدث للمعلم نايف في الرقة ؟. وهل استنطقوه ؟. انه هناك يركب جانب الضبع . مرّ من جانبي دون أن يعيرني انتباها . لاشك بأنه لم يعلم بي . هذا أفضل . وارجو الا يعلم في المستقبل .

وصل الرجال الى اكوام التراب والصخر المقامة على ضفة النهر. ثم انقسموا ، حيث انتقل نصفهم الى الاكوام على الضفة الثانية . يجب دعم هذه المرتفعات ، خشية ان يجرفها السيل المرتقب . وكان المراقب نايف سعيد ، وهو يستعيد بذاكرته حديث النهر ، يترقب أن ينفذ النهر تهديده : سأريكم كيف اني لا اخضع لترتيباتكم . وسأدمر كل ما تصطنعونه من تدابير . انا لن اهزم ، ولن اسمح للقيد ان يمس يدي وقدمي ، وسأظل حراً على هواي ، وحسبما اعرف من مفهوم الحرية . هل تسعون الى أن تجعلوني اغيِّر من طبيعتي ؟. ان لي اسراري وخواصي الخادعة . فأنا كهذه الصحراء ، الميتة حينا والقاتلة حينا آخر ...

كان العمال منهمكين في تكديس الصخور والتراب على شكل هـرم طويل ويتشاورون في كيفية قضاء عطلة العيد ، لطالما أن الاجازات ممنوعة. غير ان ابناء المنطقة ، كانوا مطمئنين الى انهم سيقضون العطلة مع ذويهم على اية حال . أما ابناء مناطق دير الزور وحلب فكان الامر بالنسبة اليهم يستدعي بعض المسؤولية لبعد المسافة نسبيا . وحين يأتي دور ابنـاء المناطق البعيدة فان موضوع العيد بالنسبة اليهم بات لاعيد ولا مايحزنون. سيقرض كل منهم اصابعه بلا حلوى ولا ابتسامات فرح ، واصـوات مفرقعات ، ولارؤية الاطفال يختالون بملابسهم الملونة ، وبالتالي كل عام وانتـم بخـير .

٦

أطل رأس السائق (الضبع) من رواق الخيمة ، ونادي فواز هلال وكان هذا يشرب الشاي مع رفاقه ، يائسا من العثور على طريقة تجعله يصل الى المنطقة الجنوبية لقضاء العيد مع امه وذويـة . وكانت النـار المشبوبة تصبغ وجوه الرجال التي ما زالت معفرة بالوان تبحث عنها ريشة (فان كوخ) . وان شاهدها النطونينو ، فلا شك بأنه سيصفق من الفرح .

قال فواز للسائق :

ــ ادخل يا رجل .. لماذا تقف هناك في الليل ..

وقال السائق من الخارج :

ــ ان لي معك حديثا خاصا .

وباعتبار أن فواز تشوقه أحاديث الليل، وتستهويه الاسرار والالغاز، فقد جرع كاسه وانتصب هاما بالمضي . ولكن الشاعر استوقفـه ليخرج معه ، فاستبقاه ، وعدا اياه باستدعائه اذا وجد أن في الامر ما يثير .

كان لدى السائق الضبع موضوع يحتاج للمعالجة ، فهو مفر ويجلب بعض المال ، وقدارتأى ان فواز ذا السمعة المعينة يمكنه أن يساهم بالامر :

ــ اسمع يا فواز .. هناك قروي يبني بيتا في شمال الطبقة . وقد عرض علي أن انقل اليه بضع حمولات من الاحجار مقابل ما فيه النصيب ، فما رأيك ؟

قال فواز وهو يعصر انفه :

ــ ولماذا اختارك انت دون السائقين الآخرين ؟

ورد السائق في مواربة :

ــ لقد وثق بي .. لا ادري لماذا .؟ . وقال انه لم يعرض الامر على احد آخر .

وزفر فواز من انفه :

ــ واذا علم المراقبون بالامر . !

قال الضبع :

ــ سيكون الامر ليلا ولن يرانا احـــد .

وتحلى فواز ببعض من المسؤولية وقال :

ــ الم تسمع ما يقولونه لنا منذ يومين ، عن أن مياه النهر سترتفع في كل لحظة مرتقبة . واننا يجب أن نردم جوانب النهر بكميات كبيرة من التراب والحجارة قبل أن يصل الفيضان ، والا ذهبت كل اتعابنا هباء .

ورد الضبع محاولا اقناعه وجعله يتخلى عن حرصه :

ــ اسمع .. ان نقل حمولتين أو ثلاث .. لاتقدم ولا تؤخر . ثم أن ما ننقله الان من الحجارة والتراب لايفيد شيئا اذا ما وقعت الواقعـــة .

الا انفواز هلال يستطيع ان يغامر بكل شيء الا بمستقبله. وهو لايأمن جانب المعلم نايف بأية حال ، بعد أن وشى به خاصة ، وقد ولدت لديه هذه النزوة نقطة ضعف . لذا أصبح يبدو لمن يراوده بعمل ما ، بأنه رجـل مستقيم وذو مبدأ . لذا راح يدافع لا عن المشروع ، بل عن نفسه بحرص :

ــ ولكن هل تعلم بأنه اذا اكتسح الفيضان الضفة فلن نستطيع العمل طوال الشتاء والربيع ، وعلينا الانتظار الى الصيف حتى تنحسر المياه .

ورد السائق ساخرا :

ـ اصبحت ما شاء الله مهندسا .... دعنا من هذا .. وقل لي :

ـ هل انت مستعد لان تساعدني الآن .. وفي هذا الليل على نقل حمولة احجار الى القرية . !

تردد فواز قبل أن يجيب ..

ـ اتريد الصراحة ..؟

قال السائق بلهفة :

ـ نعم ..

وخيب فواز الظن حينما قال :

ـ لا أوافق ..

وتحسر الضبع وقال :

ـ هذا ما كنت اتوقعه ..

ولوح بيده ساخطا :

ـ تصبح على خير ..

ولم يخل السائق لنفسه طويلا ، اذ سرعان ما برز عايش الحامد من وسط الليل . وكان يزرر بنطاله كالعادة . وهتف الضبع ..

ـ ها . ! عايش .. هل كنت تتجسس علينا ؟ ..

ورد عايش بسلامة نية :

ـ عن غير قصد ياصاحبي .. ولكني سمعتكما .. واريد ان أقول لك رأيي .. يصعب على المرء أن يضحي بمستقبله في سبيل ديك وبضع بيضات ، وقليل من النقود ، اليس هذا ما سيقدمه لك ذلك القروي المسكين ..؟ ..

ودافع السائق عن رغبته قائلا :

ـ انك تبسط الامر وتهوله يا عايش .. هذه رزقة وليست رشوة . يجب علينا الانرفض رزقا مهما كان شأنه . فالاحجار هي للارض، والارض للناس جميعا فلن نسرقها من احد . والعيد غدا ، او بعد غد ، ونريد أن نحصل على ما يفرح الاولاد ..

واتم عايش شبك ازراره ، ناصحا الضبع ان لا يقدم على أي عمل . وبالتالي لن يجد من يتعاون معه في هذا الامر . وودعه الى الخيمة ، حيث وجد العقد منظوما .

كان الحديث يدور عن العيد والفيضان المرتقب . وعبر الشاعر عن أن النهر هو الشيطان بعينه ولا يمكن ترويضه الا بتعويذة أو سحر . وقال بشارة اسطفان انه سمع احد الخبراء يقول : ان النهر كالفتاة النزقة التي تريد أن تمارس حريتها الجنسية بلا رقيب . وهتف ضيف الله ..

ـ آه .. ليته كان ذلك لرميت نفسي فيه على الفور .. كما فعلت تلك الفتاة المسكينة .

وتطرق الموضوع الى الفتاة الغريقة ، وراح كل من السامرين يدلي بدلوه حول قصتها المشؤومة ، دون أن يغيب عن بال بشارة أن يذكر ان جمعة السالم لن يتخلى في اللحظة الحاسمة عن الامساك بعنق فواز هلال وتقديمه الى العدالة . وحين وصول الموضوع الى عمليات الحفر والسبر ، أجمع الكل على ان هذه العملية هي نوع من انواع التعجيز ، اما البحث عن كنوز مدفونة قد تغني الى اولاد الاولاد واحفاد الاحفاد . اما اذا ظل ما تخرجه الحفارة هو الصخر والرمل والفضار ، فسيبقى الاولاد والاحفاد

كما كان آباؤهم يركضون ولا يلحقون . ولكن فواز هلال ولاول مرة ـ وفيما يبدو راح يسعفه الراي الحصيف ـ لفظ حكمته الغالية :

ـ لاتظنوا بأن موضوع السبر والتحريات عن عبث ، فالكنز موجود لا محالة وسنعثر عليه ، وان لم يكن ذهبا حقيقيا .

وزفر عايش من بلعومه في توجع :

ـ هيا الى النوم .. فغدا يوم جديد ..

. . . . . .

انقسم العمال في صباح اليوم التالي الى مجموعات . ولم يتخلف عايش في هذه المرة ، بل كان من أوائل السباقين الى امتطاء الشاحنات ، وكان نصيبه مع زملاء بيت الشعر ان يعملوا بالحفر من جديد ، في حين تكفلت مجموعة اخرى بدعم الحواجز المقامة لدرء الفيضان ، الذي كانت أجهزة الرصد تشير باقترابه . بينما العيد يقترب بالثانية دون اية أجهزة رصد . وعلى خرير الآليات ،وضجيج الشاحنات ، واصطكاك الرفوش والمعاول ، تسربت الى منطقة الاعمال بضع سيارات لاندروفر هبط منها رجال مهندمون يتقدمهم رجل يرتدي بزة عمل . ولا يعلم ما اذا كان قد ارتدى هذه البزة ليوفر ملابسه الانيقة، اوا نه ارتداها ليعيش جو العمل. هتف المراقبون البعيدون :

ـ انه المدير العام .

اما المراقبون الاقل بعدا فلم يكن الامر يستدعي أية اجراءات ...

تقدم المدير العام من مجموعات الحفر ، وكان قد زار أعمال تدعيم الحواجز واعطى توصياته ، ورافقه رئيس الخبراء ونائبه توباشفسكي .

وأراد المدير العام أن يتكلم بأمر هام ، ولكن لمن يتكلم . ؟ انه يريد أن يسمعه العمال جميعهم ، مع مراقبيهم والمهندسين الجيولوجيين أيضا ، فلربما هؤلاء أيضا لا يعرفون الا البعض مما سيقوله . ولكن الجميع كانوا منهمكين بالعمل ، ومع ذلك أصر على أن يقول شيئا . انه لم يجد احدا يصغي اليه الا مرافقيه : مدير الامن الصناعي ومدير التنفيذ ورئيس الجيولوجيين عبد الحميد درويش والخبراء .

ـ يشكو عمالنا كما سمعت ، من التركيز على اعمال التنقيب والتحريات الجيولوجية . انهم يقولون ان الجيولوجي لا يفكر الا بالجيولوجيا ، وكذلك لا يخطر له الا عمليات السبر وتحديد المقاطع ورسم المصورات ، ويتبرمون بأن ذلك يدعو الى السأم ، دون ان يدركوا بعد أهمية هذه الاعمال . ففي الثاني عشر من آذار عام الف وتسعمائة وثمانية وعشرين ، وعند منتصف الليل ، هزت ضجة مرعبة سماء مدينة سان فرانسيسكو ، وتدفقت في الوادي سيول لا تبقى ولا تذر . وصلت سرعتها الى ثلاثين كيلوا مترا في الساعة وعلت الامواج الى سطوح الابنية المرتفعة ووصلت الى علو عشرين مترا او تزيد . وفرغ خزان يتسع لحوالي خمسين مليونا من الامتار المكعبة من الماء في بضع ثوان ، وقدر ذلك كله من قبل المهندسين ورجال الانقاذ الذين قدموا الى مكان الكارثة فيما بعد ، اذ لم يبق هناك شهود على الحادث . فأكثر من اربعمائة انسان لاقوا حتفهم . بهذا الشكل المريع انهار سد فرانسيسكو في كاليفورنيا . على بعد ستين كيلو مترا من لوس انجلس . وقد كان قائما على صخور حوارية وشيست بركاني ، وهي صخور متينة ، كما أنه مشيد بالخرسانة المصبوبة تلك المادة القاسية والمقاومة جدا . وبرغم ذلك فقد انطلق النهر من عقاله حاملا جناح السد الايسر معه الى مسافة بعيدة .

وفي امريكا ايضا ، في ولاية بنسلفانيا ، اقيم سد (اوستن) وارتفاعه خمسة عشر مترا ، وهو بناء من النوع الجيد شيد على ارض صخرية . وقد ركزت اساساته في الصخر بعمق . ولكن القائمين عليه اكتشفوا في أحد الايام في هيكله شقا طفيفا ترشح منه المياه ، ثم ظهر شق آخر ، فثالث ، واتضح لهم اخيرا ان المصب كله قد تقدم اربعين سنتمترا . فادعى الاخصائيون الامريكان أن السد قد تلقى ضغط الماء قبل أن يتصلب الاسمنت ، وارتاحوا لهذا التفسير . ولكن في العاشر من ايلول عام الف وتسعمائة واحد عشر انهار السد ، ولاقى حتفه اكثر من مائة انسان في الفيضان الذي حدث من انهيار السد .

ولم يتنبه المدير العام الى أن التجمع حوله يزداد واحدا بعد آخر . ويبدو ان ذلك ضروري ليستمع العمال الى التبرر اللازم لاعمال الحفر والتنقيب والتحري المتواصلة . ولكنه تابع شرحه :

ـ وان كارثة ممر (غلينو) في جبال الالب تعتبر اشهر الكوارث في تاريخ العالم الحديث ، وتاريخ الهندسة المائية خاصة . فقد انهار في جبال الالب في اليوم الاول من كانون الاول عام الف وتسعمائة وثلاثة وعشرين ، سد ارتفاعه اثنان وخمسون مترا شيده مهندسون ايطاليون . وخلال دقائق ست ، فرغ الخزان ويحتوي على خمسة ملايين متر مكعب من الماء

دقائق ست ، فرغ الخزان ويحتوي على خمسة ملايين متر مكعب من الماء.

وتهاوت مياهه المتدفقه من الجبال الى الوادي . حاملة معها اطنانا من الحجارة والاشجار وقطع الخرسانة . جارفة ما يقع في طريقها من منازل ريفية وجسور على الانهار والوديان ، وطرقات معبدة ، وقرى باكملها ، وكان هناك اكثر من ستمائة ضحية .

دتطلع المدير العام حوله ، وقد سره ان يستمع العمال لحديثه ليجعلهم غير متحسرين على الجهد الذي يبذلونه بما يخيل لهم انه بلا طائل. وتابع :

ـ ويمكنني أن أورد عددا كبيرا من الحالات المماثلة التي جرت في مشاريع امريكية وانكليزية وفرنسية وايطالية .

وتوقف المدير للحظة متذكرا الصعوبات التي أوجدتها الشركات الالمانية حين الشروع بالتعاقد معها لبناء هذا المشروع . وكيف أن الحكومة الالمانية تدخلت بالموضوع وفرضت شروطا قاسية لتنفيذه . من شأنها وضع الاقتصاد الوطني للبلد تحت رحمتها ، مما يتيح لها التدخل بشؤون سياسة الدولة ، ولكن شروطها رفضت رفضا باتا . وبدىء ببناء المشروع دون اية شروط تمس بسلامة السياسة والاقتصاد الوطني . ولوح المدير العام بيديه ساخطا تارة وراضيا أخرى . واردف :

ـ وبشأن انهيار السدود ، وخراب المنشآت المائية ، هناك مؤلف ضخم وضعه البروفسور (غلفر) ، وأن فهرس هذا المؤلف وحده كاف للبرهنة على أن حوادث انهيار السدود وخراب المنشآت المائية هي حوادث مالوفة في الخارج ، وتكاد أن تكون أمرا طبيعيا .

ان فهرس مؤلف البروفسور غلفر يحوي على الحوادث التالية :

ـ انهيار سد سترونغ ريفر	الولايات المتحدة الامريكية
ـ تفكك سد غيم ليك	الولايات المتحدة الامريكية
ـ دمار سد بوزي	فرنسا
ـ تفكك سد زربينو	ايطاليا

وعصر المدير العام راسه ليتذكر :

ـ دمـــار سد أوستن	الولايات التحدة الإمريكية
ـ تفكك في هيكل سد هبرا	في الجـزائر

وفكر قليلا فتذكر :

ـ انهيار سد دانفيل	الولايات المتحدة الامريكية
ـ انهيار سد اشلي	الولايات المتحدة الامريكية
ـ انهيار سد برمبو	ايطاليـا
ـ تفكك سد الدلتـا	مصـر

وفكر المدير العام قليلا ثم قال :

ـ اضرار في سد غروبو	فرنسا

ثم أضاف بسرعة :

ـ انهيار السد المعدني في هوزوليك	الولايات المتحدة الامريكية
ـ تصدع سد ساوت فورك	الولايات المتحدة الامريكية

واخيرا ، لا يغربن عن البال ما حدث لسد كيبان في تركيـا .

ومضغ المدير العام ريقه وقد اشرف على الجفاف ، ولكنه تحلـى بالصبر وتابع :

ـ ان قائمة كوارث السدود في العالـم طويلة جـدا . ففي غضون الخمسين سنة الماضية فقط ، وقع اكثر من الف من هذه الكوارث الخطيرة في مختلف بلدان العالم ، وثمانون في المائة من هذه الكوارث كانت من نصيب الولايات المتحدة الامريكية .

لماذا . ؟

طرح المدير العام هذا السؤال وكأنه ينتظر الاجابة ، والاجابة كانت متوفرة تقريبا . الجميع يعرفون السبب او يخمنون . انه واضح .. عمليات التنقيب والسبر والتحري تلك !اما انها لم تكن وافية أو انها كانت خاطئة . ولكن المدير العام تكفل بالاجابة :

ــ ان اللجان المأذونة التي زارت أماكن الانهيارات والتفكك والدمار تلك التي تحدثت عنها ، اهتمت كثيرا بتقصي اسبابها ، واوضحت جذريا جميع التفاصيل . واكدت لجنة عليا ان السيد ايتيل مواطن ما ، قد مر بسيارته قبل نصف ساعة من خراب سد سان فرانسيسكو ! من قرب السد مباشرة ، فلم ير أو يسمع شيئا مما ينذر بالخطر . أو يدل على قرب حدوث كارثة . وقد حسبت خسائر ولاية كاليفورنيا الناتجة عن هذا الانهيار ، فبلغت ستة ملايين من الدولارات . وفي الوقت نفسه تبين بصورة علمية قاطعة ، ان الحفريات التي سبقت بناء السد كانت تنقصها العناية . وقيل هذا تهربا مما أسوأ من ذلك . ورأى الجيولوجيون الامريكان بوضوح ان الصخر الحواري والشيست اللذين اقيم عليهما السد ليسا صالحين لحمل الاثقال ، ويبرهن تحليل أكبر الكوارث التي حصلت في مختلف البلدان انها تقريبا ناتجة عن سوء معرفة البنية الجيولوجية ونظام جريان المياه .

وختم المدير كلامه مشيرا الى النهر الذي تقام الحواجز من حوله . وقال داعيا الى المثابرة والصحو :

ــ ان نهرنا هذا الذي يود الانسان ان يكبح جماحه ، يحرص على الا يسلم عنانه قط ، فهو يحاول أن يذلل العقبات القائمة في طريقه ، ويتغلب

عليها . ويستفيد ببراعة شيطانية حقا ، من ادنى خطأ يرتكبه الجيولوجيون ومهندسو الدراسات والبناء ، ليحصل على حريته ويتخلص من سيطرة الانسان .

وفي تلك اللحظة حاول توباشفسكي أن يورد أمثلة مغايرة لتلك التي أوردها المدير العام ، وقد استغل جفاف ريقه ، فأراد أن يتحدث عن السدود الآمنة والمتينة في بلاده كسد براتسك على نهر الانغرا وسد ايركوتسك على نهر ايلي وسد الفولغا على نهر الفولغا ، ولكن المدير تحرك ومضى باتجاه الضفة الاخرى من النهر يتبعه الخبراء والمرافقون .

. . . . . .

العيد غدا . قال نايف سعيد لزميله عبد السلام حيدر :

ـ يجب ان تجمعني اليوم بمرؤوسيك ميهار خلوف العبد الله ، ومهيار عيسى عبيد لاتحرّى من منهما القاتل ..

وحملق حيدر عينيه دهشا :

ـ هل توصلت الى الفاعل ..؟

وهز نايف سعيد رأسه :

ـ لا .. ولكني ساحاول ، فأنا لا انام الليل ..

ولكن هذا الاجتماع لم يتم هذا اليوم ، لان النفير قد اعلن ، وفرض على كل عامل ومراقب ومهندس ان يبقى في مكان عمله ، ومكان عمل نايف سعيد كان بعيدا عن مكان عمل « المهيارين » .

في المساء بدأ النهر يتمطى ويضطرب ، وكانت المياه ترتفع وترتفع بصورة واضحة . والمراقبون والمهندسون يركضون هنا وهناك ، ويفدون

من كل جانب . والمدير العام بنفسه لم يتخل عن بزته بل راح يتنقل وملا ويصدر اوامره . اما رئيس الخبراء ونائبه ومرؤوسوه فشرعوا بأنفسهم يفكون السيارات وآلات الحفر ويجرونها الى الخلف . ونودي إلى سائقي الشاحنات لتنقل مزيدا من التراب والحجارة ، فوجد ان كثيرا منهم يتصافحون ويرددون كل عام وانتم بخير ، ولكن بعيدا عن مكان العمل ، فقد أعلن النفير وهم يغادرون مكان قيادة العمل . ونودي على كل من يعرف قيادة سيارة من اي نوع كان ، ابتداء من المدير العام ورئيس الخبراء وحتى الآذنين . واستقبلت الشاحنات والناقلات رجالا يتربصون وراء مقاودها وهم بألبسة نظيفة وبأيد لطيفة ناعمة ، ولكنها استجابت للنداء ، برغم أن معالجة سيرها كانت معالجة بدائية وركيكة . وراحت المقالع تستقبل الشاحنات بعد ان تفجرت صدورها باصابع الديناميت . وكانت الصيحة المترددة دائما والى ان حل الظلام : ادعموا السدود ادعموا السدود . وانيرت المصابيح الكاشفة .ونايف سعيد وحده الذي يعرف حديث النهر اخذ يردد : لن نجعلك تلهو في الظلام . ولكن النهر كان يضحك بملء احشائه : لا يهمني النور . سأغمض عيني فيكون الظلام . وشرع بردم المناطق المنخفضة من الحواجز ، وكان الضبع ـ وقد نجا من احبولة كل عام وانتم بخير ـ يصول ويجول بشاحنته . كان يأمل في هذه الليلة أن ينقل أحجارا الى القرية لقاء ديك وبيضات . ولكنه الآن ينقل حجارته الى ضفة النهر بلا مقابل .ولو عرف نايف سعيد بموضوع البيضات لما غاب عن ذكره
النهر بلا مقابل .ولو عرف نايف سعيد بموضوع البيضات لما غاب عن ذكره
ترددصدى هذه العبارة ، في غبش فجر ذلك اليوم ، ولما تردد عن تأسفه وحيرته : مسكينة . . لقد غرقت قبل أن تعترض أو تشكو امرها لأحد . .

ولربما انها شكت الى الله .. وسيسمع الله الى شكواها حين تصل اليه . وسينصفها ، حين يتبعها الفاعل . راودت مخيلة المعلم نايف في بعض المرات فكرة ما اذا كانت البنت قد انتحرت انتحارا ، وقد يؤيد هذه الفكرة كونها عارية . اذ ان الفاعل سيكون زاهدا بملابسها الرخيصة . ولكن اهم من ذلك من هي ... ؟ .. ومن أين أتت ... ؟ .

لطالما ان أحدا لم يتعرف عليها ، وحتى الآن لم يرد اي رد على البرقية التي اهابت بالقاطنين على طول مجرى النهر : هل من فقيدة ! ولكن نايف سعيدة في هذه المرة لا تخالجه الافكار ، انه منهمك مع المنهمكين ، وبضراوة في الامساك بأشداق النهر . انه يعرف سره ، وقد خلا به ، وانعقدت بينهما صلة من الصلات : انتم وادواتكم ومعداتكم كلها سأقضي عليكم بنفخة واحدة . والضبع لايعرف حديث النهر ولكنه ينقل الحجارة ويخطر له اهله واصحابه في احدى قرى منطقة حماه وهم يهيئون انفسهم لاستقبال العيد . انه قد تجاوز سن من حوله تقريبا ، فهو يدنو من عامه الخمسين، لذا لا يحلو له ان يخوض بينهم ، أو ان يجاريهم ، انه متوحد تقريبا بلا انيس . وفي الوقت الذي يذكر فيه أصحابه وذويه لا ينسى فكرة نقل الحجارة الى القرية برغم وجود الانوار الكاشفة .

وفي احدى النقلات ، وهو يجتاز منحدرا ملتويا تصدى له شبح يختفي في فروة ثقيلة . فحاول تجاوزه ، ولكن الشبح رفع يده ووقف في وجه الشاحنة . واطل الضبع براسه من النافذة ، ابتعد يا شيطان لا استطيع ان اركب احدا .. غريب .. هل نسي الرجل الذي راوده عن نقل الحجارة . ! ورفع الشيخ صوته ، فعرفه . اذا ادار المقود يمينا ، ودعس

على دواسة البنزين ، فيسصل القرية بعشر دقائق ، وسيحتال على المراقب بأية حيلة . وتوقف .

ـ اصعد هيا ..

واقترب الشيخ من سيارة الشاحنة ، فلم يصل راسه الى مقبض بابها .

ـ در من هناك من اليمين .

وتخطى الشيخ الاحجار ، وراح يدور حول الشاحنة من الخلف . ياله من غبي ! لو اقتصر الوقت ودار من الامام بضع خطوات فقط :

ولمح نور ناقلة من خلفه يقترب :

ـ هيا يا شيطان .. اين انت ..؟ .

كانت الناقلة تقترب ، وسيكون الطريق امامها مسدودا . وابتعد عن المقود وزاح الى جانب ليفتح له الباب :

ـ هيا اصعد بسرعة ..

لكي يصعد الرجل العادي الى مقصورة الشاحنة يحتاج الى خفة هر . ومد الشيخ ساعديه الى الدرجة يريد ان يتسلقها . وباتت الشاحنة الخلفية وراءه مباشرة ، واخذت تطلق زمورها . وفكر الضبع : سأدوسه وعلى الدنيا السلام .. وسحقا لكل الدجاج والبيض في هذه الدنيا ، مادمت لن اقضي العيد في بلدتي ، فما حاجتي الى كل الهدايا ! ارجع قضيب السرعة الى الوراء وضغط على الدواسة ، فقفز جسد الشاحنة قفزته الاولى . وسقط الشيخ على الارض .. اذا نجا من عجلاتي فستتلقفه عجلات الشاحنة الخلفية .

هل كان ينوي حقا بان يجعل عظامه تنسحق تحت العجلات ؟ هذا أمر غير محتمل ، فليس هناك من الاسباب والدواعي ما يجعل عظام القروي تنسحق . فهو يفكر ببساطة : انهم ينقلون كثيرا من الحجارة ، فماذا يضرهم لو تقلوا جزءا منها الى قريتي لابني بها بيتا ؟ ان بناء بيت أمر هام ، وامام اهميته تهون كثير من الامور . ويمكن التضحية من أجل ذلك بعدة ديوك وبانتاج شهر كامل من البيض . هذا من ناحية القروي ، اما من ناحية السائق فما الذي جعله يغير رأيه ، ويزهد في العملية كلها ! ليس الارجح هو ظهور الشاحنة وراءه ، الارجح على الاغلب هو داع دعاه من أعماقه . خيانة ! العمال هناك ، والمراقبون والمهندسون والخبراء جميعهم يكافحون مصيرا اسود ، بأيديهم وارجلهم ، ونداءاتهم ، وعرقهم يتصبب ، ارواحهم نفسها تواجه لحظة حاسمة ، فكيف ! كيف انا وحدي أهرب ، لاحصل على ديك . . ؟

ووجد نفسه يبصق . وحين وصل نقطة تتيح له رؤية ماء النهر ، جحظت عيناه من الرعب : ارتفع الماء ووصل الى صدر السد . مئات الحمولات من الصخر والتراب ، وجهد أيام متواصلة ابتلعها الماء بطرفة عين .. وهبط سرير النهر ليفرغ حمولته . ولكن أين يفرغها . !واشار اليه سهم أحمر الى جهة ما قريبة ، كان جزء من السد فيها قد انهار .. تقدم بشاحنته ، ثم ادارها يمينا لينعطف . الاضواء الحمراء وحدها تتكلم في هذا الليل . اشار اليه السهم أ نيبتعد . يقترب يمينا .. يسارا .. أعلى .. اسفل .. قف . وأدار محرك القلب . مال صندوق الشاحنة ، وسمع صوت الاحجار وهي تسقط في الماء . وأراد أن يتقدم قليلا ليرى رجوع صندوق الشاحنة الى مكانه . وضغط على البنزين .. وضغط .. وراحت

العجلات تدور في مكانها فقط .. اذن فقد وصل الماء الى العجلات .. ولأول مرة سمع صوتا بالعربية :

ـ اقفز .. اقفز ..

وفتح الباب يريد أن يقفز .. ولكنه وجد نفسه انه سيسقط في الماء

اذن فقد انتهى كل شيء .. قليل من العاملين سهروا حتى الصباح،

ومن بعيد كانوا يراقبون انهيار الحواجز ، وصعود الماء حتى سريري النهر . ليس هذا ما كانوا يفكرون به ، لقد شردت أفكارهم الـى للقرى المنتشرة على طول المجرى .. وباتوا ينتظرون الصباح ليستمعوا الى نداء الاذاعة ينادي باغاثة المنكوبين ... كثير من العمال حفروا اسماءهم على الاعمدة المقامة على مجرى النهر .. فاين هي هذه الاعمدة الآن . ! وكانت اسلاك الهاتف والكهرباء ممدة هنا وهناك على الارض .. لن يكون هناك آلوه .. ولن يقرع جرس الهاتف في اي مكان ..

وتربع الشاعر ضيف الله الشمري وراء ناره ينشد :

فاذا به السد الوليد يذوب في ضعف ذليل ..
وسمعت همسة من تعاني الموت في جسد نحيل
لصرخت ياسد الحماية هل عزمت على الرحيل ..
اختاه لو تمشين في الليل الطويل ..
اختاه لو تدرين ما سر العويل ..

اما فواز هلال وشاهد عبد الصمد فلم يكن لهما اي أثر . لم يكونا مع الساهرين بعيدا عن النهر ، ولم يكونا من المترقبين عنده أيضا . ايـن

هما اذن . ؟ ان احدا من العاملين لم يخبر عن حدوث اي حادثة غرق ، وبالتالي لم تسمع صيحات استغاثة . وكانت الزمرة الاولى والثانية عشر تعملان في دعم السد من الطرف الشمالي ، وكان هناك ثلاثة مراقبين احدهم عبد السلام حيدر ، واتصل نايف سعيد بزميله فنفى أن يكون يعلم عنهما شيئا . وليس مما يخطر للاذهان ان الرجلين اختليا وحيدين في مكان ما ، لعدم وجود ما يجمع بينهما من عادات وافكار . وبدأ البحث عن الفقيدين في كل مكان . واستدعيت فرقة الانقاذ للبحث عنهما في الضفاف المغمورة . كانت هناك كثير من الاجسام الثقيلة التي لم يتسن رفعها قبل الاوان . وقد ظهر بعض اجزائها من تحت الماء . وغاص الغواصون هنا وهناك ، ثم سبحوا الى الوسط ، وغاصوا في الاعماق . ثم عادوا وهم يرفعون كماماتهم ونظاراتهم .. لا شيء ! وارسلت الى دمشق برقية تعلن عن فقد عاملين من عمال سد الفرات ، في الساعة ما بين الثانية عشر ليلا والثالثة صباحا .. وركن العاملون الى مآويهم وهم في حيرة ، يلهثون . انه امر لا يصدق . اما الشاعر ضيف الله فقد استعصت عليه القريحة ، ولم يجد كلمة واحدة يقولها في رثاء خليله ، ويبدو على الاكثر ان جفاه التصديق بأن رفيقه قد ابتلعه النهر .

٧

الفريقة . ! هل هي ثيب أم عذراء . . ؟ . . أول من اثار هذه العاصفة في سماء منطقة العمل هو ـ وليكن ذلك مفاجأة ـ فواز هلال نفسه، العامل المفقود ، والذي تلقت الدوائر المختصة في دمشق برقية عن نبئه . حضر من القرية صباح اليوم الثالث محلوق الشعر مهندما نصف هندام . اذ لم يكن ميتا على الاطلاق . . ولم يكن مفقودا ايضا ، حتى ويخيل للمرء انه بات عريسا ، او انه موشك على اقتحام القفص الذهبي .

والواقع ان ظهوره بهذه الطريقة لم يكن مثيرا للدهشة القصوى ، حتى أن ضيف الله قبل ان يعانقه هتف من صميمه : الم أقل لكم ، ان صديقي لن يموت ! ويجب ان يشار الى شاهد عبد الصمدفي هذا المجال ، واعطائه الفضل لاشارته الاولى الى أن فواز غير مختف عن العالم . وشاهد لم يغب طويلا عن الانظار . فقد ظهر عند ارتفاع الصباح وهو في حالة مفزعة من الانهاك والتمرغ ، حتى انه بدا وكأنما هو منتشل من بين احجار رحى . وبعد ان اجريت له الاسعافات الاولية بما فيها الخبز والشاي . سرد قصة مثيرة . كانت في الساعات الاولى من الفجر . فقد اجريت أعمال التفقد على النفوس والجرد على المعدات . ولم يكن قد فقد الكثير او الهام من هذه الاخيرة ، أما الارواح فقد تبين فقد اثنين . وقد اتخذت جميع الوسائل لمعرفة حقيقة اختفائهما ولكن دون جدوى ، فأعلن عن فقدهما رسميا . قد يكون هذا القرار متسرعا الى حد ما ، غير أن ظروف الفيضان

الاليم كانت حادة ومطيشة للصواب ، لدرجة اشاعت الفوضى والارتباك ، وعملت على اتخاذ قرارات مرتجلة وسريعة ، ولكنها تعتبر معقولة على اي حال . فمحاضرة المدير العام التي ارتجلها في مواقع العمل يوم امس لم تغب عن الاذهان ، صحيح ان سامعيها كانوا قلائل ، ولكن تفاصيلها وصلت الى آذان الجميع قبل ان تغيب شمس اليوم ، وخلفت في نفوس الاكثرية العظمى انطباعا حادا عن مآسي الفيضان وانهدام السدود ، وعن الضحايا البشرية خاصة التي ستكون احدى الحصيلات . لذا حين تم الاعلان عن فقد زميلين من الزملاء ، كان — يصرف النظر عن النواحي العاطفية — امرا منطقيا وقريبا من الصواب .

الغريقة . ! هل هي ثيب ام عذراء . ؟ . . اول من وضع يديه على راسه ليتماسك حين سماعه هذه الاحجية ، هو المراقب نايف سعيد : ترى هل بمعرفة ذلك يتم اكتشاف اللغز ؟ وهل اذا كانت الغريقة ثيبا يختلف الامر عنه فيما لو كانت عذراء ! وما علاقة العذرية وعدمها في مثل هذا الموقف ، وفي اي موقف آخر مشابه . ؟ .

وخلص الى نتيجة ما ليبعد عن خاطره تلك الدوامة الباعثة على الدوران : ان رجال القضاء والقانون يخترعون معميات صعبة ليحلوا بها معميات اقل صعوبة .

والحقيقة ان فوازا اتى بالنبأ من قبيل التندر والتفكه ليس الا . . وقال انه سيتم نبش قبر الغريقة بين لحظة واخرى لمعرفة الامر . وان رجال الشرطة بحضور بعض الرسميين ، وبعضهم قادم من العاصمة ، ، مع طبيب شرعي وقابلة قانونية ، سيكونون متواجدين دون اي احتفال . وكان نايف سعيد يفكر : انها ثيب . ! حسنا . . وبعد ذلك . ! بل انها

عذراء .حسنا وبعد ذلك ! ووجد نفسه يبتسم في غيظ : تبا لكل هذه الطقوس .. وتساءل : ترى لو ان الحادث جرى في غرب البحر الابيض المتوسط او شماله ، فهل يتشعب البحث حتى هذه النقطة .. ؟ .. ولكنه تذكر .. ودون عناء ،ما يقرأ عن حوادث العنف الجنسي الذي ينشر في الصفحات الوسطى من المجلات اللبنانية ، هذه الحوادث تجري في كل بقاع العالم . وهذا التذكر جعله يرفع مسؤولية انحراف بال المسؤولين القانونيين الى تلك الناحية . ومن يدري .. ؟ فشؤون التحقيقات الجنائية هي اختصاص قائم بذاته . واسترجع في خاطره فكرة اللقاء مع مهيار الاول والثاني لمحاولة اكتشاف الحقيقة . ثم اخذ يحاول استبعاد تلك الفكرة ، لان تحقيقها سيكون بلا جدوى ، فهو غير ذي خبرة ، او اية خبرة بشؤون حل الإلغاز الاجرامية ، ولن يكون حتى تلميذا لشرلوك هولمز الذي ادعى انه سيكونه .

ولكن الاهتمام الآن – وان كان منصبا على الفتاة الغريقة – كان في الوقت نفسه يسعى لاعطاء جانب منه الى غياب فواز وشاهد – اين اختفيا . ؟ ما سر غيابهما .. ؟ وهل للأمر علاقة ما تجعل الرجلين يرتبطان برابطة غير رابطة العمل . الجميع يعرف ان الشابين على خلاف مبدئي من ناحية العقيدة والافكار . هذا في أوقات الجد وبحث المسائل النظرية ، أما في أوقات ملء الفراغ والتسلية ، فليس بينهما ايضا اي قاسم مشترك . شاهد متشبث بكتابه وفواز معانق دراجته او متأبط ذراع الشاعر . اذن! كيف التقيا هنا ، وغابا معا عن الانظار ! ثم ان اعلان شاهد حين ظهوره ، عن ان فواز حي يرزق ، الا يوحي بأن الاثنين كانا مشتركين في حادثة التخلف والضياع ؟ كان الشابان حين بدء الفيضان يعملان في دعم السد

الشمالي على الضفة الاخرى من النهر . وكان في مرافقة الزمر الثلاث التي تعمل هناك ، عبد السلام حيدر احد المراقبين . وحين فشلت المساعي والاجراءات كلها في ايقاف ثورة النهر ، رؤي أن يتم اخلاء المكان من العمال والمعدات ، والتفت العاملون بكل امكانيتهم لتحقيق هذه الغاية . بدىء برفع الآليات ، وانزلت القوارب بما فيها قوارب المطاط الى الماء لتنقل العمال الذين وصل الماء الى بطونهم . وكان أ ن سارعت القوارب لتصل الى الضفة الاخرى، بمعرفة خبراء بحارة ، خدموا في الاساطيل، وصارعوا أمواج البحار ، وتم نقل كل من الزمر الثلاث مع مرافقيهم الى الضفة الجنوبية . ولم يجر تفقد حتى تلك اللحظة ، فلم تكن الحال تسمح بذلك الجنوبية . ولم يجر تفقد حتى تلك اللحظة ، فلم تكن الحال تسمح بذلك، عدا عن أن المفروض البديهي يجعل كل انسان يسعى الى النجاة بحياته ، والتعلق بأقرب قشة تبعده عن الخطر المحقق .

اذن ؟ ! لماذا لم يركب الرجلان احد القوارب وينجوان مع الباقين ؟ وفي الوقت نفسه ! لماذا لم يطلق اي منهما نداء! او صراخا اذاكان بعيدا او متعثرا ، أو مشرفا على الغرق ، بحيث لم تسمح له الظروف بتسلق القارب . ! الواقع ـ كما شرح شاهد في حينه ـ ان الظلام كان مخيما ، والأضواء الكاشفة كانت منصبة معظم أشعتها على الضفاف الجنوبية ، فلاحظ فجاة اختفاء فواز ، ليس اختفاء كاملا ، بل راى شبحه يبتعد مسرعا . فناداه . ولكن فواز لم يستجب ، فلحق به . وهكذا ابتعدا نسبيا عن الضفة ، التي تجمع عندها الافراد منتظرين وصول القوارب .

ـ ظننت أن فوازا قد أصيب بانهيار عصبي ..

هذا ما قاله شاهد ، ـ خاصة عندما رأيته يبتعد شمالا .. ثم يعود

الى النهر يحاول ان يلقي فيه بنفسه . التفت لاستنجد فرأيت نفسي أصبحت بعيدا . والواقع اني ناديت . . ولكن صوتي ضاع في الضجة والهدير . . نـزل فواز في المـاء حتى عنقـه ، فسقطت وراءه في المـاء احـاول انتشاله . ولكنه اخذ يبتعد . . ويلوح بيده لأن ارجـع . . فعرفت بأن الرجل لم يفقد رشده ، بل انه ينوي أمرا ، وهذا الامر ليس اغراق نفسه على اية حال .

قبل أن يسرد شاهد الشاهد تلك القصة المثيرة ، نزعت ملابسـه المبتلة عن آخرها ، واوقدت له النار ، وكان ضيف الله يقوم بهذه المهمات بكل حماسة واريحية ، عندما لفظ شاهد عبارته الاولى قبل كل شيء : فواز حي لا تقلقوا . وتابع شرحه :

ثم وقف وسط الماء فعرفت انه حين غاب حتى عنقه . لم يسقط في مكان عميق . فناديته من جديد ، جاهلا ماذا ينوي أن يفعـل : لا ترتكب حماقة يافواز ، ارجع لنجتاز النهر بالقارب . ولكنه رفع صوته في هـذه المرة ، ارجع وحدك ، أنا لا أريد أن ارجع . فسقطت وراءه اريد ارجاعه بالقـوة .

وضحك المستمعون ، فقد كان فواز يفوق شاهدا قوة جسدية ، وكان بين الحاضرين رئيس الشؤون القانونية في المديرية العامة ، يسجل تقريرا بالحادث . ليحصر المسؤولية ، ويبين ظروف التخلف وملابساته ، وكان ايضا نايف سعيد ، وعبد السلام حيدر ، وكان الوقت يدنو من الظهيرة . وقاطع رئيس الشؤون القانونية سرد القصة سائلا . . .

ــ نريد أن نعرف ماذا حل بفواز . ؟

ولكن نايف سعيد طلب من الرئيس التمهل ريثما ينهي شاهد سرد ظروف الحادثة . .

ـ حين وصلت اليه اخوض بالماء بقدمي . دفعني بيديه لارجع .

قلت له اريد انافهم ماذا تريد أن تفعل، فأجابني انالامر لايخصني . قلت في نفسي : كيف لا يخصني الامر واحد رفاقي يفرق نفسه في النهر ، وسط الفيضان والبلبلة ! وقررت ان افعل المستحيل لارجاعه ، على أن لا يتشبث احدنا بالاخر ويجرفنا الماء ، الذي كان يزداد ارتفاعا .

وفي تلك اللحظة وقفت سيارة أمام بيت الشعر وهبط منها رجلا شرطة احدهما مساعد ،وهو رئيس مخفر القرية . دخلا مسلحين والقيا التحية ، فافسح لهما مكان ضيق على حافة احد السريرين ، قال المساعد:

ـ هل وجد المفقودان ! .

وكان السؤال عن عذرية الغريقة لم يصل الى المخفر بعد .

وقال الشرطي :

ـ واين المفقود الآخر . . ؟ .

اجاب عايش وحده :

ـ فواز مازال مفقودا . .

وتنبه المساعد فجاة ، ونظر الى نايف سعيد :

ـ وهل اسم ذلك الرجل فواز هلال ؟

ـ فواز مازال مفقودا . .

وانتفض نايف لنظرات المساعد حين طرح سؤاله ، وهتف فورا :

ـ وهل تعرفه يا مساعد ! .

لفظ كلمة مساعد بلا كلمة احترام ، ولكن المساعد تغاضى عن الامر ، وامسك عن الاجابة . انه في مواجهة رجل حزبي ، ولكن مسألة العمل لا علاقة لها بهذا على كل حال . وكان المساعد قد حضر التحقيق الذي جرى في مكتب المحافظ في الرقة . ويبدو هنا انه قد تم الاتفاق على عدم ذكر اسم الواشي في التحقيقات المقبلة . لذا احس المساعد بانه تسرع حين اهتم بفواز هلال هذا الاهتمام ، وبدأ يبحث عن مخرج من هذا المأزق الذي وجد نفسه يسقط فيه . ولم ينتظر طويلا ليعيد نايف سعيد سؤاله ، فنقل بندقيته من مكانها واجاب وهو يغض الطرف :

ــ انه مجرد سؤال لا اكثر .. نريد .. أن نعرف الاسم فقط .

وبالرغم من أن هذه الاجابة لم تقنع نايف سعيد بأن الامر ليس غير اهتمام عابر ، فقد صمت هو ايضا ، ولم يلح بطلب الاجابة الصحيحة . ولكن العامل جمعة السالم الذي كان حاضرا هو ايضا ، أراد الا تفوته فرصة الكشف عن الحقيقة ، فأسهم بالنقاش بلا مقدمات، واعلن بنبرة واضحة :

ــ نعم هو فواز هلال يا حضرة المساعد .

ورفع المساعد يده وهز رأسه :

ــ طيب .. ما هي ظروف الحادثة اذن ...؟

وضاعت الفرصة على جمعة فصمت مرتبكا محزونا ، ولكنه واسى نفسه ، سأكشف الامر بنفسي لنايف حين تتعقد الامور . وتحدث عبد السلام خيدر باختصار بما تحدث به شاهد حتى الآن . وأضاف :

ــ انه ما زال يروي القصة .

ولاحظ الشرطي الثياب المعلقة ، وكان شاهد يرتدي فروة على المظم . فسأل :

ـ وهل انتشل الاخ هذا من الماء . . ؟ .

وأجاب شاهد الذي لم يكن يحفظ ودا لرجال الشرطة :

ـ اظن بأن الاخ عبد السلام تحدث بالموضوع . .

وتظاهر الشرطي بأنه تذكر الأمر دون ان يشعر بالخجل . وانقذ الموقف نايف سعيد موجها كلامه لشاهد . .

ـ أيوه . . وبعد ذلك . . ! ؟

وشرع شاهد يسعل . . قال عبد السلام سيصاب بالرشح لامحالة . يجب تداركه ببعض الحبوب . وهتف عايش :

ـ ذهب الطبيب في اجازة . .

قال المساعد . .

ـ يمكن جلب بعض الأدوية من خيمة المستوصف . .

ورد عايش :

ـ والمرض ايضا ذهب لقضاء عطلة العيد . .

وعجب المساعد لائما :

ـ كيف يذهبون . . مع انكم بحاجة ماسة دائمة للاسعاف . !

وقال عايش :

ـ هذا الأمر لا يهم كثيرا . . فحين نموت فأرض الله واسعة . .

واستأنف شاهد حديثه :

ـ وهذا ما حدث . . امسكت به من كتفيه . .

وغامز جمعة السالم ودخل الميدان مستنفرا :

ـ انه يقصد فواز هلال يا حضرة المساعد ..

وهز المساعد راسه متفهما ، دون أن ينساق وراء استفزاز العامل .

واكمل شاهد قائلا :

ـ وهنا أدركت بأنه لا يريد أن يموت . فقد ارتعب وراح يصرخ :

ـ ارفع يديك .. ارفع يديك سنفقد توازننا .ولكني أصررت على معرفة ماينوي أن يفعل ولماذا يسقط في الماء . والضفة الاخرى بعيدة لايمكن الوصول اليها سباحة بالنسبة الى الجاهلين بأمور السباحة من أمثالنا .

وعاد شاهد الى السعال من جديد . واهاب بـه نايف سعيد ان يستلقي على أحد الاسرة ليأخذ قسطا من الراحة ويتدفأ . ولكن الشرطي ـ متناسيا رئيسه الى جانبه ـ اعترض على ذلك ، طالبا أن ينهي الرجل كلامه لتنفيذ المهمة . وظل المساعد صامتا . فقد تلقى برقية عاجلة مـن القيادة في الرقة بتحري الحادثة ، واعلام المسؤولين عنها برقيا .

وكيلا يظهر الشرطي بمظهر غير لائق خفض راسه أمام المساعد قائلا :

ـ ما رأيك يا سيدي .. ؟

وارتبك المساعد متنحنحـاً

ـ اظن .. اعتقد .. لا بأس .. يمكنـه أن يستريح .. وبعد ذلك نكمل تنفيذ الأوامـر ..

لفظ كلمة الأوامر بضخامة ليشعر الجميع بأن القضية ليست من السهولة للدرجة التي يتخيلونها ، وفجأة نهض شاهد ـ وبانفعال تقريبا ـ وانتصب بفروته فظهر جانبه الامامي عاريا ، واعضاؤه مكشوفة . تنبه

الحاضرون الى ذلك بعد ان فكروا ماذا ينوي أن يفعل . . ؛ وحين تنبهو الى اعضائه بدات ردود الفعل تظهر . كتم ضيف الله ضحكته واشاح بوجهه، اما الشرطيان فقد انفجروا ضاحكين بلا مواربة ، وضحك الآخرون ولكن بحرص . فالفروة ترتدى عادة فوق الملابس ، ولم يسبق لاحد ان لبسها على العظم الا في خلوة . اما السؤال الذي يتبادر الى الأذهان فهو : هل فعل شاهد ذلك بقصد ليحرج رجلي الشرطة ، ام نسي انه يرتدي فروة ليس الا . . مهما يكن فقد جمع الشاب الفروة الى صدره وبذلك اخفي ما كان مكشوفا ، وسأل بصوت منخفض :

ـ اين انـام . . ؟

ونهض نايف وعبد السلام عن حافة السرير الأيمن . . واشار نايف الى السرير :

ـ تعال نام هنا . . ارح نفسك جيدا . . سندبر لك بعض الأدوية من صيدلية الخبراء . .

اغمض شاهد عينيه وتظاهر بالنوم ، او لربما انه اغفـى بصدق . وتفرغ الحاضرون لشؤون اخرى وتكفل بشان اسطفان بتوزيع الشـاي . قال المساعـد :

ـ ولكن نريد ان نعرف كيف انتقل الى الضفة الجنوبية ؟ . .

واجاب اسطفان بانه لم يصل بعد في حديثه الى هذه النقطة .

قال الشرطي :

ـ كان يجب أن تسألوه عن هذا منذ البداية . .

وكأنه أراد أن يجمع مواد تقريره دون انتظار . وخرج نايف سعيد من الخيمة ليتنفس الهواء في الخارج . وحانت التفاتة من عايش الى وجه شاهد ، فخيل له أن الرجل يبصبص من تحت جفنيه ليرى الشرطيين يسألان اسئلة لا يعرف اجوبتها غيره . وفي لحظة من اللحظات سمعت خطوات ورطانه خارج الخيمة :

ــ خرشو .. خير .. بلوخا ..

يلفظ الروس حرف الخاء بشكل جيد ، ويقول بعض الدارسين أن هذا الحرف دخل اللغة الروسية اثناء الفتوحات العربية في فجر الاسلام . ويضيف بعضهم أن هناك بعض الكلمات ايضا مثل سبات وغيرها . أما كلمة شاي فيعتبر أن أصلها غير عربي لانها لم ترد في القرآن . ودخل الخيمة مطأطئا راسه النوتي الارميني يرانوسيان يصحبه نايف . تقدم النوتي بهامته الطويلة من شاهد ، ووضع يده على جبينه ، ثم جس نبضه .. قال نايف :

ــ هذا هو النوتي الذي نقل شاهد بقاربه من الضفة الشمالية .

وحدثت بين الحاضرين شبه انتفاضة ، وحملق الشرطيان عيونهما . وتهيأ المساعد للكتابة ، مخرجا دفتر المحاضر من محفظته التي ما برح يحتفظ بها منذ كان دركيا خيالا .

ــ أذن ترجم لنا يا رفيق نايف .

وابتسم نايف ببراءة :

ــ .. فيرنوسيان يتكلم العربية بطلاقة ، وهو يزور جديه في حلب كلما سنحت له الفرصة لذلك . لقد هرب جداه أثناء الثورة البلشفية ، ولكن أبويه رفضا الهرب كيلا يعتبرا لاجئين أو نازحين أو وافدين وما أشبه ذلك ..

قال المساعد :

ـ حسنا يا سيد بارانوسيان ..

وضحك النوتي معترضا

ـ لا .. لاسيد .. أنا غير سيد ..

وخجل المساعد :

ـ عفوا .. يا رفيق .. مليح .؟

وهز النوتي راسه ضاحكا من جديد :

ـ لاباس .. رفيق .. لاباس ..

وفجاة ساله اسطفان :

ـ السنت شيوعيا .؟..

ورفع النوتي يده ببراءة :

ـ مع الاسف .. لا .. لم اصبح شيوعيا بعد .

وهمس الشرطي في اذن رئيسه :

ـ انه آسف على ذلك فيما يبدو .

ورد المساعد بوقار :

ـ هذا الامر لا يعنينا .

والتفت الى النوتي :

ـ طيب احك لنا كيف انقذت العامل شاهد عبد الصمد الشاهد .

وخشي النوتي من لهجة المساعد ، ان يكون في موقف المحقق معه ، فاراد ان يكون الأمر رسميا كما تنص التعليمات التي يتلقاها المستخدمون في بلد اجنبية ، لذا .. وبكل طيبة ابدى اعتذاره عن الكلام ، مالم يكن حاضرا ما اسماه القومسير ..

ونبر المساعد في غيظ :

ــ وما هذا القومسير اذن .. ؟ :

وصحح نايف سعيد سؤال المساعد قائلا :

ــ يجب أن تقول من وليس ما يا مساعد ..

مرة ثانية لفظ الرتبة دون اي اعتبار ، مما جعل المساعد يشعر بالضآلة . واضاف المراقب نايف وهو يستخدم معلوماته في اللغة العربية :

ــ ان من تستخدم للعاقل وما لغير العاقل . والقومسير الذي حدثك النوتي عنه هو عاقل جدا .

واراد المساعد أن يظهر هيبته مهما يكن ، فنبر بصوت قاس :

ــ من هو اذن . ؟

وفي هذه المرة ــ وعلى غير توقع ــ صدر الصوت من هناك ، فدون أن يرفع رأسه قال شاهد :

ــ انه المسؤول الحزبي عن البعثة .

افاق اذن ، وسأله برنوسيان :

ــ كيف حالك الآن ياصديقي . !

وابتسم شاهد بما يشبه العرفان بالجميل ..

ــ انني بخير ..

قال نايف سعيد :

ــ نريد له دواء للرشح ... فهو يسعل ..

وسأل النوتي :

ــ هل هو يعطس .. ؟ !

ويبدو كانه يريد المداعبة ، عطس شاهد ثلاث عطسات متعاقبة ،بدا انها طبيعية جدا ، خالية من اي زيف . قال يرنوسيان :

ـ نعم .. سأحضر له بعض التابلتيكات عفوا .. الحبوب ..وزجاجة الشراب .

ونهض ليذهب ولكن المساعد استوقفه :

ـ الا يمكنك أن تقول لنا شيئا أو .. تحضر معك الكمسياري .!

وضحك الحاضرون ، ولكن النوتي اصغى باتـزان دون أن يدري سبب الضحك .

اما ضحكة شاهد النابية الخشنة المستنفزة ، فكانت مثيرة للعجب .

وعاد نايف سعيد الى التصحيح :

ـ قلنا لك القومسير .. وهو ليس قاطع تذاكر في الترامواي ..

ولم يخجل المساعد ، بل ضحك ببساطة ، وكانه يقول ماالفرق .؟.

كلاهما ينبغي له ان يحمل بوقا لينفخ فيه . غمز نايف سعيد صاحبه عبد السلام ليخرجا . فانسحب الاثنان بهدوء وفي الخارج قال حيدر :

ـ اظن انهما مثيران للاعصاب اليس كذلك ..؟.

قال نايف بمواربة :

ـ لا اعلم ..

قال عبد السلام داعما ظنه :

ـ كانني اراك ترتجف ...

وضحك نايف مؤكدا ..

ـ لا .. كن مطمئنا ..

ولكن عبد السلام افصح عن شكوكه وقال :

ـ سيخلو لرجلي الشرطة الجو ويزعجان شاهدا ..

وهز نايف راسه ..

ـ كن مطمئنا .. فالرجل اذا كان صاحيا سيجعل منهما مادة للتسلية .

ومشى الرجلان متجاورين باحثين مسألة غياب فواز ، وكونه ما زال حياكما افصح شاهد : ، ولكن اين هو اذن ؟ ثم فجأة انتقلا الى الاعمال والترتيبات والاجراءات المتخذة لترميم الاضرارالتي احدثها الفيضان ..

قال نايف سعيد :

ـ المسؤولون الكبار مجتمعون منذ صباح اليوم لتقرير بعض الشؤون الهامة ..

وقال عبد السلام :

ـ اظن بانهم انتهوا الى اتخاذ الطبقة مكانا لبناء السد .

وهز نايف سعيد راسه :

ـ نعم .. وسيبدؤون بحفر نفق المراقبة والتفتيش ..

وابدى عبد السلام شكوكه من أن آلات الحفر الكبيرة تتجه جنوبا وغربا ، فايد نايف شكوكه قائلا :

ـ نعم .. سيبدؤون بحفر اساسات المنازل . فسيشرع ببناء بيوت السكن في الوقت نفسه .

وشاهداعمالا ينظفون ملابسهم وينشرون بعضهـا في الشمس قال عبد السلام :

ـ طلب الي أن اجمعك بمهيار ، فهل انت مستعد الآن ..؟..

اجاب نايف :

ـ اي مهيـار منهما ..؟

قال حيدر :

ـ هنا بيت مهيار الاصفر ، مهيار خلوف العبد الله ..

ووافق نايف :

ـ حسنا .. استدعه لنجرب حظنا ..

وصاح حيـدر :

ـ مهيار .. اين مهيـار ..؟

واطل من الخيمة راس كبير منفوش الشعر . ولكنه يكلل وجها شابا . ان صاحبه لا يتجاوز السابعة والعشرين .. وسأل عبد السلام حيـدر مازحا .

ـ هذا هو .. فهل يدل منظره على انه هو الذي اغرق الفتاة ..؟..

ورد نايف ، ان المنظر لا يدل على شيء ، اطلب اليه ان يأتي .. وطلب عبد السلام حيدر المراقب من الشاب أن يرتدي ثيابه ويخرج . وبعد لحظات خرج الشاب وقد رجل شعره ، وتقدم من المراقبين مصافحا . ومد عبد السلام يده نحو زميله :

ـ هذا رفيقنا نايف يريد أن يتعرف بك ..

ورد الشاب باسر الوجه :

ـ اهلا وسهلا . . اني اعرفه . .

ومشى بينهما . وهمس حيدر في اذن زميله سأترك لك حرية الكلام دون أن اتدخل . . قال نايف سعيد ممهدا للحديث ، دون أن يخطر له أن يتخذ هيئة المحقق :

ـ ما رايك بهذا الفيضان ؟ . . .

ورد الشاب في جفاء :

ـ اجارنا الله مما هو اسوا . . مساكين أولئك الذين لا يتخذون الحيطة التي اتخذناها . . والله اعلم كم جرف من الناس وكم تسبب من اضرار . .

ودخل نايف بالموضوع مباشرة :

ـ كما جرف تلك المسكينة . . اليس كذلك ؟ . .

ورد الشاب دون أن يفاجأ :

ـ لا . . تلك الفتاة غرقت والنهر نائم . .

وسأل نايف وقد واتته بديهة محقق :

ـ ولماذا تظن انها قلعت ثيابها قبل أن تنتحر . . ؟

ورفع الشاب راسه لأول مرة ، وكأنه سمع ما يدعو للتنبه ، وسأل بنبرة جادة وصريحة :

ـ وهل تبين من التحقيق انها انتحرت انتحارا ! . . . ؟

سيراقب الآن انفعالاته . فان رد نعم فكيف يكون الارتياح واذا قال لا . . بل اغرقت اغراقا فكيف يكون القلق . ؟ الافضل ان يقول ان التحقيق

لم ينته بعد ،وهذا بدوره سيخلق حالة ما ، القلق على اية حال . ولكن مالبث المراقب ان سخر من نفسه ، انني اتصرف معه وكأنه الفاعل الحقيقي .وهذا خطأ . اذن .. قال نايف :

ـ الواقع ان التحقيق ما زال في مراحله الاولى ..

ثم راح يكذب :

ـ وقد استدعي ذوو الفتاة ..

قال الشاب بهدوء طبيعي جدا .

ـ وهل وجدوا .؟

ورد نايف بعصبية ظاهرة :

ـ كيف اذن هل هناك انسان خلق من حجر ..؟

قال الشاب بلا حماس :

ـ ولكنني سمعت بأن أحدا لم يتقدم للبحث عنها ..

وتمادى نايف في اختراع الحيل :

ـ هذه خطة افتعلها المحققون للكشف عن الفاعل ..

وفجأة طرح مهيار سؤلا ذا أهمية :

ـ اذن لم يكن أهلها هم الفاعلون ..؟.

وابدى نايف دهشة تكاد تكون طبيعية . وسأل بجد :

ـ ومن يقول هذا الهراء ! هل رجع الناس الى العهد القديم وأخذوا يئدون بناتهم بالماء والرمل ..؟.

واحرج الشاب قليلا وتنهد . لماذا يتنهد ..؟ . هكذا سأل نايف نفسه ..

وعلى كل حال فما من قوة في الدنيا تستطيع اقناعي بان هذا الشاب الغر يرتكب جريمة . تنهد ياصديقي ماشئت ، فلن تكون آثما اومجرما ... هل كان نايف سعيد طيب القلب ، أم انه يؤمن بالانسان ، ابن بلاده بصورة خاصة ! ان مهيارا شاب كادح ، والكادحون لا يرتكبون الجرائم . بهذا اقنع نايف سعيد نفسه ، ضاربا عرض الحائط بكل حوادث الجريمة التي يقرؤها في الصحف : « هذا يحدث في البلاد التي اضاع ابناؤها الهدف لسوء الحكم الذي يرزحون تحت نيره ، اما في البلدان الناشئة التي عرفت طريقها وسلكته لتتخلص من غيبوبتها الطويلة فهذا لن يحدث ابدا ..

وكان المراقب نايف سعيد يؤمن بدور الطبقة العاملة في بناء المستقبل، لذا تخلى فجأة عن دور شرلوك هولمز ، وصافح العامل الصغير مهيار خلوف العبد الله ، ملفتا نظره الى أن الحديث لم يكن مقصودا اومهيا ، بل كان وليد لحظته ليس الا . واقتنع الشاب بهذا التعليل ، ومضى يرفع ملابسه المبتلة عن الحبال .

رجع المراقبان الى خيمة الشعر ليتفقدا الوضع الذي خلفاه عابقا ، فألفيا ان رجلي الشرطة يتهيآن لمغادرة المكان ، وعرفا بأن بوانوسيان قد جلب الى شاهد بعض الحبوب والشراب المضاد للرشح ، وأن شاهدا تناول منها ما يكفي ، وقد كان الشاب يرتدي ملابسه التي لم تجف بعد وهو يقول :

ــ متى كان الرشح يدفن المرء في الفراش . ؟

اما الشرطيان فقد يئسا من ايجاد الطريقة لاملاء صفحتهما باي تقرير . غير انهما حصلا على وعد من الحاضرين، بأن شاهدا سيكون جاهزا للادلاء بالمعلومات التي يطلبانها حال استرداده صحته بشكل جيد ..

وسأل نايف :

ـ اذن فيرانسوان هو الذي انقذك يا شاهد !

اجاب شاهد مازحا :

ـ انقذ كل منا الآخر ..

وهتف الجميع معا :

ـ وكيف ..؟..

رد شاهد وهو يربط نطاقه :

ـ كا نزورقه البخاري معطلا على الشاطىء الشمالي ..

قال عايش .

ـ قبل ان تلتقيا أم بعد ذلك ؟ .

وفكر شاهد برهة قبل ان يجيب :

ـ لا اعلـم

والواقع ان السؤال كان محرجا ، اما الاجابة فكانت أشد احراجا . ويمكن الاستغناء عنهما بكل بساطة لأنهما لا يقدمان ولا يؤخران بالأمـر شيئا . هذا ما يبدو لاول وهلة ، غير ان عايش كما يحكم عليه زملاؤه لـم يكن غبيا ، انه حالم ، ويتورط في بعض المشاكل السهلة ، كركوب السيارة ولكن في الأمور الجدلية ، فهو واع ويتمتع بمقدرة طيبة في طرح الاسئلة والاجابة عليها . ولكن الحضور لم يحاولـوا استخلاص اي حقيقـة من سؤاله ، وزاد في قناعتهم جواب شاهد : لا اعلم ، وكانت اجابته مشـيرة للتفكه . ولكن من الواضح أن شاهدا نفسه كان يشاركهم الحكم على سؤال عايش قبل ام بعد . وتدخل بشارة اسطفان ليعيد الأمور الـى نصابها ؛ وشمر عن ساعديه وقرفص ممثلا الوضع من خياله :

ـ هنا كان يجلس شاهد منتظرا معجزة السماء . وتدخل شاهد ليصحح الخطأ .

ـ لا . . لم أكن جالسا . .

وسأل جمعة السالم :

ـ كيف كنت اذن . . . ؟ . .

ـ كنت واقفا ارقب فواز وهو يبتعد . .

وصرخ الجميع :

ـ في الماء . .

هدأهم شاهد بحركة من ساعديه :

ـ انتظروا . . لا . . ليس في الماء بل في التربة . .

وراح يشرح لهم الوضع بحذافيره .

كان فواز يريد الهرب ليقضي عطلة العيد في جهة ما ، وعلى الاغلب في القرية . فاصطنع فرصة السقوط في الماء ليجعل شاهد يكف عن ملاحقته وفعلا تركه شاهد وخرج من النهر . وانتظر لحظة وابتعد موحيا اليه انه لا يراقبه ، وانه ترك أمر التشبث به ومطاردته .

ـ والى اين كان يتجه . . . ؟ . .

ورد شاهد :

ـ في البداية اتجه شمالا ، ثم انحرف غربا . .

وقال جمعة :

ـ نحو النهر مرة ثانية . .

ـ نعم .. ولكن النهر في تلك المنطقة كان منتشرا قليل العمق ، وكان قريبا من جعبر ..

ـ لا شك بأنه ذهب الى المطران ..

وفي تلك اللحظة شوهد يرانوسيان مع طبيب الخبراء يحمل حقيبته ويقتربان . وكانت تقترب معهما ضجة كبيرة ، ولكن من الجهة الجنوبية ، حيث كان رواق الخيمة منسدلا فلا يرى ما وراءه ، دخل الطبيب والنوتي من الجهة المفتوحة في الحين الذي رفع فيه الرواق من الجهة الثانية .

ـ السلام عليكم .

هتف القادمان ، في حين اطل من الجانب الآخر المهندس المعماري مروان عبد الاله :

ـ يعطيكم العافية .

وأصدر تعليماته فورا ..

ـ ازيحوا هذه الخيمة من هنا . فمكانها موجود في المخطط سنبدأ الحفر هنا ..

......

عند وصول فواز هلال من قضاء عيده ، لم يبحث عن دليل عن خيمته المفقودة ، فهي الوحيدة بين الخيام ذات الشكل المستطيل واللون الاسود ، اما مكانها فقد الفي ا نالدنيا قد تبدلت راسا على عقب ، حفرة مربعة وعميقة ، تصلح لتكون مربضا لخمسة مدافع ثقيلة مع سدنتها ،هذا

ما خطر له ، وكان قد ادى خدمته العسكرية في كتيبة المدفعية الحادية عشرة في بلدة ازرع . اذن سيباشرون ببناء بيوت للسكن ، لن يكون الامر سيئا ، على كل حال ، فسأظل مع عايش وضيف الله واسطفان ، وسنسكن في بيت من حجر .

أول من استقبله في دهشة واحتفال عمال الورشة السادسة، هاهو ذا فواز لقد خلق حيا . . وتراكض رجال الورشة من حوله يشدونه بقساوة . دون أن يفلح في ايجاد وسيلة لابعادهم .

ها هو ذا ، انه يفوح بالعطر .

وبدات اشارات البنان تنصب عليه . حلق ذقنه ، يرتدي سترة جديدة . وحذاء مسكفا . ماذا يحمل ؟ ارنا ما هذا . ! هي هي . . وبدات الاصوات تتصاعد اكثر . . زجاجة عرق . . مرحى . . مرحى ستحتفل اذن بعيد ميلادك ، هاتوا ماء وكؤوسا . وكان الرجال قد عادوا لتوهم من حفر خندق التفتيش ، انه خندق طويل جدا ، طوله اكثر من ثلاثة آلاف متر . وهرع زملاؤه من بعيد ، فواز . . فواز ، ايها المحارب الآبق . . وانقض عليه ضيف الله يشبعه باللثم . اما عايش فقد تناول من يده اكياس الورق وسأل أسطفان بلا روية :

ـ الم تحضر معك مازات . ؟ . .

وحين هدأ الجو قليلا ، وصل المراقب نايف سعيد دون انتظار .

ـ هنا . . ها انت ذا اذن . .

وسأل ضيف الله متوعدا .

ـ كم يوما خصم من الراتب هذه المرة . ؟ . .

ولكي يضيع الفرصة على المعلم لفرض أيــة عقوبة ، أدلــى بالخبر المشتت للاذهان واحيا ما كاد ان يصبح قصة قديمة ، او لغز ليـــس له من حــل .

ـ سينبشون قبر الفريقة ويخرجونها . . ليعرفوا ما اذا كانت عذراء . . ام . . ام . . واختلطت عليه تسمية العكس . . .

ـ البرقية تقول أم ثيب فهل معنى ثيب أن غشاءها قد ثقب . !

ولم يجبه احد ، لأن الاجفان كانت تطرف بعصبية . قال نايف بتمهل

ـ عن اية برقية تتحدث . . . !

. . . . . .

ـ برقية وردت من قصر العدل أو وزارة الداخلية لا اعلم ، تطلب من المحافظ ان يعلم المحققين ما اذا كانت الفريقة عذراء ام ثيّبا ، هذا كل ما في الأمــر . .

وكان هذا الخبر كافيا لان يجعل موضوع فــواز موضوعا ثانويــا . ولكن الرجل وجد في هذا استهانة بشأنه ، فقد أعلن لرفاقه الاقربين بأنــه قضى عطلة العيد في القرية . الــى جانب حبيبته اناهيد . وانه قد خطبها رسميا من أهلها ، ولم تبق اناقته ورائحتــه سرا . . . أما السر العجيب الذي اذيع في اليوم التالي : ان قبر الفريقة قد نبش فعلا بحضور جمع من الناس ذوي الرتب والألقاب ، وبحضور قابلة قانونية وطبيب شرعي . . ولكنهم . . لم يجدوا للفريقة اي اثــر .

٨

راح فواز هلال يعالج نفخ عجلة دراجته . فهو مكلف بملاقاة انطونينو عام الآثار . انه اليوم عالم آثار وليس رساما ، فهو مكلف بالقاء محاضرة . وهذه المحاضرة مقررة منذ ثلاثة اشهر في برنامج المحاضرات . وكان ينبغي لضيف الله الشاعر أن يرافقه ، ولكن هذا كا غاضبا لأنه اشتبك مع المراقب نايف سعيد . فقد نبهه الى أن لا يسيء الى جو المحاضرة بالقاء خطابات وكلمات فارغة . وكان ما أغضبه دون غيره هو عبارة الكلمات الفارغة وكان يهيء قصيدة يكون مطلعها :

آثارنا آثار مجد غابر

تمتد عبر الأمس حتى الحاضر

وعرض بشار اسطفان على فواز أن يرافقه . ولكن فوازا رفض ،لأنه لن يسمح بابدال غزاله بثور ؛ وهذا المثل لم يغظ اسطفان بل جعله مرحا ، وخلق لديه جوا لالقاء النكت .

سأل فوازا :

ــ هل تعرف يا فواز ما الفرق بين الدراجة والمرأة . . ؟

اجاب فواز على الفور .

ــ نعم . .

واسقط في يد بشارة ، ولكنه لم يقنط . فرد :

ــ طيب . ماهو الفرق !

قال فواز وهو لا يعرف الفرق ابدا . ولكن بديهته لا تخونه في احلك الاوقات .

ـ الفرق بينهما هو أن الدراجـة تقودهـا بسهولة والمـراة تقودك بسهولة .

وحملق اسطفان عينيه دهشا .. هذه حكمة وليست نكتة ، ولكنه شاء الا يبدو مهزوما . فقال :

ـ لا .. قد يكون تعريفك للفرق بين المراة والدراجة لا يخلو مـن الحقيقة ولكنه لا يعتبر فرقا متماذجا عضويا .

قال فواز ساخرا :

ـ انك تخترع الكلمات بلا مناسبة . قل لي اذن ما هو الفرق بنظرك.

قال بشارة وهو يشذب شاربيه ويبلع ريقه في شهية :

الفرق هو موضوع جنسي مائة بالمائة ...

وتمثلت بخاطر فواز اناهيد بقامتها الطويلة ، وجسدها الشهي . فقال فورا ، وقد بدا متسرعا ليعرف الفرق ..

ـ قل اذن ما هو ؟ ..

قال اسطفان بجد دون أن يهيء حاله للضحك .

ـ الفرق ياصاحبي هو أن الدراجة تنفخها ثم تركبها ، أما المـراة فانك تركبها ثم تنفخها ..

وضحك ، منتظرا أن تسري عدوى الضحك لفواز : ولكن فواز لم يضحك أبدا . ومن العجيب انه بدا متأملا ، وكأنه أمام معادلة رياضيـة صعبة . والواقع انه لم يكن متأملا لسبب بعيد، فقد كان يهيء نكتة مماثلة. وأراد أن يمتحن زميله بدوره فسأله :

ـ طيب . هل تعرف انت الفرق بين الزجاجة والمراة ؟

وبدوره اسعفه الرد ، دون أن يعرف ما سيقوله فواز . فقال :

ــ نعم الزجاجة تسكرك عندما تشربها والمرأة تسكرك عندما تشمها .

واعترض فواز على هذا الرد، وكما علق اسطفان فيالبداية قال فواز:

ــ هذا رد لايخلو من حقيقة ولكنه لا يعتبر .. ماذا قلت أنت .. ؟

م ت م ازجاج ضو ..

قال اسطفان :

ــ ما هو اذن .. ؟

وهنا ضحك فواز وقال :

ــ الفرق هو أن الزجاجة تملؤها ثم تسدها وأما المرأة فتسدها ثم تملأها ..

وضحك الاثنان لصحة هذا الفرق العظيم كما أسماه بشارة اسطفان ..

وسالت قريحة فواز فسأل صاحبه :

ــ هل تعرف قصة الخوري عندما زار الياس .. ؟ ..

قال اسطفان :

ــ ماهي .. ؟ ...

وحكى فواز القصة باختصار :

ــ ماتت زوجة الياس فجاء الخوري لمواساته . وسأل في الحارة عن بيت الياس ، فدلوه على بيت الياس . فدخل حزينا وقال له لا تحزن يابني .. وراح يرتل له آيات من كلمات الرب . ولكن الياس رد بلا حزن : انني لست حزينا يا أبتي ، فهذا شيء لا قيمة له انها عتيقة ، وأصبحت

بالية لفرط الاستعمال .. ودهش الخوري لهذه الاجابة الخالية من الأدب ومن احترام الاموات . فقال له : لا يا بني لا .. لاتتكلم هكـذا عـن .. وقاطعه الياس : لا يا ابتي .. فقد ضجرت منها ، كان يسرقها الشبـاب وثلاث مرات وجدتها معاجير الفران . واستاء الأب : اذا ما كان يقولـه الياس صحيحا فيالضياعالوصايا والصلوات .. ؛ وعاد الى تعزيته وقال : وعلى كل حال يابني فان الرب في سمائه يقول .. ولكن الياس قاطعه من جديد : يا ابتي ان القضية ليست ذات اهمية فسأحصل على غيرها في كل لحظة . وجحظت عينا الخوري وكاد يفقد سيطرته على نفسه و ..

وصاح اسطفان وانا ايضا فقدت سيطرتي على نفسي . قل لي ماهي القصة ؛ ماتت زوجة الياس فكيف يتحدث عنها هكذا .. ؟

ورد فواز برصانة :

ــ لقد اخطأ الخوري فلم يدخل دار الياس الذي ماتت زوجته . !

قال اسطفان :

ــ واين دخل اذن .. ؟ .

ورد فواز :

ــ دله الناس على بيت الياس الذي فقد دراجته .

. . . .

« لقد طرح بناء سد الطبقة الكبير على الفرات ، مرة جديدة مشكلة التوفيق بين المصالح الاقتصادية لبلد يطمح عن حق الى التنمية ، وبين واجب المحافظة على تراث ثقافي يهم العالم كما يهم شعب البلد نفسه » .

كان انطونينو قد وصل في الوقت المحدد ، وقبـــل ان يذهب فواز لملاقاته ، واقتيد فورا الى براكة المحاضرات ، واعتلـى المنبر المنخفض وبدأ محاضرته ، وضيف الله الشاعر ظل غاضبا فلم يحضر ، ولـكن حضرها بالاضافة الى العمال بعض المهندسين ، وبعض الخبراء المهتمين بشؤون الآثار . وفي هذه المرة ايضا امسك الكسندر بورقة وقلم وجلس الى جانب نايف سعيد . ولم يكن قد حصل على قاموس بعد .

« ان البحـيرة الناتجة عن السـد سيبلغ طولها ثمانين كيلـو مترا ومتوسط عرضها ثماني كيلو مترا ومتوسط عرضها ثماني كيلو مترات .

وستغطي مساحـة قدرهـا ستمائة وثلاثين كيلـو مترا مربعا ، وستغمر منطقة يوجد فيها الكثير من المواقع الأثرية ، والعديد من الآوابد التاريخية الشـاهدة علـى مختلف الحضارات التي تتابعتما بـين البحر الابيض المتوسط وبين بلاد مابين النهرين » .

وقبل ان يسأل الكسـندر همس نايف في اذنه :

ـ أوابد . . تعني القديم وتأتي من الابد والابدية .

واعترض الكسندر :

ولكن الابد والأبدية تعنيان المستقبل . .

واحرج نايف فلم يدر بماذا يجب .

« ولما طلبت حكومـة الجمهورية العربية السورية الـى اليونسكو مساعدتها في انقاذ هذه الآثار ، اوفدت المنظمة بادىء الامر خبراء من المعهد الجغرافي الوطني الفرنسي الى المنطقة المهددة بحيث اجروا مصورات

فوتوغرافية مفصلة للمواقــع والمباني التـي يجب انقاذها ، ثـم كلفت اليونسكو مهندسا مختصا بنقل الابنية التاريخية ، ووضع مشروع نقل وترميم مأذنتي ابو هريرة ومسكنة ولتدعيم قلعة جعبر السلجوقية » .

كان انطونينو يتحدث عن الآثار ، ولكن عقله الباطني ظـل يتحدث بالرسم : انا ارسم لأن لدي الدافع والرغبة والهواية .. واعتقد ان العمل الفني سواء اكان في الرسم أو النحت ، يمكن ان يكون عملية ترجمة وتعبير عن الطبيعة والاحسـاس ، وليس عملية منافسـة وسباق لخلق شيء افضل من الطبيعة .

« لقد اكدت الحفريات الأثرية التي قامت بهـا البعثات الوطنيـة والأجنبية في حوض الفرات ، عراقة هذه الارض وغزارة التراث الحضاري فيها ، ولعل نتائج هـذه الحفريات كانت مفاجأة وثورة علـى الاعراف التاريخية التي كانت سائدة ..؟ »

كان كل من الحاضرين يتيه في خواطره الخاصة ، نظرا لان موضوع الآثار ليس فقط موضوعا لا يهم الناس بصورة مباشرة بل لأن الاحداث الجارية في تلك الآونة كانت تدعو افكار الحاضرين الى التشتت ، فقد بدىء ببناء المسـاكن ، وفي الوقت نفسه شرع بتمديد حلقات النفق البيتونيـة المسبقة الصنع ذات القطر الكبير البالغ ثلاثة امتار .

قال عايش :

ـ لا افهم .. هل سنبني تحت الارض أم فوق الارض ..؟

ورد عليه المراقب نايف :

ـ سنبني تحت الارض وفوقها .. سنقلب الطبيعة رأسا على عقب.

وعرف العمال أن ما يقومون بعمله مع الرافعات والجرارات ـ بعد ان انتهت الكراكات الكهربائية من حفر خندق الكتامة ـ هو تحديد نفق طويل يسمح بمرور سيارة متوسطة الحجم ، وغاية هذا النفق هو المراقبة والتفتيش :

ـ التفتيش لماذا ... ؟ .

ومراقبة اي شيء بحق الشيطان .. ويجيب المراقبون بهوادة ،

ـ التفتيش عن الماء الهارب ، ومراقبة الرشح المتساقط من الاعلى .

وسأل جمعة وكان لا يسأل غير الاسئلة الجوهرية :

ـ لكن المعروف في كل المجالات أن التفتيش والمراقبة يوجدان بعد وجود الكيان لا قبل وجوده .. فالامن وجهاز المخابرات لا يوجدان الا بعد وجود الدولة ليحافظ على أمنها ... ؟

ويرد المراقبون والمهندسون :

ـ في حالة السد الوضع يختلف . توجد المراقبة واجهزة التفتيش قبل أن يبنى السد ليراقبا من أسفل لا من الاعلى ..

......

« فلقد اكتشفت آثار منشآت معمارية ترجع الى الالف التاسع ، اي بعد مرحلة اخيرة من العصر الميزوليني .

ولقد عثر في هذا الموقع على تماثيل لآله الخصب ، وهي تعتبر أقدم ما عثر عليه حتى الآن ، مما يفوق في القدم ما وجد في اية منطقة أخرى ... »

حين البدء باملاء الحفر لاساسات البناء استنفر بعض العمال للمساعدة في العمل وفي صب البيتون ومزج الخرسانة ، وكان ضيف الله من جملة

المستنفرين لهذا العمل . وقد واتته القريحة ، خاصة وانه وجد نفسه في قطاع جديد من العمل . وامام هدير الخلاطة الخرسانية لم يضع صوته صوته في الضجيج ، بل راح يرتفع منشدا :

عالمنا في ثورة تغمرها
دوامة ضجيجها لا ينقطع
فمن هناك وهنا وها هنا
ترى بناء رائعا سيرتفع
ايدي الرجال الكادحين تعدّها
رملا واسمنتا وبحصا مجتمع
النهر ضخم سادر في جريه
سيفتني وينتشي ويتسع

ولحن الاغنية اسطفان على وزن الموشحات ، فصارت تغنيها المجموعة وهي تنقل الخرسانة في السطول الى بناء الاساسات . وصاح فواز في بلاغة :

ـ سنسمي بلدتنا وحدة .. فالوحدة هي امل الجماهير .

وقال جمعة :

ـ بل سنسميها حرية .. فالحرية هي امل الجماهير ..

وساهم شاهد لأول مرة :

ـ بل سنسميها اشتراكية فالاشتراكية هي امل الجماهير .

وتهيأ المراقب نايف سعيد ، ولم يغب عن ذهنه قصة اختفاء البنت الغريقة .

ـ اطمئنوا ايها الرفاق ستحقق امنياتكم جميعا . وسيكون اسم البلدة .. ولن تكون بلدة صغيرة ، بل ستكون مدينة .. وسيكون اسمها جامعا لهذه الشعارات الثلاثة الوحدة والحرية والاشتراكية ..(١)

وهلل العمال وصفقوا .. ثم رفعوا سطولهم من جديد .

« لقد تضافرت جهود كبيرة تتمتع بمستوى عال من الكفاءة العلمية الاثرية للكشف عن آثار الحضارة القديمة ، في منطقة لم يسبق أن جرى فيها تنقيب ما . ولقد سبق ورافق هذه العمليات مسح دقيق لجميع المناطق الأثرية التي سجلت في باب الاسرار والمفاجأة العالمية التي لم يكن يحسب لها اي حساب . »

كان أنطونينو يتحدث وعقله شارد في لوحاته والوانه : اول وهلة ادركت فيها اللون عن وعي عندما كنت الوّن البطة باللون الرمادي وانا على مقعد الدراسة ، ثم انا ارسم لاحقق شيئا من وجودي ، لان الرسم يستوعب ما أدركه الانسان من الطبيعة ، فيسخره للكشف عن ملكته واحساسه .. والآن هذا الرسام يلقي محاضرة في الآثار :

« لقد كانت حصيلة الكشوف الأثرية التي اجرتها سبع عشرة بعثة علمية ، وطنية واجنبية في التلال في منطقة الغمر ، هامة ووفيرة جدا . ومع أن اغراض التنقيب الأثري هي غير أغراض انقاذ الآثار المعرضة للغمر ، فان عمليات التنقيب قد ادت الى انقاذ اعداد ضخمة من الشواهد التاريخية ، التي كانت ستغيب الى الابد بفعل تجمع مياه السد ... »

---

(١) سميت المدينة (الثورة) .

انني ارسم لاحقق شيئا في وجودي . وقد ادركت ان لزرقة السماء تأثيرا كبيرا في خلق جو الرسم . فالفنان هو الذي يعطي شيئا يضاهي به الطبيعة .

« لقد أولت منظمة اليونسكو اهتماما لمشروع انقاذ آثار حوض الفرات ، بعد أن تفهمت جيدا الدور الحيوي الهام الذي تعلقه البلاد على سد الفرات في تطوير الاقتصاد والمجتمع السوري ، فأوفدت الخبراء وقدمت عددا من الآليات للمساهمة في عمليات الآثار المعرضة للغمر . »

كان المهندسون في المحاضرة شاردين وراء اعمالهم . اما عبد السلام حيدر فقد عاد الى كراساته : حفريات تربة طرية مليونا متر مكعب ، وردميات غضارية ، بالتجريف بيتون مسلح ... اما المهندس الكهربائي سليمان سلطاني فكان يفكر : انتهى صراعنا مع الفيضان ليبدأ صراع آخر مع تأمين الطاقة الكهربائية . حيث اننا متاخرون في انشاء خط نقل القدرة ذي التوتر العالي بين حلب والطبقة وانشاء محطتي التحويل في الشيخ سعيد والطبقة .

« لقد قامت عمليات الانقاذ علىجهود الخبراء الوطنيين الذين وضعوا الدراسات الدقيقة ، واشرفوا على تنفيذها باخلاص ودقة . مما اثار اعجاب جميعالخبراء العالميين في كل مرة اتيحت لهم زيارة مواقع العمل » .

اخذ اللون من شروق الشمس وغروبها ، والوان البسة الفتيات التي تعانق الالوان وتنبع من الوجدان . ويمكن رسم الطبيعة بالخط ولكن لا يمكن استيعاب مضمونها بغير اللون .

« ولا بد من الاشادة بصورة خاصة بأعمال المسح التي قامت بها

مديرية المباني الأثرية واعمال التنقيب التي تولتها مديرية التنقيب . كما لابد من الاشادة بالدراسات والاعمال التنفيذية التي قامت بها مديرية الهندسة والورشات التابعة لها . وبالجهود الادارية والفنية الفعالة التي اتي قامت بها مديرية آثار المنطقة الشمالية . »

وكان المهندس غياث حسام الدين يفكر بمساحة الانشاءات . وبمعمل البيتون الصغير ومعمل فرز البحص وبمحطة الديزل ، وباستثمار قاعدة التركيب المائي ، وبرافعة حلقات نفق المراقبة والتفتيش المسبقة الصنع .

« أن مراحل حملة انقاذ آثار الفرات تمر بثلاث مراحل اولها :

مرحلة التصوير الجوي المجسم والمسطح الطبوغرافي بمختلف المقاييس . وقد قامت المؤسسة العامة بتغطية جوية وطبوغرافية جيدة للاوابد والمواقع الاثرية، وقدمتها مشكورة للمديرية العامةللآثار والمتاحف»

ان الرسم الخطي يعطي الهيكل العظمي ، ولكن الطبيعة تبقى الأقوى والأجمل ، ولا يمكننا استيعابها بأيخط ، هناك اللون الاحمر ومشتقاته ، وهناك اللون الترابي ومشتقاته ، وهذان اللونان يعطيان لون الطبيعة .

« وفي المرحلة التي امتدت خمس سنوات ، تمت عمليات تنقيب فعلية في كل التلال المحيطة بمنطقة لفرات ، كما تم المسح الفوتوغرامتري للاوابد التي سوف تنقل او ترمم أو تصان . وجرت أيضا دراسات هندسية وتقنية واثرية تتعلق بنقل مئذنة مسكنة ومئذنة ابي هريرة الى مكان أعلى . ثم ترميم قلعة جعبر وانشاء جدار حماية لها . وتقوم مؤسسةسد الفرات بهذه الاعمال مشكورة . »

وتذكر المراقب نايف سعيد بأنهسيرافقزمرة منالعمال الى قلعةجعبر

للعمل في سد الحماية ، ثم تذكر أن فوازا حين غاب التجأ الى قلعة جعبر ، ولا شك ان هذا المحاضر قد ساعده الى الوصول الى القرية . وسيتخلى به لسؤاله عن ذلك بعد انتهاء المحاضرة .

« كما تجري الدراسات الجيولوجية والطبوغرافية التي تتعلق بمستقبل جزيرة جعبر وحمايتها . وقد قامت بهذه الدراسات المؤسسة العامة لسد الفرات ، واسهمت ببعضها جامعة دمشق . ومن أهم ما صدر بهذه المرحلة ، اصدار مرسوم خاص بتشجيع البعثات الاثرية الاجنبية على التنقيب في المنطقة ، وذلك باعطائها بعض الآثار المكتشفة واعطاء كل التسهيلات المتاحة لانجاز مهمتها . » .

كان فواز هلال ينظر في وجه المحاضر ويتساءل : ترى الا يحلم الآن بفتاة يرسمها عارية ؟ ان دلائله لا تنبيء عن ذلك فهو منهمك بالقراءة وليس الا .. ولكن شرد فكره فجأة لقريحة ضيف الله التي فاضت كالنهر اثناء العمل في الاساس بالمساكن . وقال ان زوجته المقبلة شمسة لن تسكن في البيوت الاسمنتية ، مستشهدا بقول « ميسون » زوجة معاوية :

لبيت تخفق الارياح فيه
أحب الي من قصر منيف

ولما سئل ما اذا كان سيجعل زوجته ترتدي الفستان والتنورة أجاب أيضا بأنها ستقول :

ولبس عباءة وتقر عيني

ولم يتذكر الشطر الثاني من البيت : انه افضل لديها من لبس الخز والحرير .

« وانجزت مديرية الهندسة في المديرية العامة للآثار والمتاحف، تقطيع مئذنة ابي هريرة وفق المشروع العربي السوري وبكل نجاح ، ويعاد بناؤها حاليا في ضاحية الطبقة . كما وانجزت تقطيع مئذنة مسكنة ونقلها وترميمها بأجزاء هامة من قلعة جعبر ، وانشاء نواة متحف فيها باعادة تركيب مدفن عناب السفينة الرائع ، الذي كشفته بعثة مديرية التنقيب والدراسات على الضفة اليسرى من الفرات . »

وكان المهندس رضوان الشيخ رضوان يفكر أثناء المحاضرة : ان المعمل يسير الآن بسرعة كبيرة في تسهيلات البيتون ومعمل فرز البحص ، ومن المتوقع أن يباشر ببناء المحطة الكهربائية خلال اشهر قليلة .

« وفضلا عن تسهيل مهمة البعثات الوافدة وتأمين عملها وارفاقها بالممثلين الوطنيين والاسهام بشتى الطرق في نجاح الحملة ، قامت المديرية العامة للآثار بأعمال تنقيب وسبر في عدد من المواقع ، خاصة على الضفة الشمالية . وكان لابد للبعثات الوطنية من أن تغطي العمل في هذه الجهة ، لان أكثر البعثات الاجنبية فضلت العمل على الضفة الجنوبية او الضفة الشامية كما تسمونها انتم « وذلك لاعتبارات تتعلق بشهرتها وكثرة دلالاتها وسهولة المواصلات بينها وبين مراكز المؤن . »

وتذكر فواز هلال أيضا الاشعار الجديدة التي راح ينشدها ضيف الله . وقد أذهل الثيرين حين راح ينظم شعرا من الموجة الجديدة :

مستقبل الانسان كان
في عالم النسيان
مستقبل الانسان الآن
بيد الانسان ...

وقد انتزع التصفيق من ايدي العمال الذين عادوا لحمل سطول الخرسانة ونقلها الى ورشات البناء . كان الشاعر هذا اليوم متنشطا ومبدعا،ولكن المراقب نايف سعيد نزع مزاجه فيآخر لحظة، وجعله يصمت ويركن الى الهدوء ولا يحضر هذه المحاضرة .

« وقد خصصت البعثات الوطنية عملا مجديا في تل اللبن وعناب السفينة ودبسالفرح وتل الشيخ وقلعة جعبر، وقد تركز عملها هذه الآونة على قلعة جعبر ، المهددة بالغمر ببحيرة السد » .

وكان المهندس المعماري رضوان يفكر : ان تطور الاحياء السكنية لا يساير تطور العمل في مشروع سد الفرات . فقد كان من المفروض ان تنتهي ثلاثة أحياء قبل الآن بشهرين . بينما لا تزال في بداية العمل .

« وهذه المراحل من حملة انقاذ آثار الفرات المعرضة للغمر ، تنتهي باقامة معرض هام لمكتشفات وانجازات الحملة . وهذا المعرض يبين نتائج الاعمال الهامة التي ساهم فيها مشروع سد الفرات مساهمة فعالة على صعيد الكشف الأثري والتعاون الدولي لانقاذ التراث الانساني . »

ان المطران الرسام وعالم الآثار يتكلم بلسانه فقط ، انه يبذل بعض الجهد لسبب ما ، قد يكون عدم المامه بالقراءة العربية ، ولكنه يقرأ باللغة العربية على كل حال . وقد تصدر عنه بين الحين والآخر ، بعض الكلمات الركيكة أو المفككة ، أو يلفظها باللغة الدارجة ، وهو معذور على اية حال لأنه بالدرجة الاولى مستشرق وليس عربيا . وهو الآن يفكر :

ان التعبير عن الجمال يكون ببساطة دون تصنع ، والرسم يحيي الذكريات ويستوعب اطبيعة . وان اهم ما في الطبيعة هو سيمفونية اللون.

« ومع فكرة اقامة سد الفرات في موقع الطبقة ،نشأت فكرة انقاذ الاوابد الاثرية التي ستغمرها مياه البحيرة أو التي ستتأثر بالمناخ الجديد، الذي سيظهر نتيجة تشكل البحيرة . وجاءت افكار متعددة لانقاذ هذه الآثار . الا ان مديرية الهندسة في المديرية العامة للآثار والمتاحف قد أخذت على عاتقها هذه الأوابد . »

كان على فواز هلال أن يلتحق بمعهد الاعداد المهني في حلب ، وهو يفكر الآن بمغادرة جو المحاضرة لتهيئة أمتعته . سيغيب في حلب ثلاثة أشهر يتخصص فيها باللحم الاوكسجيني . وهناك سينخطف جنوبا بزيارة أهله. ولكن اناهيد ستظل شاغلة باله . وهيأ نفسه لمغادرة المكان ، مراقبا نايف فيما اذا كان يلحظه .

« بعد امتلاء البحيرة المشكلة من سد الفرات حتى المنسوب ثلاثمائة عن سطح البحر ، ستصبح قلعة جعبر جزيرة كاملة ، تبعد عن جسم السد حوالي عشرة كيلو مترات باتجاه الغرب في حين لا تبعد عن الضفة الشمالية للبحيرة غير مائة متر فقط . ويمكن انشاء طريق بري يصل الى هذه الجزيرة ولكن أناهيد ستظل شاغلة باله . وهيأ نفسه لمغادرة المكان ، مراقبا نايف سعيد فيما اذا كان يلحظه

في هذه اللحظة دخل قاعة المحاضرة رجلا شرطة مسلحان ، هما المساعد السابق مع شرطي جديد . تطلعا في الحاضرين لحظة ، ثم جلسا على كرسيين خلفيين . ولمحهما فواز ، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم. لقد اغلقا دونه باب الهرب ..

« وتقوم قلعة جعبر فوق هضبة من الحوار والدولوميت تصل قمتها

الى حوالي ثلاثمائة وخمسين مترا فوق سطح البحر . وقد اثرت العوامل الجوية ورطوبة النهر والرياح الصحراوية على الحواف الحوارية لهــذه الهضبة ، حتى أصبح منظرها كالفطر ، وبدت الابراج والاسوار الخارجية للقلعة ، وكأنها معلقة فوق عتبة كلسية . »

همس المساعد في اذن الشرطي :

ـ ينبغي له أن يكون هنا . اليس كذلك . . ؟

ورد الشرطي :

ـ طبعا . .

طبعا فيجب العثور عليه لاستنطاقه، فلم يزر القريةغيره منذ ثلاثةأيام قبل اختفاء الجثة ، وذلك بشهادة الجميع . . . قلت ان اسمه فواز هلال اليس كذلك ياسيدي . ؟

ورد المساعد :

ـ نعم . . . وهو الذي وشى برئيسه المراقب نايف سعيد، وقد تكون وشايته للتعمية ليس الا . .

« تأخذ القلعة شكلا متطاولا ، ويصل امتدادها من الشمال الــى الجنوب حوالي ثلاثمائة وعشرين مترا ، ومن الشرق الــى الغرب مائــة وسبعين مترا ، وتتوسطها في أعلى نقطة ، مئذنتها العالية التي تطل على وادي الفرات في منطقة غمر الســـد . ويحيط بالقلعة سوران دفاعيــان ويتخللهما عدد كبير من الابراج المتنوعة الاشكال . والمتعددة الارتفاع ، ويبلغ عددها حوالي خمسة وثلاثين برجا . وهي ذات مخططات هندسية رائعة الاشكال » .

وكان يفكر : الطبيعة واسعة ، ولا يمكن للوحة واحدة ان تستوعبها. وفي الرسم يمكن للمرء ان يختار ما يريد دون ان يامر عليه أحد . أن الرسم هو شعور مرتبط بالاعماق ، وهو غذاء روحي لا بد عنه .

« وكل هذه الاسوار والابراج مبني بالآجر، بيد أن هذه القلعة شهدت بعض الترميمات في عصور متأخرة ، استعمل فيها الحجر بدلا من الآجر. وقد بوشر بالكشف عن تلك الإسوار والابراج ، واستغرقت هذه العملية عدة اعوام ، لاظهار معالمها وترميم المتصدع منها ، أما الاعمال الجارية حتى الآن . . »

الفن ضرورة ملحة من ضرورات النفس الانسانية ، فهو ينشر الصفاء والمودة بين البشر . والتناسخية هي الحركة الدائمة والدائبة في الحياة ، وهي هم من هموم الانسان الملحة والصميمية . كان عقل انطونينو الباطن ولربما الظاهر أيضا يعمل في هذا الاتجاه .

« الاعمال الجارية الآن هي كشف السورين الخارجي والداخلي ، والمر المحصور بينهما ، ثم تعزيل واظهار معالم جميع الابراج الخارجية . واسفرت الاعمال تلك عن نقل حوالي خمسة وثلاثين الفا من الامتار المكعبة اتربة وانقاض ، القيت كلها في الخندق المحيط بالقلعة » .

العمل الفني الجيد ، هو الحقيقة الوحيدة القادرة على التبرير والاقناع ، ومعرفة القيم اللونية دون انفصام بين الخلفية والشكل ، هي كمحاولة لتجريد النظر ورسم الخط الخارجي للجسد . .

وهنا سعل المحاضر سعالا حادا ذكر الجميع بمندوب الاستاذ عياش الذي القى محاضرته السابقة .

« وقد استخدم في اعمال الترميم عمال بناؤون من دمشق وحلب ومنطقة الفرات . وجاوز عددهم احيانا اكثر من اربعمائة عامل قد جرى تدريبهم على ترميم هذا النوع من المباني غير المألوف » .

الخط الخارجي للجسر .. ياالهي . !

وعاد الى السعال ، فأعيد ملء كأسه .

ان النظر الى اللوحة يتطلب عملية بحث وتجريب ، ويكون له ضوابط من الرؤيا الواضحة . والفهم الجيد وطبيعته ، ومراحله . وفكر العامل جمعة الياسين :

لو كان ضيف الله هنا لقال شعرا بما معناه :

يا عالم الآثار

يا ايها الثرثار

كفانا انتظار ...

نريد ان ننام

اوما اشبه ذلك . اما انطوتينو فلم يكن ينظر الى المستمعين . بل كان يخطف نظرات قليلة من اوراق امامه ، ثم يقرأ قراءة تكاد ان تكون غيبا ، وكأنه يحفظ كلمات المحاضرة عن ظهر قلب . وهذا يذكر نايف سعيد بزميله عبد السلام حيدر .

« وفي هذا العام تستمر عمليات ترميم الاسوار والابراج في قلعة جعبر ، بهدف اعداد هذه القلعة سياحيا واثريا . هنا لا بد من التطرق لحماية العتبة الصخرية الحوارية التي تقوم عليها قلعة جعبر . وأخذت المؤسسة العامة لسد الفرات على عاتقها مهمة الحماية اللازمة لهذه القلعة» .

افلح فواز هلال بمغادرة المكان . وقد مرّ من جانب الشرطيين وزاحمهما فافسحا له الطريق ، ولربما انهما لم ينظرا في وجهه ، ولكنهما لايعرفانه على اية حال . سمعا عنه فقط ، وهما الآن بانتظار انتهاء المحاضرة ليطلبا استنطاقه .

ومنذ لحظات كان يجري في القاعة تشويش وبلبلة ، استغلهما فواز في مغادرة المكان . وهذه البلبلة نتجت بصورة بطيئة جدا ، ولكنها استمرت وتفاقمت دون أن تهدأ . والرجل الثاني الذي راح يستغل هذه البلبلة هو انطونينو نفسه . فقد اخرج من حقيبته آلة تصوير ، وطلب من العامل الذي ملأ له الكأس ، ان ينصب الآلة في نهاية القاعة . حدث ذلك بصوت منخفض . فبينما كان المستمعون يبدو وكأنهم يتشاورون بأمر من الامور الهامة ، لاحظ المحاضر ان احدا لا ينتبه له ، فنزل عن المنبر ولحق بالعامل . ركب آلته على سلمها ، ثم هيأها للتصوير وكانت آلة أوتوماتيكية . ضغط زرها واسرع الى مكانه لتلتقط له صورة وهو يحاضر . وفي منتصف الطريق تعثر بأحد الكراسي الفارغة. فسقط عليه من فرط التعجل. وهنا لفظ عبارته المثيرة . « ايام صوري » .. هذه العبارة التي لا يمكن للمرء أن يسمعها في السد طوال الأيام . فاللغة الانكليزية غير مستعملة هنا على الاطلاق . ولا يمكن للمرء ان يسمعها في اي مجال من مجالات الحديث ، حتى ولو كان الامر مجاملة او اعتذارا . وقد كان يمكن للمحاضر أن يعتذر بالعربية أو الفرنسية او الايطالية او حتى .. الروسية .. اما أن يقول ايام صوري ! فقد نسي المستمعون موضوع مشاوراتهم وهمسهم ، وراحوا يضحكون من اعماق قلوبهم ، وعلى كل حال فقد التقطت الصورة . وكان فيها انطونينو المطران ساقطا على كرسي. وقبل أن ينهض الرجل ليفكر : هل يعود الى الآلة ليجهزها لالتقاط صورة

جديدة ، ام يعود لمحاضرته ، كان المستمعون ينهضون مثنى وثلاث ورباع ، يتطاولون وينظرون الى الاوراق التي كان يقرأ بها الرجل ، ثم يعودون وهم يضعون أيديهم على افواههم ، ليكتموا ضحكاتهم التي تأبى أن تكون صامته. ان ذلك حقيقة ! وكان أول من كشف اللعبة هو ذلك العامل الذي يملأ الكأس . همس اولا في اذن جاره :

ــ المطران لا يقرأ في الاوراق التي امامه . .

ــ كيف يقرأ اذن . . ؟

ــ انه يقرأ في الهواء .

وبالفعل كانت الاوراق التي امامه مسودة بلغة لاتينية ، ايطالية على الاكثر . وهذا ما قرره المهندس حليم الذي قام بدوره ليتمحص الحقيقة . وخلص الواعون من الحاضرين الى حقيقة : وهي أن المطران لا يعرف كتابة العربية ، انه يكتب محاضرته باللغة الايطالية ، ويترجمها على الفور ، وهذا هو السر في انه كان يلفظ كثيرا من الكلمات بصورة غير صحيحة .

وانتهت المحاضرة كما انتهت سابقتها . كان اكثر الحاضرين وقوفا يتحدثون ، حتى انه نسي أمر المحاضر نسيانا تاما ، الا بالقدر الذي سمح به حب الاستطلاع والكشف عن عملية قراءته العجيبة . ولكن نايف سعيد ، وقد كان من البداية يسعى للحديث معه ، جاء اليه وأعانه على الوقوف . ثم قاده الى أحد الكراسي ، وراح يجامله ليستخلص منه حقيقة يود معرفتها . لقد اصبح فواز هلال موضوع اهتمام فئتين هامتين من ذوي الشأن : المراقب نايف سعيد ، والمساعد رئيس مخفر شرطة القرية ، الاول يريد أن يعرف ما اذا كان المطران قد ساعده في الوصول الى القرية، وكيف تم ذلك ! والثاني يريد معرفة ما اذا كان فواز هلال قد سرق جثة الفريقة اثناء وجوده في القرية .

تقدم المساعد وشرطيه من نايف سعيد وهو يتحدث مع انطونينو ، وهنا اضاع المراقب نايف موضوع حديثه وغايته ، ووضع نفسه تحت بصرف المساعد . وتلفت حوله باحثا عن فواز فلم يجد له أثرا بين الواقفين:

ـ يبدو انه خرج .. هيا بنا الى الخيمة ..

واسرع الثلاثة يتعثرون في الليل الذي ارخى سدوله . كان الفانوس معلقا بعمود الخيمة، وضيف الله وحده يضطجع على فراشه ويشرب القهوة. ولم يفاجأ بدخول الشرطة ونايف . ولكنه رفع ساقيه مفسحا لهم مكانا للجلوس .

ـ أين هـو ..؟ .

واجاب وهو يسوي قطع الجمر ..

ـ من ....؟

ـ قال نايف في حدة ..

ـ فواز ...

وداعب ضيف الله بملقطه الرماد وهو يجيب:

ـ ذهب الى القرية ليلتحق صباحا بحنب ..

٩

فتح صفحة جديدة في دفتر مذكراته وشرع يكتب :

● ان التزام الحقيقة هو عامل أساسي في ممارسة الديمقراطية الشعبية على نحو ثوري . والحقيقة ، هي ثورية واخلاقية في نفس الوقت ، والتزامها هو وحده الذي يميز الاستقامة عن الانتهازية ، ويميز الدعوة عن الدعاية ، ويميز التقدمية عن الديماغوجية .

حين يبدأ المراقب نايف سعيد بكتابة صفحة من مذكراته ينسى مجريات يومه كلها ولايتعرض لها بأية حال من الاحوال . ولايستطيع هو نفسه ان يعلل هذا التدبير ، وكأنما هو بذلك يسعى الى أن ينسى يومه ويفكر بغده القادم . هل هو غير راض عن يومه ؟ لا يمكن الحكم على هذا ، واذا سئل فهو لايجيب بالموافقة ، انه راض عن يومه لطالما أنه يعمل ، ولطالما يرى الآخرين يعملون ، قد تكون هناك بعض الاحداث العابرة المعكرة للصفو ، والمخلة بتواتر الحياة ، ولكن هذه الامور لاتلبث ان تذوب وتنتهي دون أن تخلف أثرا بعيدا يذكر .

● وان حجب الحقيقة عن الجماهير ، هو تنكر لأبسط مقتضيات الديمقراطية ، وهو شك في وعي الجماهير وقدرتها على التمييز بين الخطأ والصواب ، وان الشك بحس الجماهير السليم هو أول مراحل الانزلاق نحو المفاهيم الفاشستية .. ان المرونة والواقعية في العمل السياسي ، تقتضي التفكير في حصيلة موقف ما وتمييزه . الا أنه ينبغي التمييز دوما ،

بين الفائدة المباشرة والفائدة غير المباشرة ، أي الفائدة المؤقتة والفائدة الدائمة والبعيدة المدى . ان هذا التمييز ، هو أحد الخصائص الاساسية التي تميز الاستقامة عن الانتهازية . وان شعار المصلحة ، المفهوم فهما صحيحا وعلى مدى بعيد ودائم ، لايمكن ان يتعارض مع احترام الحقيقة.

عبد السلام حيدر هذا المساء غائب ، انه يلعب الطرنيب ، مع زملائه في براكة بعيدة . وهو بعد ان انتهى من دراسة الكراريس الجيولوجية واستظهارها ، شرع بدراسة كراريس النفق وأعمال الخرسانة والجرافات الهيدروليكية وتصاميم محطة الكهرباء . أي كل ما يتعلق بالاعمال القادمة .

● ان التزام الحقيقة امام الجماهير ، سيكون وسيلة من وسائل تثقيف الجماهير ، وعاملا اساسيا في تكامل نضجها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وهذا مايحتم كشف العقبات والصعوبات التي تواجه البناء الاشتراكي ، سواء كانت هذه الصعوبات هي الجهل او الانتهاز أو الاهمال والتخريب. ان ممارسة الجماهير الشعبية لحقوقها الديمقراطية، على نحو واع ومنضبط ومسؤول . يقتضي تعبئتها في اطارات تنظيمية ، تمنحها قوة الوعي ، وتتيح تنويرها سياسيا واجتماعيا ، وهذه الاطارات هي المنظمات الشعبية .

اذا كان فواز هلال هو الذي سرق الجثة ، فيجب أن يكون هو الذي أغرقها . . وقد اعترف المساعد هذا المساء بأن فوازا هو الذي وشى به . واستأنف الكتابة :

● ان مبدأ الديمقراطية الشعبية الذي أقرته مؤتمرات الحزب ،

سيكون سبيلا لتنظيم المجتمع الاشتراكي ، واطارا علميا لتجميع طاقات الجماهير الكادحة وتفجيرها ، وزج هذه الطاقات في معارك التحرير والتحويل الاشتراكي ، نظرا للدور الذي ينتظر الطبقة العاملة وحركتها النقابية في قيادة معركة التحويل الاشتراكي ، وحماية الانجازات والمكاسب التي حققتها ، وسوف تحققها الثورة للجماهير الكادحة ، وفي طليعتها جماهير العمال .

ولكن لماذا يفعل فواز ذلك ؟ كانت البنت عارية أيضا . وتم السؤال عما اذا كانت عذراء أم ثيب ، فهل هذا يدل على شيء ؟. انه يعلم ان العمال يقاسون من الكبت الجنسي ، ولكن هل يصل الكبت الجنسي الى هذا الحد؟ وهل تهديد المراة في ذلك الصباح لم يكن غير مصادفة غريبة ليس الا ؟ وتابع الكتابة :

● ومن الايمان الكامل بقدرة الطبقة العاملة وجدارتها لتحمل مسؤولياتها في التنظيم والتخطيط ، في ظل الادارة الديمقراطية للمعامل والمنشآت والتي أقرتها مؤتمرات الحزب ، ليأخذ العمال دورهم القيادي في الادارة وحماية الانتاج في ظل الاشتراكية ، التي تهدف الى اقامة نظام اجتماعي جديد ، يخلق ظروفا موضوعية ، اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية جديدية ، تعتق الانسان من جميع انواع الاستغلال والتسلط والجمود ، وتتيح له الفرص لكي يصبح انسانا حرا .

في كل لحظة كان المراقب نايف سعيد يتوقف عن الكتابة ويفكر: قد يكون فواز انسانا لا يخلو من بعض الطيش والنزوة، ولكن هذا ليس نابعا من أصله وبيئته . انه في الاصل فلاح، من ذرية فلاحية، والفلاح كالعامل، يظل انسانا خاما لم تفسده تقلبات المدينة ووباؤها وسقوطها .. وعاد الى الكتابة :

● ومن خلال ظروف الكفاح المسلح التي تعيشها الجماهير العربية في معركتها ضد الغزو الصهيوني العنصري للارض العربية ، وضد تكالب الاستعمار الامبريالي على نهب ثروات الوطن العربي وخيراته ، ومن اجل انتصار النضال العادل والمرير الذي تخوضه ، من اجل تحرير ارضها ووحدة وطنها وتقدمها . وتحقق المجتمع الاشتراكي الموحد . وتأكيدا لدور الطبقة العمالية العالمي والتاريخي في تفجير الثورة الاشتراكية وحمايتها ، وتنفيذا لمقررات مؤتمرات الحزب التي اكدت على حرية المنظمات الشعبية ضمن الخط الاشتراكي .. وتعميق الحريات الديمقراطية لهذه المنظمات .

وعاد يفكر قبل ان يتم جملته :

هل كان فواز يعتبر نفسه ملاحقا ؟ وهل كان ينتظر وصول رجال الشرطة بين لحظة واخرى ؟! لماذا هرب اذن هكذا فجأة ، ولم ينتظر حتى الصباح ليلتحق بالدورة ؟. لقد كان يجلس هناك في الصف الثالث اثناء انقاء المحاضرة ، فكيف هرب ؟ ولم ينتظر في الخيمة حتى الصباح ؟.

واستأنف الكتابة :

● لقد صدر قانون التنظيم النقابي الذي ينظم الطبقة العاملة فيظل الثورة الاشتراكية الوحدوية ، وليسمح لها بممارسة دورها الطليعي في معركةالتحويل الاشتراكي والتحرير القومي ، ويضمن للطبقة العاملة وتنظيمها النقابي ، ممارسة الديمقراطية الواسعة ، ويحملها كامل مسؤولياتها تجاه قضايا النضال القومي الاشتراكي . لاشك ان مرحلة التحويل الاشتراكي هي اقسى مراحل الوصول الى المجتمع الاشتراكي . لانها الحد الفاصل بين فكرين متصارعين ، الاول متخلف ، والثاني يحمل

التغيير الكامل في الفكر والاسلوب والغاية . وهذا الصراع الحاد مابين القديم المتأصل الجذور ، وبين الجديد النامي ، حمل التنظيم النقابي العمالي ، مسؤولية ضخمة وعسيرة ، على كافة المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وعليه فان التنظيم النقابي يمارس دوره .

وفجأة توقف عن الكتابة . لقد تناهت الى أذنيه اصوات حديث يدور بين اثنين عرف فيهما صوتي ضيف الله وبشارة اصطفان . فقد ضيف الله صديقه الحميم وبدأ يعقد الصلة مع بشارة . وكان الضحك بينهما بسبب نكات يتبادلانها . سمع بينها كلمات : دراجة امرأة دجاجة الياس. انهما يتسامران وهما يتمشيان في الليل . وخطر له ان ينادي ضيف الله ليسأله عن آخر حديث جرى بينه وبين فواز قبل أن يغادر الخيمة . ولكنه تابع الكتابة :

● يمارس دوره في توعية وتثقيف الطبقة العاملة ، وحثها على تخطي الواقع المتخلف ، لأسلوب العمل والانتاج ، واستبدال العلاقات الرأسمالية بعلاقات اشتراكية ، على اساس علمي يوضح العلاقات الموضوعية مابين العامل ورب العمل ووسائل الانتاج . ثم ان انتشار الامية بين جماهير العمال ، يعرقل ممارستها للديمقراطية ، وستبقى هذه الممارسة مبتورة وسطحية وشكلية ، اذا لم تقترن بتثقيف سياسي ، يوفر للعمال الثقافة اللازمة ، التي تمكنهم من استيعاب الامور العامة ، والخطوط العريضة لقضايا السياسة والبناء الاشتراكي . ولهذا ، فمن الضروري جدا القضاء على الامية قضاء تاما وسريعا ، والعمل على تعليم العمال الاميين واشباه الاميين ، لا القراءة والكتابة فحسب ، بل تمكينهم من استيعاب المعرفة الضرورية لممارسة حقوقهم الديمقراطية بوعي .

ان في زمرته عاملين اميين ، هما ضيف الله وعايش الحامد . وقد تكفل فواز بتعليم ضيف الله ، اما عايش فلم يجد معلما ، ولكن جمعـة السالم تكفل بتعليم عايش عند اول فرصة ، غير ان جمعة منهمك ايضـا بأعماله الحزبية ولايجد فراغا خارج أوقات العمل .

● تبنّي القضايا العمالية العادلة وطرحهـا بشـكلها الموضوعي ، باعتبـار انهـا مسألة اساسية في عملية رفـع مستوى الانتـاج . وان زيادة الانتاجيـة الفردية مرتبطة بشـكل مباشـر بالراحـة النفسـية والشعور بالاستقرار عند كل عامل . والعمل على تأمين حقوق العمال بشكل لايبقي على الغبن الحادث او المحتمل حدوثه ، وبحيـث يضمـن التوازن المادي مابين مصلحة العامل وعملية البناء الاشتراكي .

هاهو لغط الرجلين يقترب مرة ثانية ، وفي هذه المرة سمع اللغط اللغط يتخلله رطانة . انه ضيف الله ، ماذا يقول ؟ ياللعجب ! انـه يرطن بكلمات تركيـة . .

● ثم زيادة الانتاج ومتابعته ، وذلك من خلال مباريات الانتاج . ومن خلال بث روح التسابق الفعال والمنتج . وايجاد نظام المكافآت الذي ينصف ويشجع العمال الماهرين ، وتطبيق مبدا المحاسبة الصارم ، ووضع حد للمخربين العابثين بمصلحة الجماهير الكادحة .

اذا كان ضيف الله تعلم الكلمات التركية فستكون هذه ثالثة الاثافي، ان ذهابهما الى جعبر ، فواز هلال وهو ، واجتماعهما مـع المطران انطونينو سيكون وخيم العاقبة .

● ثم تحسين وصيانة وسائل الانتاج بشكل يضمن استمرارية العمل وديمومته ، مع تطوير الآلة والانتاج ، من خلال فسح المجال امام العمال

المهرة المبدعين . وتثبيت جذور الثقة واقناعهم ، بمدلول واقعي ، ان الآلة هي ملك لهم ، وهم أسيادها ، واي تحسين لها والحفاظ عليها ، مرهون به وبنشاطهم واستيعابهم لحركتها .

توقف عند كلمة ديمومة وتذكر الكسندر ، انه لا يوفر كلمة غريبة غير دارجة الا ويسجلها بدفتر يحتفظ به ، وقد نصحه بأن يقتني قاموسا ، فوعد بأنه سيقتنيه حين يسافر الى حلب ، وسفر الخبراء الى حلب متوفر في كل يوم تقريبا .

● ولهذا يجب ان ندرك ما للتنظيم النقابي من دور هام في عملية بناء المجتمع الاشتراكي ، فيما لو استطاع ايجاد العلاقة الموضوعية بين الطبقة العاملة من جهة والادارة من جهة ثانية . غير أن الصعوبات المتأتية من الواقع المتخلف لمجتمعنا ، وعدم ادراك هذا الواقع عند البعض من وجهة النظر النقابية بشكل علمي ، والانطلاق من خلال معطياته لتفسيره ، تكسب النظرة السطحية الاولية عدم امكانية وجود الحلول ، وبالتالي الاستعانة والتواكل والهروب من مجابهته المجابهة الحاسمة .

وتذكر ان زميله عبد السلام حيدر ينادي العمال بـ « يامتخلف »، ويقصد بهذا استرعاء انتباههم ، ويلومه نايف على هذا التعبير القاسي، ولكن حيدر يدافع عن تصرفه ، ويدور بينهما الجدل : نحن متخلفون ، نحن نامون ، نحن العالم الثالث . هذا هو اسمنا في الاعراف الدولية . خجلوا منا فوجدوا لنا تسميات جديدة .. فمن نحن على كل حال ؟..

● بالاضافة الى عدم وضوح الرؤيا لدى البعض ، وعدم ادراكهم ان العمل النقابي هو الايمان بمبدأ ، وتطبيق لهذا المبدأ ، من خلال

السلوك اليومي بكل طواعية ، اضافة الى التصور الذاتي عند البعض عن إستيعاب الحركة النقابية بشكلها الواسع ، وما تتضمنه من تضحيات جسيمة ، ومن اذابة للانانية في المجموع .

ينبغي له ان يستيقظ مبكرا ، ليرافق زمرته الى قلعة جعبر ، فغدا سيكون العمل في حماية اسوارها من ماء البحيرة المنتظرة.

● ان نقابتنا ، نقابة عمال السد ، الحديثة المهز بتكوينها ، مانفكت تناضل لتحقيق اهدافها السامية في خضم من المتناقضات الرهيبة المتأتية من عوامل مختلفة ، وعلى كافة المستويات : الاجتماعية والاقتصـــادية والفكرية والانتاجية . وهذا مايحملها فوق عبئها ، أعباء ثقيلة ، وبالتالي يعزز صمودها ، ويمدها بالقوة والحيوية يوما بعد يوم ، والتاريخ ولاشك يكون الى جانب مصلحة الطبقة العاملة . ولاشك بأن المستقبل سيكون من صنع هذه الطبقة . فاتحاد كلمة العمال ، ورص صفوفهم ، كفيل بتغيير وجهة التاريخ ، وبهذا يقول عملاق الفكر الثوري العظيم «فريدريك انجلز» .. لاتوجد قوة في العالم ، تستطيع مقاومة الطبقة العاملة ليوم واحـــد .

.. لاتوجد قوة في العالم ، تستطيع مقاومة الطبقة العاملة ليوم واحـــد ، اذا كانت منظمة ككل واحد .

وشرد نايف بأفكاره الى شاهد ، انه لايتوقف عن القراءة ابدا ، وهو يتحلى بوعي منظم ومتفوق ، ليته يتاح له هو الوقت ليقرأ طويلا ، وهو على كل حال يستعير منه بعض الكتب . يقرأ جزءا منها ثم يعيدها اليه ، لانه يصر على أن يستردها في وقت محدد .

● ولقد هدفت نقابة سد الفرات ، منذ ولادتها ، الى تأمين حد أدنى

من المطالب العمالية ، كنقطة بداية تنطلق منها فيما بعد ، لتغطية كافة مايمليه عليها واجبها الاشتراكي الثوري ، منفذة في ذلك ماجاء في نظامها الداخلي ، ومراعية مصلحة العامل والامة على حد سواء ، كما أوضحت منذ بداية العمل ، ضرورة التعاون الخلاق والمستمر في الادارة ، ادراكا منها ، ان العلاقة بينهما ، يجب أن تتسم بسمات علمية موضوعية . ولذا كانت حريصة على ايقاع اسلوب طرح القضايا بصراحة ووضوح امام المسؤولين ، ليتسنى لهم الاطلاع الكافي على ماتطالب به جماهير العمال، ونقل ارادة الجماهير وتصميمها على عملية البناء التي لاتتزعزع .

ينعقد أحيانا الجدل بين العمال ـــ حتى اثناء العمل ـــ عن دور النقابة في حل مشاكلهم ، وعن دور النقابة في جعل الادارة والموظفين بصورة خاصة ، في تفهم قضاياهم ، وعدم معاملتهم معاملة المأجورين أو المرتزقة، ولطالما شكا العمال من الموظفين الذين يتربصون في الدفء أو الظل يشربون القهوة والشاي ويثرثرون ، دون أن يلاقوا العنت والعناء الذي يلاقيه العمال . ومع ذلك يتصرفون تصرف السادة بعبيدهم ومخدوميهم .

● غير ان الواجب يدعونا لقول الحقيقة ، بأن هذه العلاقة كانت تترنح وتواجه صعوبات جمة . وكادت تنقطع احيانا كثيرة ، لاسباب كثيرة، لكن الممارسة العملية اليومية ، والنضال المتواصل ، بشّرا بظهور ضوء افسح المجال من جديد للنقاش الموضوعي . وبدأ يعمل الطرفان (الادارة والنقابة) كل في مجاله . وهذا بلا شك ما يسمح للنقابة ، أن تقدم للادارة ، حقلا سهلا خاليا من المشاكل العمالية ، وبالتالي ، يمكن الادارة من أخذ دورها الفعال في عملية التخطيط ومتابعة التنفيذ لبناء سد الفرات .

ما يزال الكسندر يحتفظ بأحجار الشطرنج كما هي في اللعبة الاخيرة،

وقد هذدت في نقلتي — قبل أن يذهب — الشاه والوزير معا . لم اكن انا اخطط لهذه الحركة ، لقد جاءت بصورة عفوية . هذا لايهم من حيث النتيجة ، ولا ادري كيف يعتبرها المتبارون ، اظن ان الانتصار في هذه الحالة ، لايحرز حظا كبيرا من العلامات ، ولكن كيف حضر غافريلوفيتش في اللحظة الاخيرة ، واستدعى الكسندر ، هل هناك مؤامرة بينهما ؟ لا أظن . . فغافريلوفيتش لم يكن يراقب اللعب ابدا . سأطلبه أنا غدا لاتمام اللعب .

● وبالطبع فان تجربة الدول الاشتراكية ماهي الا نبراس تهتدي به كافة الامم المتخلفة ، والتي اختارت الاشتراكية العلمية طريقا لها ، حيث وضعت المنظمات الشعبية في مكانها الطبيعي ، ودعمتها على المستويات كافة .

سيضرب فرسي التي تهدد الشاه ، هذا أمر طبيعي وبالتالي سأضرب له وزيره ، سأخسر أنا فرسا ويخسر هو وزيرا . وبعد ذلك ينبغي لي أن أتنبه تمام التنبه ، فله العاب شيطانية غير محسوبة . ولكن . . . ألا يمكن الافتراض بأن الكسندر قد أتاح لي الفرصة لألعب لعبتي هذه ليختبرني؟ انه يسعى لان يجعلني أتقدم بهذه اللعبة ، ولا أدري لماذا . . حتى يخيل ني أنه يسعى ليجعلني أتفوق عليه . . هل هو يحاول بهذه الطريقة أن يدخل الثقة الى نفسي ؟!

● وجاءت مؤتمرات حزبنا موضحة معالم الطريق امام جماهير الامة العربية ، بأن الاشتراكية العلمية ، هي الحل الوحيد والحاسم بالنسبة لمجتمعنا العربي المتخلف . ولكي تكون الاشتراكية حلا كليا وجذريا لمشكلة الكادحين العرب ، لابد من ان تتوفر فيها الظروف التي تهيىء الى :

- الغاء ظروف الاستغلال المادية ، التـي تسلب المواطن جوهـره الانساني .
- تعميق المضمون الديمقراطي للاشتراكية ، لان الحرية هي الاساس الراسخ الذي تبنى عليه الاشتراكية .
- تربية المواطن تربية اشتراكية وعلمية ، تحرره من كافة الاطـر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة لكي يمكن خلق انسان عربي جديد ، بعقل علمي متفتح ، ومتمتع بأخلاقيـة جديدة .. هـي الاخلاقية الاشتراكية ، وتجعله مؤمنا بحقيقة كونها تمتاز بقيادتها الجمـاعية .

اذا فشل الغواصون في العثور على الغريقة المفقودة ، فسيكون في الامر ماهو أسوأ من حادثة الغرق نفسها . فقد وضع المحققون موضوع الفيضان في الحسبان ، اذ ان المكان الذي دفنت فيـه لم يكن بعيـدا عن النهر ، وقد غمره الماء في عداد ماغمر ، ولكنه انحسر في الصباح . وبعـد ان تم نبش الحفرة بعد ذلك لم يعثروا على منفذ دخلت منه المياه وخرجت ، ولكن التراب والحصا كان مبتلا ، فهل يكون النهر عجيبا الى درجة انه يخطف الجثة ، ثم يسد مكان الخطف ؟! ومرة اخرى تساهم مديرية سد الفرات ، لا في اعمال ترميم الآثار وحمايتها ونقلها ، بل باكتشاف الجثث المفقودة ايضا ، وذلك بوضع غواصي المؤسسة تحت تصرف القضاء والمحققين .

● ولا بد من تكرير كلمات المفكر الثوري العبري كارل ماركس حين قال : الاسلوب الاقتصادي السائد في الانتاج والتبادل الانتاجي ، يشكل في كل حقبة تاريخية معينة ، التنظيم الاجتماعي المنبثق بالضرورة عنه ،

الاساس الذي يقوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسي والفكـري ، والذي يمكن الاعتماد عليه فقط تفسير هــذا التاريخ ، وبالتالي فان كل تاريـخ الانسانية ، قد كان تاريخ النضال بين الطبقات المستثمِرة والمستثمَرة ، بين الطبقات الحاكمة والمحكومة . وان تاريخ هذا النضال الطبقي ، يؤلفَ سلسلة من المراحل المتعاقبة ، بلغت اليوم مرحلة لايمكن فيها للطبقـة المستثمَرة والمضطهدة اي (البروليتاريا) أن تحرر نفسها من غير الطبقة المستثمرة اي الحاكمة وهي البرجوزية ، ودون ان تحرر معها المجتمع بأسره ، في الوقت نفسه والى الابد ، من كل استثمار واضطهاد ، ومن كل الفوارق الطبقية والصراع الطبقي. النصر والخلود لنضال الطبقة العاملة، وعاشت وحدة النضال للطبقة العاملة في العالم ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار .

. . . .

حدث الاستيقاظ مبكرا اكثر من المعتاد ، فأفراد زمر التنفيذ مكلفة اليوم بعمل اكساء الميول في قلعـة جعبر ، وكان المراقب نايف سـعيد يقف فيما اسمي الساحة ليتم اجتماع العمال . وطرق سمعه من جديد ضيف الله يرطن بالتركية (سن ناسيلسين جونادين كوزال) ووجد نفسه مضطرا لاسكاته . لم يكن ضيف الله بمرحلة سعادة وحبور غير معتادين ، ولكن غياب صديقه فواز ، جعله يتعلق بأتفه الاسباب ليبدد كآبته . وسأله :

— هل يعلمك المطرار انطونينو التركية في جملة مايعلمك اياه ؟.

ولكن بشارة اسطفان لم يستطع الا أن يفشي سرا :

— لا يامعلم .. انه يتعلم التركية من مخفر المزار التركي ..

وهنا حملق نايف سعيد عينيه من الغضب :

ـ هل تذهب الى المخفر التركي أيها المتسول ؟

كان السكان المحليون قد اتخذوا من القبر التركي مزارا يذبحون عنده النذور ، ويتمسحون بنافذته ليشفي لهم مرضاهم ، ويعيد لهم غائبيهم ، ويرزق عاقراتهم أولادا . لذا كان يتجمع هنا الجائعون ويتناولون اللحم من النذور الذبيحة . وكانت اتفاقية انقرة بين تركيا وفرنسا عام الف وتسعمائة وواحد وعشرين قد نصت في اتفاقيتها ، وفي المادة التاسعة منها، على ان تنسحب تركيا من شمال سورية على يبقى قبر سليمان شاه ـ جد السلطان عثمان مؤسس السلالة العثمانية ـ في مكانه على نهر الفرات عند قلعة جعبر . وان يظل المزار ملكا لتركيا ، مع وضع حرس عليه من الجنود الاتراك ، كما يبقى العلم التركي مرفوعا عليه . وقد وقع هذه الاتفاقية عن الجانب الفرنسي (هنري فرانكلان بومون) رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب ، وعن الجانب التركي (يوسف كمال) وزير خارجية الجمعية الوطنية الكبرى . وحين بوشر بأعمال سد الفرات صدرت التعليمات بمنع أي من الافراد العاملين بالسد من زيارة المزار أو الاقتراب من المخفر التركي ، الذي يقيم فيه حرس مسلحون حفظا على حرمة المزار ، وحراسة العلم .

ولكن هاهو ضيف الله الشاعر يخالف التعليمات ، واكبر دليل على ذلك انه يتعلم اللغة التركية . ومما زاد في غيظ المعلم نايف سعيد ان الجانح لايتقن قراءة او كتابة حرف واحد من لغته . ووعده صراحة بعقوبة قاسية سينزلها به عند العودة من قلعة جعبر .

وقدمت الشاحنة التي ستقل العمال ، وكان سائقها في هذه المرة هو

الضبع نفسه ، الذي يتناوب العمل تارة على شاحنات التراب والبحص والصخر ، وتارة بنقل العمال . وأعطي الايعاز لركوب السيارة ، وتم ذلك بلحظات قليلة ، ولكن عايش الحامد كان غائبا هذه المرة ، ولم ينتبه احد لغيابه الا حين تحركت الآلية . وهنا ظهر الشاب من جانب وركض ليتعلق بالشاحنة من جانبها . . فأفلتت قدمه و . . سقط .

كثيرون هم الميتافزيكيون في هذه الدنيا ، اولئك المتطيرون الذين ينسبون كل حادثة تقع ، الى كلمة تقال او وجه يظهر ، او التباس يقع . وقد حمّل البعض من عمال ذلك الصباح مسؤولية الحادث الى الشاعر ضيف الله ، أولا لانه تحدث بالتركية ، وثانيا لانه أغاظ المراقب نايف سعيد . وقد دافع الشاعر عن نفسه بعد ذلك حين قال : من كان بلا مقلة فكيف يرمد ؟. ولم يفهم الكثيرون مايقصده ضيف الله بهذا المثل، غير أن شاهدا فسر حكمة ضيف الله تفسيرا واضحا . وكان يعطف عليه لجهله، ويحاول أحيانا أن يلقنه بعض الالفباء ومن المجيب ان الشاعر اصبح تقيا فجأة ، وكان لتقواه ما يبررها :

يا خاطب الدنيا واحداثها
منك ومن امثالك ساخره
هيهات ان يمنع عنك الردى
ماشدت من أبنية فاخره
يلهو بها بعدك مستمتع
وفي غد أعظمك ناخره
أحسن بما شدت من منزل
ان كان يغني عنك في الآخره

ويبدو انه لايحفظ غير هذه الابيات ، لانها لاتناسب المقام ، فعايش المسكين لم يكن يملك حتى بيتا من شعر الماعز ، ولكن ضيف الله لم يستطع ان يصمت . غير أن تصوف ضيف الله تجلى في هذا البيت :

كل حي على المنية عادي

تتولى الركاب والموت حادي

غير ان الحادث لم يطبع أثره على نفس ضيف الله فحسب ، بل تأثر الشاهدون جميعا ، حتى انه الغيت نوبة العمل في قلعة جعبر ، وتجمع العمال والمراقبون حول رجال الشرطة والطبيب الشرعي وموظفي السد .

• • • • • • •

بعد وقت ليس بالطويل ، اشهر تقريبا ، كان مكتب الشؤون الادارية ومكتب الذاتية ـ لقد أصبح لمديرية سد الفرات مكاتب في ابنيـــة مسقوفة بالاسمنت ـ منهمكين باصدار قرار بتعويض أسرة المرحوم عايش العبد الله الحامد من قضاء الرقة ، وكان يهيئون المواد اللازمة لاصدار قرار يستند على عدد من المراسيم والانظمة : المرسوم التشريعي رقم وتاريخ .. وعلى نظام العاملين في مؤسسات الدولة . وعلى كتاب مديرية الشؤون القانونية . وعلى كتاب مديرية الشؤون الاجتماعية ، وعلى وثيقة حصـــر الارث ، وعلى الشهادة الادارية التي تثبت .. وعلى التقرير الطبـــي الصادر عن الطبيب الشرعي .. وعلى بيان الوفاة الصادر عن ..وعلى التعهد المقدم من قبل المستحقة ارملة المرحوم وتتعهد فيه بعدم ممارسة اي عمل او مهنة .. و .. على غير توقع دخل المدير على مكتب الموظفين العاملين باصدار القرار ،وطالبهم باصدار القرار الآخر المتعلق بالسائـــق الضبع المرحوم ابراهيم دبوس . فقد توفي الضبع ايضا ، وهذا لم يمت

بين العجلات، بل مات من الرعب، فبعد تشريح جثته بعد دفنه بزمن طويل، اضطر المحققون لان يخرجوا جثتـــه المتفسخة من القبر ، ويشـــرّحوها ليتأكدوا ما اذا كان حقا مات بالسكتة القلبية أم توفي بخادث، وهذا ما طالب به ذووه .

فقبل أشهر ، وبعد ان مرت العجلات فوق رأس عايش العبد الله الحامد ، نودي على الضبع للتحقيق معه ، فلم يجدوه ، لقد هرب واختفى. وبدأ البحث والتحرّي من موقع الطبقة في الوسط، ثم شرقا حتى البوكمال، وشمالا حتى القامشلي ، وجنوبا حتى حوران ، وغربا حتى اللاذقية ، فلم يعثر له على اثر . ولقد وُجد الرجل إخيرا ، ولكن بعد البحث والتحري ظل جاريا في مختلف البقاع ، أما اين وُجد ، فكان الامر مصادفة ليس الا ، فقد وُجد في مرآب السيارات المعدة للتصليح في الطبقة . صـــعد السائق الميكانيكي ليفحص احدى السيارات ، فوجد رجلا نائما ، حاول ايقاظه فلم يفلح . ونودي على رئيس المرآب ، فعالجه أيضا دون جدوى ، ثم قرر: انه ميت . كل من حضر الحادثة قال انه ميت ، والطبيب الذي استدعي قال ذلك ايضا ، ثم ان الطبيب الشرعي بنفسه قرر ان الرجل مات بالسكتة القلبية ، وحين سأل عن حادث ما حدث للرجل ، وانبىء أنه دهس عاملا، قرر الطبيب الشرعي ان الرجل مات من الخوف . .

والآن يطالب رئيس مكتب الشؤون الادارية بالعمل لانجاز تقـــريري التعويض لعائلة المرحومين عايش العبد الله والسائق ابراهيم دبوس . والموظفون كلهـــم يعملون بلا وناء . التقريران لا يختلفان من حيث ماهيـــة المستندات ، الا تقريرا الشرطة والطبيب الشرعي ، فهما مختلفان مـــن حيث اسباب الوفاة وكيف حدثت . اما القرار الإساسي الذي يعمل الموظفون

على انجازه فالاختلاف فيه يتلخص بابدال اسم مكان اسم ، ولربما كـان التعويض مختلفا ايضا ، فراتب العامل عايش ضئيل ، وعلى هذا ستعيش عائلته فقيرة ، اما راتب السائق الضبع فهو أعلى ، وستكون عائلته في حال افضل . ولو مات مهندس لكانت عائلته مميزة اكثر من الاثنين . ولكن في ذلك الحين لم يمت اي مهندس . وتابع الموظفـون نسـخ القـرارات والمستندات المبني عليها ، وتذمر السيد نصوح فواخيري الموظف بالشؤون الادارية :

ــ يالطيف ما اكثر هذه الاساسات التي نبني عليها قرارنا .. فهل لقرارنا كل هذا الوزن الثقيل ؟

ودعم حسين قره نحاس زميله قائلا :

ــ صحيح ، فهل هناك ما هو اثقل من الكرة الارضية .. ومع ذلك فقد بنيت على قرن ثور ...

ولكنهم تابعوا عملهم ، برغم ان الكرة الارضية بنيت على قرن ثور ..

عاشرا : وبناء على الاقرار بشأن استحقاق المعاش من قبل المستحقة أرملة المرحوم ، تتعهد فيه بابلاغ المؤسسة عن كل تغيير يؤثر بالنتيجة على مقدار المعاش خلال شهر من وقوع التغيير .

احد عشر : وبناء على براءة الذمة المستخرجة من مديرية مالية الرقة، وبناء على ضبط الشرطة ، وبناء على قانون التأمينات الاجتماعية . وبناء على الجدول رقم ثلاثة ، وبناء على الامر الاداري رقم وتاريخ القاضي بانهاء خدمة المرحوم و ... ماذا ؟.

ــ هل انتهت المستندات ؟.

اجاب نصوح :

ـ نعم .. انتهت القرارات ..

اذن ! .. يخص ارملة المرحوم عايش العبد الله الحامد واولاده مبلـــغ مائة وعشرين ليرة سورية لا غير ، تسلم بموجب وصولات رسمية موقعـــة أو مبصومة براس الابهام الايسر .

وطلب نصوح فواخيري من زميله صور الضبوط ، فأملى عليه حسين قره نحاس . اكتب :

الى مديرية الشؤون الادارية . اشارة لكتابكم رقم وتاريخ ، المتضمن طلب بعض الثبوتيات المتعقة باصابة العامل لدى الادارة الطبوغرافيـــة والذي توفي نتيجة حادث طارىء نرسل لكم الوثائق المطلوبـــة . صورة ضبط الشرطة . وصورة عن تقرير الطبيب الشرعي وصورة عن اعتماد الاصـــابة ...

ـ اين الكتاب المرسل الى قيادة شرطة الرقة ؟ .

واخرج الموظف تحسين جوران الكتاب من اضبارة حديثة العهد : الى قيادة شرطة الرقة . يرجى الايعاز بتبليغ نسخة الكتاب المرفق المتضمن توصيف اصابة العامل المتوفي .. لأحد ذويه الى العنوان التالي : ناحية الصور قرية الحريجية . واعادة النسخة الثانية موقعة اشعارا بالتبليغ بحضور شاهدين .

ولكن الشرطة لم تعثر على أرملة المرحوم ، فقد كانت تعمل في حقل بعيد ، يملكه أحد أطباء المنطقة . غير أن الكتاب سلم الى أخت المتوفي . وقد أعطت تصريحا : انا الموقعة ذيلا : عذاب بنت عبد الله فاضل الحامد ،

من قرية الحزنجية وشقيقة المرحوم عايش العبد الله بن فاضل الجامد .
تبلغت مضمون كتاب مديرية سد الفرات ، واستلمت صورة عنه ، وانا مستعدة لان إسلم هذا الكتاب الى زوجة المرحوم المدعوة لطوف بنت سليمان الجمود . واشعارا بذلك ابصم بحضور الشاهدين : الشرطي محمد صالح ذياب وعلي اسعد محمد .

كانت الامور تجري بصورة روتينية ، لايتخللها اي عقبات . الشؤون الادارية تنشىء قرارها ، والشرطة تبلغ القرار ، ومستلمة القرار تبصم ، وزوجة المتوفي تحضر في المساء وتعلم بالنبأ ، واطفال المتوفي بعضهم يصاحب أمه والصغار يلعبون في الارض ، وكل شيء يسير على مايرام . وعايش الجامد وحده ذهب بعيدا ولايدري ماذا يحدث .

أما توصيف الاصابة ، أو تقرير الطبيب الشرعي ، فكان من أوضح الكتب التي تضع الامور في نصابها دون شك او تمحيص . وهذا التقرير يقول : تبيّن من التحقيقات الادارية ، والاوراق الرسمية ، بالاضافة الى التحقيقات التي قام بها رجال الشرطة ، بموجب الضبطين رقـم وتاريخ ورقم وتاريخ ثبت ان السيد . (لأول مرة تظهر كلمةالسيد أمام اسـم عايش العبد الله الجامد) العامل فيمؤسسة سد الفرات الادارة الجيولوجية ، إنه اصيب اثناء العمل بكسور في الجمجمة واضلاع الصدر اليسرى ، ومشط القدم الايمن ، مما ادى الى النزف الدموي فالوفاة ، من جراء دهسه من قبل احدى الآليات المستعملة للنقل . وهي ذات رقم مسلسل .. ورقـم حكومي رقم .. والتي يقودها السيد ابراهيم دبوس الملقب بالضبع ، وذلك في ساحة الانطلاق ، حين كان المرحوم يحاول اللحاق بالسيارة والصعود

اليها ، وكان العمال متجمهرين أمام الحادث ، وقد جرى الكشف على جثة المرحوم من قبل قاضي التحقيق في الرقة .

وقد اعتمدت الاصابة والوفاة من قبل مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل في الرقة بموجب كتاب رقم وتاريخ . وعملا بأحكام قانون التأمينات الاجتماعية اعتبرت اصابة ووفاة العامل عايش العبد الله الحامد ، هي إصابة عمل بموجب الفقرة ج من المادة .. تأمينات . لذا استحق اهله كامل معاش الشهر الذي حدثت فيه الوفاة بموجب المادة .. من قانون التأمينات الاجتماعية . كما يستحق اهله معاشات شهرية بواقع خمسين بالمائة من اجره الشهري بموجب احكام المادة .. وعملا بالمادة .. تأمينات.

ولكن ما هذا القرار الجديد ؟. ان المديرية العامة لمؤسسة سد الفرات بناء على أحكام المرسوم التشريعي رقم .. وتعديلاته ، وعلى نظام العاملين ، وعلى مديرية الشؤون القانونية رقم ... وتاريخ ... وعلى قانون التأمينات الاجتماعية . وعلى الامر الاداري رقم ... المتضمن انهاء خدمة ... تقرر مايلي : تعتبر اصابة ووفاة السيد (وردت كلمة السيد مرة ثانية) العامل سابقا ... تعتبر هذه الاصابة هي اصابة عمل .يبلغ هذا القرار لمن يلزم لتنفيذه ..

وهذا كتاب جديد أيضا ، ففي كل لحظة يبرز كتاب جديد ، حتى بات الموظفون يتمنون لو ان عاملا لايموت . اشارة لكتابكم رقم ... وتاريخ ... ان السيد ... كان يهم بالذهاب الى قلعة جعبر مع زملائه افـراد الزمرة الاولى بتاريخ ... والساعة ... الرجاء الاطلاع واجراء ماترونه مناسبا . الى مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل . تعرض السيد ... العامل لدى المؤسسة العامة لسد الفرات لحادث بتاريخ ... ونظم مخفر

الشرطة الضبط اللازم بالحادث رقم وتاريخ .. وارسل لكم في حينه .
نرجى موافاتنا برايكم بالاضابة وفق احكام المادة .. تأمينات .. وذلك
بالسرعة الممكنة ، ليتسنى للمؤسسة دفع الحقوق المترتبة لصاحب العلاقة .

اما تقرير الشرطة فكان مثيرا للاهتمام ، ولايخلو من لمحات واقعية :
في هذا اليوم .. نحن المقعون ادناه .. النقيب .. المساعد .. الشرطي
.. ونحن في الخدمة في قيادة شرطة الرقة ، اعلمنا عن دهس شخص في
ساحة العمل في مؤسسة سد الفرات في الطبقة ، وعليه توجهنا نحن منظمي
الضبط فوراً الى مكان الحادث ، فشاهدنا شاحنة ذات رقم .. تابعة
لمشروع سد الفرات ، وشاهدنا شخصا ممددا من الجهة الجنوبية تحت
الدولاب الامامي الايمن ، وانه مفارق الحياة منذ وقوع الحادث ، وانه
في العقد الثالث من عمره ، ويدعى عايش العبد الله من قرية الخريجية
التابعة لمحافظة الرقة . وقد فهم ان السائق ويدعى ابراهيم دبوس
قد توارى عن الانظار عقب الحادث . وقد اجرينا الكشف الاولي على مكان
الحادث . شوهدت السيارة باتجاه الشرق وهي مخصصة لنقل العمال
الى عملهم . وكانت السيارة بالقرب من الطريق العام بثلاثة امتار غربا .
وان الشخص المدهوس كان تحت الدولاب الامامي الايمن تسيل من حوله
قليل من الدماء لان الارض شربت معظمها . وكان ممددا راسه باتجاه
الغرب ورجله اليسرى باتجاه الشرق ، ويرتدي بنطالا خاكيا مفكوك الازرار ،
وقد ظهر من الفتحة عضو التبول ، ويرتدي قميص عمل ، وينتعل خفافة
بلاستيك ، احدى الفردتين خارج رجله اليمنى . ومكان الحادث كان
ارضا ترابية . وشوهدت بقعة دماء على وركه الامامي الايمن . وقد
وضعنا على السيارة شرطة حراسة من الشرطة المجندين . وفي الساعة

السابعة من تاريخه ، تم سؤال احد شهود الحادث المدعو بشارة اسطفان وادلى بالشهادة التالية ، وكانت كلماته مفككة وغير واضحة . . . و . . رايته يركض وراء السيارة . . . ثم اتجه شمالا ليركب من اليمين . . ولم اشاهد المدهوس الا وقد وقع ارضا . . يتمدد . . على الارض . . واخذنا نصرخ وننادي الضبع . فلم يقف . ثم رجع الى الوراء . . ثم لم نسمع شيئا . . ولم نسمع عايش يقول شيئا . . وهو لم يقل شيئا ابدا . . ظل صامتا . . وهكذا . . ثم شرع الشاهد ينتحب . وهذه شهادة الشاهد الثاني . . ونظرت الى رفيقي فوجدت الدماء تسيل من راسه و . . . اخذ ينتحب ايضا بحيث ضاع صوته في البكاء . وفهمنا منه ان السائق واسمه الضبع قد هرب .

وعليه اعلمنا مديرية ناحية الرقة لاستدعاء هيئة الكشف ، وقمنا بالبحث الجدي عن السائق فور وقوع الحادث ، وذهبنا الى كل الامكنة فلم نعثر عليه ،واعلمتنا قيادة المنطقة لنبرق الى كل المحافظات للبحث عنه . وفي الساعة التاسعة والربع من تاريخه ،حضرت هيئةالكشفالمؤلفة من وكيل النيابة والطبيب الشرعي وتولجت التحقيق . وبعد ان قام وكيل النيابة بالتحقيق امر بتسليم الجثة الى ذويه . وقد ثبت ان اسباب الوفاة هي النزيف الغزير من الجمجمة . وهذه افادة مستلم الجثة في مكان العمل:

اسمي محمد طوقان سموح من اهالي الرقة وحاليا مقيم في الطبقة ، واعمل بقطاع التركيبات المعدنية . متاهل عربي سوري . نعم . . لقد استلمت جثة المغدور ، واني مستعد للقيام بدفنها اصولا . وهذه افادتي . .

وقد أصدر وكيل النيابة مذكرة توقيف غيابيا بالسائق ابراهيم دبوس الملقب بالضبع ، ورغم البحث المتواصل لم نعثر عليه في الطبقة . وقد

فهم أنه توارى عن الانظار ، ويحتمل لجوؤه الى قريته الاصلية طيبة الامام التابعة لمحافظة اللاذقية ، وقد اعلمنا المنطقة ببرقية لاحقة ..

قبل ان يدفن عايش العبد الله الحامد قدم من حلب طبيب جراحة ، وقال انه مكلف بتشريح الجثة . ولكن الثبوتيات اظهرت الا ضرورة للتشريح، فاستجاب لهذه الثبوتيات واكتفى بكتابة تقرير مشابه الى حد ما لتقرير الطبيب الشرعي ولكن يختلف عنه ببعض التفاصيل :

لدى الكشف على الجثة ، وجدت الاوصاف مطابقة لتقرير قاضي التحقيق والشرطة والطبيب الشرعي . وقد وجدت الجثة مهشمة بشكل جانبي . وقد تشوه الوجه وتسطح . وبفحص الجثة ، وجدت اضلاع الصدر اليسرى مكسورة كسرا تاما ، ومتبدلة منذ الضلع الثاني . وحتى الضلع العاشر . وقد وجد مشط القدم الايمن مكسورة كل عظامه . وملتويا الى الخلف . كما لوحظت وجود سمات رضيّة على طول الساق اليمنى والفخذ . هذا وقد نزف من كسور الجمجمة دم غزير ادى الى الوفاة. ويظهور اسباب الوفاة لا ارى لزوما لفتح الجثة . وقد مضى على زمن الوفاة اقل من ست ساعات . وعليه ، ونظرا لانه لم يبق مايقال أختم هذا التقرير.

لافائدة من كل هذا ، فقد خسر الشاعر ضيف الله ثلاثة من اصدقائه ومعارفه دفعة واحدة ، وبظرف اثنتي عشرة ساعة تقريبا . البعض ينسبون اليه وقوع الكوارث ، لانه يتحدث بالتركية بالدرجة الاولى . وهو لايستطيع من هذه النقطة ان يدافع عن نفسه . سليمان شاه غرق منذ حقبة او حقب طويلة في النهر ، واراد أبناؤه الذين صاروا ملوكا ان يدفنوه في مكان غرقه . هنا .. في نهر الفرات ، بين اقدام قلعة جعبر ، واصبح

سليمان شاة قديسا ، يتبارك بنافذته الزائرون ، ويتحرون له الذبائح ، فهو ذو كرامة ، يبرىء الاكمه والابرص ، ويجعل العاقر تنجب ، والغائب يعود الى أهله ، والمريض يشفى ، انه كتاب منزل او رسول من عند الله ، فلماذا يلومون ضيف الله اذا تكلم بلغته ؟. خسر ضيف الله الشاعر في يوم واحد فوازا وعايش وابراهيم ولربما سيخسر نفسه أيضا .. فمن يعلم ؟. اما المراقب نايف سعيد فقد كان يبحث عن سبيل ليبعد شبح التطير عن نفوس العمال ، فراح يحدثهم عن القضاء والقدر ، ويضع الامور في نصابها ، مبينًا بأن لكل حادثة سببا واقعيا ماديًا من صنع الانسان ، وانه لادخل للسماء بكل مايقع على الارض ، وان لاعلاقة بينهما بأي حال من الاحوال . فالسماء مشغولة بنفسها ، والارض لها مشاكلها أيضا ، وليس لأي منهما ان تتدخل بشؤون الاخرى . واذا كان الشاعر ضيف الله يرطن بالتركية ، فما ذلك الا نزوة عابرة لايمكن لها ان تسبب اي حدث من الاحداث .وكان ضيف الله هو اول من ارعوى وابعد عن نفسه لغة التشاؤم ، ومن غير المحتمل أن يكون قد اظهر حبوره فقط لارضاء المراقب نايف ، وجعله يعف عن معاقبته . لذا ما ان شاهد بدويا شيخا يصطحب زوجته العجوز ، يمران من ساحة العمل في طريقهما الى الشمال ، حتى وافته روحه الضاحكة ، فأنشد يقول :

تزوج الشيخ الى شيخة

ليس لها عقل ولاذهن

لو برزت صورتها في الدجى

ماجسرت تنظرها الجن

وقائل قد قال ماسنها

فقلت مافي فمها سن

ضحك البعض لهذه الاهزوجة، غير أن البعض الآخر ظلوا محافظين على تظاهرهم بالحزن . ولكن المراقب نايف سعيد لم يقتنع بما طرأ على الشاعر من دلائل البهجة، وكان واثقا من ان قلبه يبكي من الحزن . لذا طمأنه بانه لن يعاقبه ، وانه سيسعى لان يجعله يتبع دورة تدريبية على لحام الاوكسجين في حلب ، وسيجعله يلتحق برفيقه فواز . فرح ضيف الله لهذا الخبر ، في الوقت الذي لاحقت نايف سعيد فكرة ما اذا كان فواز جانيا بالفعل ! وقد علم بأن الشرطة قد ارسلت برقية الى قيادةشرطة حلب تعلمها بالقضية،وتطلب اليها التحقيق مع فواز هلال الذي يتبع دورة تدريب في معهد التأهيل المهني ، ولكن نايف ظل لايراوده شك ببراءة كل من يحمل هوية عامل .

اما ماحدث للضبع دبوس ، فكان الامر يختلف من ناحية تقدير الاطباء في اسباب وفاته . ففي مديرية الشؤون الادارية كان الاختلاف في الاجراءات المتخذة بشأنه وبشأن العامل عايش الحامد بسيطا ولايستحق اي جهد ولايتطلب اي تعقيد . الصيغ الكتابية نفسها لاتتبدل الا من طرف الاسماء فقط ، ولربما السن والعمل ومكان الولادة ، اما البنود الاخرى فهي واحدة . لذا تم فرز تقارير الاطباء الخاصة بابراهيم دبوس وربطها مع التقارير ، وضمها الى اضبارته . كان تقرير مديرية الشؤون القانونية فيما يختص بالسائق الضبع يتضمن : انه تبين من دراسة حالة المتوفي السائق ابراهيم دبوس قد ولد لديه حالة من الخوف الشديد التي تؤدي في اكثر الحالات الى الموت بالسكتة القلبية . وبما انه لم يلتحق بالعمل بعد الحادث ــ مما يدل على انه كان مايزال تحت تأثير الخوف ، فهذا يدل على انه اصيب بصدمة عنيفة ادت الى وفاته بالسكتة القلبية . وقد

حضر كالعادة الطبيب الشرعي ولجنة تحقيق وشرطة ، وكل من يهمه الامر .
وقد ادلى الطبيب الشرعي برأيه كتابة : انه لدى معاينة الجثة الموصوفة اعلاه — وقد وصف الجثة وحالتها اثناء الوفاة كما فعلت الشرطة — تبين انها جثة رجل في بداية العقد الخامس ، طويل القامة ، ضخم الجثة ، منفوش الشاربين ، ويسمونه الضبع من اجل ذلك . ولم يشاهد اي اثر لعنف او شدة على كل انحاء جسده . كما شوهد نزيف بسيط في انفه ، وهذا ناتج عن اندفاع الدم خارج الاوعية الدموية بعد الوفاة . وتبين ان اسباب الوفاة هي احتشاء العضلة القلبية . ولوضوح اسباب الوفاة ، لا أرى داعيا للتشريح ، ولامانع من تسليم الجثة الى ذويها لدفنها اصولا .
وقد مضى على زمن الوفاة اكثر من اثنتي عشرة ساعة ، بدليل ظهور بقع الرومية منتشرة على كافة الاطراف السفلية ، والبطن والظهر . وحمل جثة ابراهيم السائق الى قريته في محافظة اللاذقية .

هناك في قرية ابراهيم دبوس « طينة الامام » ، لايؤمن الناس بما يسمى الموت بالسكتة القلبية . يستطيع ان يسكت كل شيء في جسم الانسان دون ان يؤدي الى وفاته ، حتى اللسان نفسه الذي ما خلق الا للكلام والشجار وسوق الشتائم والتهديد والغزل ، هذا اللسان نفسه اذا صمت لايؤدي الى الموت ، فكيف بالقلب وهو الذي لايتكلم ابدا .

ودفنت جثة الرجل في جنازة حامية . وانيرت المصابيح ، وقرئت التراتيل ، وجاء المعزون طوال ثلاثة ايام . وانتهى الامر . ولكن ابراهيم المرحوم لم يمت بالسكتة القلبية ، ولم يمت قضاء وقدرا ، هناك يد اثيمة سلبت روحه من جسده ، انه رجل قوي ، عملاق ، يخشاه كل الناس ، ويخشون سلاطة لسانه وقوة بطشه ، واستطاع في حياته كما ربى اصدقاء كثيرين ربى أعداء ايضا ، ولا شك ان احد أعدائه طعنه من الخلف ، اما

انه لحق به من هنا من القرية ، او كان عدوا حديثا من اعداء العمل هناك في منطقة سد الفرات . وهناك سائقون كثيرون ، والسائقون كالعادة من أشد الناس بطشا واكثرهم عرضة لان يكونوا أعداء حقيقيين ، واستعدادا لارتكاب الشر . لقد تواطأ القاتل مع الرسميين ورجال الشرطة والقانون والطبيب الشرعي ، وجعلهم يقررون أن الرجل مات بالسكتة القلبيـــة . وبدات هذه الافكار تنتشر وتتفاقم الى أن أصبحت حديث القرية وصارت تبلغ مســـامع زوجتـــه واخـــوته واولاده يوما بعـــد يوم ، وجثـــة الرجل في التراب تزحف اليها الديدان بلا اي انتظار ، ودون اهتمام بالاسباب التي أدت الى وفاة صاحب الجثة . لاتسكتوا على الجريمة . ارفعـــوا دعوى ، طالبوا بالتحقيق . ستنالون تعويضا ، ستنالون دية من القاتل ، دية كبيرة . قتل رجل في مثل ابراهيم ستكلف غاليا . انها مسألة مسألة حياة رجل ، وليست حياة قطة او حتى بقرة او ثور . وانساق اخوة الفقيد وراء هذه الاشاعات ، التي اكتسبت على مر الايام شكلا جديدا . فلربما لم يكن القاتل سائقا . ان المرحوم كما تعلمون لسانه طويل ، لربمـــا انه شتم شخصية ذات نفوذ ، او انه وشى برئيس من الرؤساء . وهمس البعض همسا ، لربما انه تعرض بالحديث الى نظام الحكم ، فقادوه الى اقبية المباحث والمخابرات ، وفي هذه الحالة ستكون فضـــيحة كبـــرى . وسيضطر رجال الدولة الى دفع مبلغ كبير من المال لشـــراء الســـكوت ولتفادي الفضيحة . وسال لعاب أشقاء الفقيد ، وبات لديهم الركون الى الصمت ، والرضى بما قسم الله ضربا من ضروب الجبن . فأحضروا قرطاسا وقلما . وكتبوا استدعاء ، تناوب على املائه عدد من الرجال ، وهم يستبدلون كلمة مكان اخرى ، وصيغة بدل صيغة ، الى أن تم لهم الرضى عن بلاغة الكتاب وقوة تأثيره .

وذات يوم تلقى المحامي العام في مدينة اللاذقية كتابا قدمه اليه وفد من الرجال القرويين ذوي الهامات المديدة ، والشكل الموحي بقوة البأس. فأمر على الفور بتشكيل لجنة من الاطباء ورجال الشرطة للكشف على جثة المرحوم ابراهيم دبوس الذي مضى على دفنه عدد من الشهور.

ـ بناء على حاشية المدعي العام في مدينة اللاذقية والمذيلة بالاستدعاء المقدم من المدعي .... وعلى القرار المتخذ بتاريخ ... المتضمن اجراء كشف على جثة المرحوم ... وتعيين هذا اليوم .. الساعة الثانية موعدا للكشف والاختبار ، وفي اليوم والساعة المحددين توجهت انا قاضي الصلح ... يرافقني المساعد العدلي ... والاطباء ... توجهنا بالسيارة التي قدمها المستدعي الى قرية ... حيث عند وصولنا اليها ، قام أقارب المرحوم بفتح القبر الذي دفنت فيه جثة المرحوم ، وبعد ان تم نبش القبر، استخرجت الجثة الى خارجه ، حيث تعرف عليها شقيقه جورج قائلا : انها جثة شقيقي المرحوم ..

ـ وقد كانت الجثة منتفخة ، وقد بدا الفسخ عليها . وبعد أن فهم الخبراء مهمتهم ، وهي بيان أسباب الوفاة التي حدثت للمرحوم المذكور ، وبعد أن تم حلف اليمين القانونية ، قاموا بفتح الجثة ، ومعاينتها ، لاستخراج القلب .. في حين تبين لدى معاينة جثة المرحوم انها تعود لرجل في مطلع العقد الخامس ، بدين ، قوي الجسد . واثناء شق الجثة فاحت منها رائحة الصمل الجفيي والتخامل . وقد اجري شق من أعلى قاعدة عظم القص حتى الذيل الحنجري ، وسلخ الجلد لاظهار القوصرة الصدرية . كما أجري شق عمودي من الاعلى ويتجه نحو الايسر ، يبدأ من منتصف المسافة مابين الذيل الحنجري ، وقاعدة القص ، وسلخ الجلد لاظهار القوصرة الصدرية ، كما أجري شق عمودي من الاعلى أيضا

... وبعد اتمام التجريد ، قطعت الاضلاع في ناحية القلب ، وازيلت من موضعها ، فبدت عضلة القلب محاطة بالتامور. وقد سلخت العضلة القلبية عن مايجاورها ، واستخرجت من قاعدتها الى خارج الجسم ، حيث جرى فحصها من الظاهر ، فبدا وجود خثرة دموية سوداء في الشريان الاكليلي الايمن ، كما بدا وجود منطقة متليفة ، يميل لونها للسواد ، وهي المنطقة التي يرويها الشريان الاكليلي المذكور . هذا وقد فتح الشريان الاكليلي المذكور . هذا وقد فتح الشريان الاكليلي نفسه وبدت الخثرة ظاهرة للعيان . وقد اجريت مقارنة تشريحية بين شقي القلب الايمن والايسر ، فتبين ان الناحية غير المصابة ذات لون احمر فاتح قليلا ، مما يشير الى ان الاصابة شملت القسم العضلي للبطين الايمن بسبب هذه الصمامة .

وبالاستناد الى ماتقدم فاننا نقرر ان الوفاة حدثت بسبب توقف القلب الفجائي الناجم عن الخثرة المذكورة التي سدت الشريان ، وهذا الشريان هو شريان رئيسي يغذي عضلة القلب ، وان ماحدث يتناسب مع الحالة النفسية التي عاشها المصاب قبل وفاته ، حسب افادة العمال الذين شهدوا حادثة دهسه احد العمال ، كما يقول تقرير مديرية الشؤون القانونية في مؤسسة سد الفرات ، يضاف الى ذلك ، كون المصاب بدينا ، وسنه في العقد الخامس ، وليس من الضروري ان يكون المرحوم قد شكى من عوارض قلبية في السابق . اذ قد تكون الضربة الاولى قاتلة في كثير من الاحيان .

واعيدت قطع الجثة الى كفن جديد ، كومت بعضها فوق بعض دون ترتيب ، واعيد دفنها مرة ثانية ، دون ان يتقاضى اهل الفقيد اي تعويض ، الا نصف راتبه من مؤسسة سد الفرات .

١٠)

المشـــــهد الاول :	تعليـــــــــــق
● لقطـــات لاراضي مزروعة . واعشاب نامية . بعض القـــرى المنشرة على ضفتي النهر الكبير. بعض المزارعين يعملون جاهدين.	اراضي زراعية خصبة . وقرى منتشرة قائمة على مسافات ضئيلة من النهر . وسواعد تكد وتتعب حتى تعرق الجباه. مهددة بالفناء والضياع كل عام بسبب فيضان النهر .
المشـــــهد الثاني :	
● بانوراماالسهول صحراويةجرداء نبتت فيها بعض الاعشاب اليابسة .. شقوق في الارض توضـــح الجفاف .	أرض زراعية واسعة . ولكنهـــا جدراء قاحلة مقفرة . تمتد على مسافات واسعة ، تمتد علىالجزء الشمالي والشمالي الشرقي مـــن الارض السورية ، لايصل المـــاء الى هذه الارض ، ولكنها تعتمد على ماتجود به السماء البخيلة.
●حيوان ينتقل عبر هذه الارض يبحث عن عشب أخضر . ثم يرفع رأسه مناديا السماء وقد بدا عليه الهزال .	تجهد الروح فيها باحثة عن الحياة، عن الماء ، ولكن دون جدوى . فالارض جافة قاسية . والحلوق عطشى تبتهل الى السماء .
قطيع من الماشية ينتقل من عشب يابس الى آخر ولكن دون فائدة. ● راعي غنم يتصببعرقا● قرص الشمس ● يد تهوي على آلـــة في منطقة العمل بالمشروع .	من اجل هذا كله . لاجل الارض الظامئة والحلوق العطشى .لاجل الحياة يقوم العمل بانشاء ســـد الفرات العظيم .

المشهد الثالث :

- **وجه عامل يتصبب عرقا . يعمل على احد الروافع .**
- **(زوم آوت) فتظهر منطقةالعمل بالمشروع .**
- **آلات تعمل . سيارات محملة بالتراب والحجارة تسير بسرعة . (بانوراما بطيئة) للعمل كاملا.**
- **زوم بطيء نحو فوهة نفق التفتيش .**
- **رافعةتحمل حلقةبيتونيةوتقترب.**

يمتد نفق التفتيش والمراقبة المكون من الف جلقة بيتونية مسبقة الصنع على امتداد ثلاثة آلاف متر تحت جسم السد ، تتخلله على مسافات متقاربة غرف بيتونية ، تركب داخلها اجهزة قياس خاصة لمختلف الضغوط والترشحات التي تطرا على جسم السد . ليعمد الى حقنها بأجهزة خاصة بمادة الاسمنت لمنع الترشح.

يؤتى بهذه الحلقات والغرف الحلقات والغرف بواسطة الرافعات الى موقع النفق.

مشهد :

- **لقطة عامة متحركة لقطاع التركيبات المعدنية .**
- **العمال يعملون على مختلف الاجهزة .**
- **لقطات في مستودع القضبان الحديدية .**
- **قطار يتم تفريغ شحنته . وسيارات يعبئها العمال .**

يؤتى بالمواد الاولية اللازمة للعمل في هذا القطاع من الموانيء السورية بواسطة القطارات والسيارات الشاحنة الكبيرة لتفرغ حمولتها في مستودعات خاصة لهذا الغرض.

- **لقطات لرافعة ضخمة ترفع قضبانا من الحديد وتضعها فوق جسر ينتهي لفوهة صغيرة تمهيدا**

ولما كانت هذه القضبان الحديدية ذات اوزان كبيرة نتيجة لاختلاف اقطارها تنقل بواسطة روافع

لتمريرها ضمن آلة لحام.

● لقطات لعامل يقوم بجلخ وتنظيف رأس القضيب الحديدي من الصدأ قبل ادخاله في الملحمة.

مشهد :

● لقطة عامة لمجموعة ملاحم مختلفة الاحجام .

● العمال يقومون بعملية اللحام.

● لقطة لانصهار رأس القضيبين.

● لقطات لجسور أرضية يتحرك فوقها قضيب الحديد بواسطة السحب .

● تدخل القضبان ضمن عدد من المقصات الكهربائية يتناسب حجمها وقوتها مع أقطار قضبان الحديد.

● لقطات للمقصات وعملية القص . ولقطة استناد نهاية القضيب الذي يدل على الطول اللازم .

● لقطات لآلة الحني والتكييف.

● لقطات تفصيلية .

● لقطات للشكل الناتج.

● لقطات للروافع تحمل دوائر حديدية من مكان لآخر ، مع الحصائر الحديدية .

خاصة تمهيدا للحمها مع قطع اخرى ليصار الى اخذ الطول المناسب واللازم للاستعمال.

تلحم رؤوس القضبان الحديدية مهما بلغ قطرها ضمن لحامات كهربائية ضخمة توفر الطاقة والجهد ومايحتاجه العامل لعدة ساعات من العمل . كما توفر كثيرا من المواد اللازم استعمالها في عملية اللحام حيث يجعل الانصهار كاملا بين طرفي القضيب. بعد انتهاء عمليتي الانصهار واللحم تمر هذه القضبان عبر مقصات كهربائية لتجزأ حسب الاطوال المطلوبة . ومن ثم تسحب هذه القطع المعدنية الى آلة مستديرة يقال لها آلة التطعيج او تكييف القضبان حسب الشكل المراد عمله حيث تشكل احدى حلقات الهيكل العظمي الحديدي الاسطوانة النفق . ونظرا للاوزان الكبيرة التي يصبح عليها هذا الشكل الحديدي وصعوبة نقله من مكان الى آخر ، تستعمل الروافع الكهربائية الخفيفة في تحريكه من منطقة الى اخرى . ليصار الى تكملة العمليات اللازمة حتى يأخذ القضيب مكانه ضمن الهيكل العظمي للحلقة. بعد ان

● **لقطات لادخال دائرة حديدية في دائرة اخرى .**

● **لقطات لعملية التلقيط على الارض .**

● **لقطات لعملية تثبيت اللقط في مسند دائري .**

● **الرافعة تقوم بحمل الدوائر وترتيبها .**

● **لقطات لعملية تثبيت القضبان العرضانية بمسافات متساوية.**

● **لقطات تفصيليةللعمال والآلات.**

● **لقطات لعملية نقل الهيكل العظمي الى مكائن الصلب.**

مشهد :

● **لقطة لمكان صب الحلقة البيتونية وعملية رش الارض.**

● **لقطة عامة للرافعة الكبيرة تتحرك لعملية نقل القالب.**

● **لقطات لعمليات نقل الهيكل الحديدي للحلقة البيتونية وتثبيته ثم تثبيت الجدار الخارجي للقالب.**

مشهد :

● **سيارة تحمل الاسمنت من معمل**

يأخذ القضيب شكله الدائري يجمع كل قطعة من اجزاء الهيكل على شكل حلقتين كبيرتين مختلفتي الاقطار حيث يتم تلقيطهما والوصل بينهما بقطع صغيرة من الحديدذات اطوال متناسبة بواسطة اللحام الكهربائي . بعد ان يتم صنع الدوائر الحديدية للهيكل العظمي البيتونية تصف وتلقط وتربط بقطع عرضانية .

بعد أن تم تثبيت الدوائر الحديدية يصبح الهيكل للحلقة البيتونية جاهزا لملئه بالبيتون . تقوم الروافع الاطارية الكهربائية بنقل الهيكل الى مكان آخر أعد خصيصا لهذا الغرض لملئها بالبيتون.

● وتبتدىء عملية صب الحلقة بالبيتون برش الارض بالزيوت المعدنية ، تم تثبيت الجانب المعدني الداخلي للقالب بواسطة الروافع ذات الاوزان الكبيرة حيث يطلى بالزيوت . ومن ثم يؤتى بالهيكل الحديدي للحلقة ، وثبت ثم يغلف بالجانب الخارجي للقالب .

● بعد ان يصبح القالب جاهزا لملئه بالبيتون ، يؤتى بالبيتون من

جبل البيتون تفرغ حمولتها في سطل مخروطي .

● لقطات للرافعة ترفع السطل.

● لقطات للعمال فوق القالب الحديدي يفرغون البيتون داخل القالب .

● تكرار العملية .

● لقطات لعدة عمليات في القطاعات

● لقطات لعدة عمليات في القطاعات

● لقطات لعملية نزع القالب.

● لقطات للحلقات البيتونية في المستودع .

من معمل جبل البيتون بواسطة السيارات الكبيرة التي تفرغ حمولتها في وعاء مخروطي الشكل حيث يرفع بواسطة الرافعة الكبيرة الى فوهة العملية حتى النهاية . ثم يترك القالب حتى الجفاف.

● ومن ثم تنزع القوالب الحديدية فتصبح الحلقة البيتونية جاهزة.. يتم نقلها الى المستودع تمهيدا لحملها الى مكانها في خندق الكتامة.

مشـــــهد :

● لقطات لكراكات ضخمة تحمل التراب الى السيارات الشاحنة.

● عمال يقومون بنفخ الارض ثم الحفر في المجرى.

● سيارات كبيرة تحمل قواعد الحلقات .

● سيارات ضخمة تحمل القاعدة والوسادة .

● لقطات لعملية الانزال ووضع الحلقات في الخندق.

● في خندق الكتامة تقوم الكراكات الضخمة بحفر الارض وتحميل التراب على شاحنات كبيرة . ويستمر العمل هكذا حتى الوصول الى طبقة ارضية كتيمة قاسية. التي يعتمد على تنظيفها وتسويتها وفرشها باليتون . ومن ثم يؤتى بالوسائد البيتونية التي تبلغ زنة الواحدة منها سبعة عشر طنا من المستودعات بناقلات كبيرة ، ويتم انزالها فوق الطبقة البيتونية في مجرى النفق . وبعد ان تصبح تلك الوسائد جاهزة ، يتم فوقها تنزيل وتثبيت الحلقات البيتونية الكبيرة

- لقطات لعمليات غرفة حقـن في النفق .
- لقطات لتنزيل غرفة حقن.
- لقطات للعاملين.
- لقطات للمزرقين.

مشـــهد :

- لقطات لعملية الردم.
- سيارات ضخمة تنقل الاتربة وتفرغها .
- لقطـات للبلدوزرات تفـرش التراب .
- لقطات للعمال والمهندسين.
- لقطات لعمليات اخذ العينـات من طبقة الكتامة وقياسها.

التي يؤتى بها من المستودعات . وبنفس الطريقة يتم تجهيز وبنـاء غرف الحقن . اما بالنسبة لغرف الحقن والمراقبـة التـي تثبت في جسم النفق ، يتم انزالها بدءا من هيكلها الحديدي مباشرة وذلـك للاوزان الكبيرة التي تتمتع بهـا حيث يتم صبها بالاسمنت فيمكانها الاصلي . وبعد ان يتم تثبيـت الحلقات وغرف الحقن في مجرى الخندق الذي هو خندق الكتامة ، يقدم العمال المختصون بتلبيسـها مكنة تماسها ، ومن ثم تزفيتها . حيث يصبح النفق جاهزا لردمه بالطبقة الغضارية الكتيمة.

- يقوم قسم الاعمال الترابية بالعمل على ردم النفق بطبقـة غضارية كتيمة ، وضغطه حتى يصبح في كتامة معينة ، يحددها مخبر الجوتكنيك بموجب عمليات قياس خاصة ، فاذا كانت نسبة الكتامة جيدة ، تتم عمليات الردم حتى فوق مستوى النفق ، حيـث يعمد الى اتمام الردم بواسـطة التجريب الهيدروليكي .

. . . . . .

صاح عبد السلام حيدر بزميله :

ــ اين انت يا رجل وانا ابحث عنك . . .

رد نايف سعيد مشيحا بوجهه بما يشبه الخجل :

ــ كنت مع البعثة السينمائية .

وتأبط عبد السلام ذراع صاحبه باشا في وجهه :

ــ لا أظنك ماتزال حزينا !

قال نايف سعيد وقد تنبه الى انه باسم الوجه :

ــ لست حزينا الى درجة كافية . .

قال عبد السلام كمواس :

ــ لابأس ياصديقي . . سيسقط في عملنا الكبير ، الكثير من الشهداء . . فلم يبدأ العمل تقريبا بعد .

وتشاغل نايف سعيد عن مواساة صاحبه بالتفكير بأمور اخرى . .

وشدة عبد السلام من ساعده :

ــ هيا . . أنت مدعو الى عشاء فاخر . . لطالما اننا كنا صائمين فترة طويلة .

ولم يسل لعاب نايف . ولكنه وجد أن في لقائه مع جماعة قد يستعيد بعض تماسكه . وقاده عبد السلام حيدر الى اول بناء في المساكن الاقتصادية التي لم تستكمل بعد .

ــ لقد احتل صاحبنا العامل مهيار عيسى عبيد اول دار في المساكن . لانه حصل على العلامات الكافية .

ـ وسأل نايف بشغف :

ـ وكيف حصل على العلامات ؟

ورد عبد السلام ضاحكا :

ـ لقد جلب عروسا ... وهذه وحدها تعطي تسعين في المائـة من هذه العلامات .

واضاف في بهجـة :

ـ واليوم يحتفل مهيار بعيد زواجه ، فهو مايزال عريسنا .

كانت ارض البناء مفروشة ببساط قطني وبعض الحصير ، وقـد اصطف على الجوانب مهندسان وبعض العمال . وكان مهيار ـ الـذي يراه نايف سعيد عن قرب لاول مرة ـ يدخل ويخرج مرحبا بضيوفه ، وقد شمر عن ساعديه . لم يكن مهيار كهلا بالشكل الذي صوره عبـد السلام ، كما انه لم يكن دميما بصورة تجعله يستحق بها هذه الصفة . وفكر نايف : ولكن هذا ـ مع ذلك ـ لايعطيه شهادة براءة ، لطالما ان حيدر اصدر حكمه بأن الكهول والدميمين هم مؤهلون ليكونوا اعداء البشرية، وأنهم لايتورعون عن ارتكاب جرائم واغراق الفتيات في الانهار . غير أن لنايف سعيد فكرة لاتتبدل . وهي ان العمال ابعد الناس عن ارتكاب الجرائم .

كانت الجدران والسقف عارية من اي طلاء ، وقد انتشرت منهـا رائحة الخرسانة والماء ، وكان الجو رطبا عابقا . همس حيدر في اذن زميله:

ـ سنأكل ثريدا وخروفا محشيا على طريقة اهالي دير الزور .

وشده من ساعده :

ـ تعال للتعرف على العروس فهي في المطبخ ..

أصبح للعمال مطبخ وغرفة ضيوف ! ان الحياة تجري كما يُخطط لها . وغدا ستأتي الكهرباء .

مستقبل الانسان
كان
في عالم النسيان
والآن
مستقبل الانسان
بيد الانسان

قال نايف سعيد :

ـ لا ادري كيف يقضي الشاعر ايامه في حلب .

ورد حيدر :

ـ لطالما انه سيكون رفيقا ملازما لفواز فلا تخش عليه . سيعلمه كل فروض الفسق والفجور .

ولم يكن عبد السلام حيدر مبالغا . فأول عادة سيئة بدأ الشاعر يمارسها في حلب هي التدخين . وقد أرسل الى اخيه مصعب في القامشلي يطلب اليه نقودا ، وقد نفدت نقوده في الايام الاولى لوجوده في المدينة . وكان فواز يقاسمه راتبه .

انا انسان معذب
ليس لي أم ولا اب
انا انسان معذب
ليس لي في الكون مهرب

ولكن اخاه مصعبا لم يكن بالرجل السهل ، وكان يقرض الشعر ايضا ، فرد عليه دون ان يرسل نقودا :

أنا انا وحدي المعذب
لا انت ياهذا المكذب
عليّ ان اعرى واطفالي
ونسغب
ويظل المال في جيبك
نبعا ليس ينضب
فبغير الشرق والحمراء
لايرضيك مشرب
وليمت العصفور
ان ماضحك الطفل المحبب

وبالاضافة الى ممارسة التدخين ، دربه فواز على تعاطي شرب العرق ، والذهاب الى المواخير ، ووجد الشاعر في معاشرة المومسات فتحا جديدا في عالم كان لايعرف طريقا لدخوله ، ولايُعلم بعد ما اذا كانت هذه التجربة المريرة ستشحذ من موهبته الشعرية ، أم ستدفنها . ولكن الشاب كان اقوى — كما يبدو — من المؤثرات الدخيلة في حياته ، لانه خرج من ليلته الاولى التيقضاها في الماخور بهذه القصيدة :

طار قلبي فحط بين يديك
اطلقيه او عذبي لاعليك
فاذا ماظلمت في الحسن قلبي
سوف اشكو ظلمي الى عينيك

ومرة ثانية عرض عبد السلام على زميله ان يقوده الى الداخل الداخل ليعرفه على العروس « فضة » زوجة مهيار . واظهر نايف تهيبا له مايبرره ، فهو بالاضافة الى انه يخجل من النساء ، لايحمل هدية يقدمها الى العروسين ، ونبش في جيبه فوجد قطعة من فئة الخمس وعشرين ليرة . قال لزميله :

— هل تكفي هذه ؟.

ودهش حيدر :

— لماذا ؟..

قال نايف في ارتباك :

— لأقدمها للعروس كهدية .

وضحك عبد السلام مطمئنا :

— لاعليك .. سيكون هناك وقت آخر لتقديم هدية . هيا ..

ونهض الرجلان واتجها نحو المطبخ . كان هناك مهيار يقطع اللحم، وظهرا امراتين وراء موقدي الكاز الجاعرين ، وفوقهما قدران يتصاعد منهما البخار . هتف عبد السلام في حبور :

— أقدم اليكم صديقي نايف سعيد . المراقب في ورشة الر...

والتفتت المراتان :

فيا أيها الجسد المتمرد الغاضب

تذكر أنك خارج من اليم

من تلك الشطآن الصخرية الخيرة

ومن تلك الرمال البارة العطوف

كنت بالامس جسدا مرجا

وكان الدم المجنح يطفر منك

فتشبثت بحواجز الغيب

لتؤوب . . لتؤوب الى الكهوف الحميمة

لتحيا من جديد في ذكرى اليم

يا ايها الجسد المنثني عنفوانا

يا من وجدت منذ لأي

يا من صيروك في متناول اليد

ها انت ذا لن تغدو لنـــا .

بعد ان اشتد عودك .

واصبحت غاية مشتهاة ! . .

. . . . . .

● سينتهي اسلوب الزراعة البعلية في بلادنا . .

بهذا بدأ نايف سعيد المراقب مذكراته لهذه الليلة ، ولم يكن الوقت والحالة مناسبين لكتابة اية مذكرات ، ولكن الاسلوب الذي اتخذه في حياته، اسلوب العمل خاصة ، كان جديا ولايمكن أن تؤثر عليه الظروف المتقلبة، او الطوارىء مهما كانت اهميتها .

● هذا الإسلوب الذي يترك الارض نصف حياتها بلا عمل . وباعتبار أن نصف ، او اكثر من اراضينا يزرع زراعة بعلية ، معتمدا على مصادفات المطر وحدها ، فان وجود الماء سيخلق لنا حياة جديدة .

تخلف عبد السلام مع جماعته في دار مهيار ليلعب (الطرنيب) ، أما هو فلم يعش تقريبا ، تشاغل أثناء وضع العشاء بالعبث بملعقته وكان يفكر . ثم استأذن ومضى .

● ثم ان الزمن الفعلي بالنسبة لليد العاملة الريفية يلعب الدور البارز، فحين لايجد العامل الريفي عملا ، فهو يضطر الى النزوح الى المدينة ، وهذا يخلق مشكلة جديدة .

اذا كانت رؤياه حقيقية فستكون هناك قصة ، لاتعادلها قصة غرق الفتاة ، ولايصل الى مستواها اختفاء الجثة . ولكنه لم يتأكد بعد . ولاول مرة في حياته تقريباخشي ان يفاجأ . ماذا لو كان الامر صحيحا ؟ ثم ماذا لو كان الامر مجردوهم؟ . .

● كان الماء ينتج عن طريق المالك الكبير ، فاستحوذ المالك الكبير على الآلات . وعلى هذا تبقى العقبة الرئيسية في وجه تطور الآلة الزراعية هو الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمواطن .

خانته الكلمات ، وتبلبل منه التصرف ، فبدا على غاية من الخرق والشرود . حتى أن المراتين سألتا عبد السلام : مابال صاحبك يقف هكذا ؟. وكان عبد السلام واقعيا جدا ، فلم ينصرف ذهنه الى أية ناحية ، خارج جو البيت ودعوة العشاء .

● وتنتج عن ذلك ظروف هذا المواطن المعيشية القاسية . فالفلاح السوري يعيش في عوز دائم . وهو لايكاد يسد حاجاته الضرورية . وهو لايستطيع من اجل فلاحة قطعة صغيرة من الارض ، ان يستخدم الآلة أو التقنية الحديثة .

فهناك امرأتان ، أم وابنتها ، وهاهو ذا العريس مهيار . بقي هناك مسألة البيض ، فاذا تحققت هذه المسألة ، فسيكون هناك فتح جديد في عالم المعميات والالغاز .

● فالفلاح لايستطيع شراء الاسمدة والبذور ، عدا عن عدم مزاولة الاسلوب العلمي في فلاحة أرضه ومكافحة آفاتها الزراعية ، وهو مضطر في فلاحة أرضه لاستخدام ادوات بدائية لاتعطي النتائج المرجوة ، فيظل معوزا ومفتقرا الى العيش الكريم .

كل متتبعي غرق الفتاة فرضوا ان النهر حملها من الغرب حتى موقع الطبقة ، دون ان يخطر لأي منهم خاطر ، بأن الفتاة قدمت من مكان آخر غير الغرب ثم سقطت في الماء في مكان غرقا . كما أن صورها جرى توزيعها ابتداء من الحدود التركية وحتى الطبقة ، وهو الوحيد تقريبا الذي حصل على احدى صورها دون ان يكون مكلفا بمعرفتها او البحث عنها .

● وهذا يؤثر بالتالي على انتاجيته في العمل ، وعلى محصولاته الزراعية ، علما بأن السماد والماء ومكافحة الآفات الزراعية هي من اهم المواد المساعدة في زراعة الارض .

عندما تحدثتا امامه ، استعاد في ذاكرته بحّة الصوتين ، الصوت الخشن ، والصوت الانثوي (والله لأغرقنك في النهر) .. (تعثرت فسقطت البيضات) .. فهل هذان الصوتان هما الصوتان نفساهما : سأله المحقق في ذلك الحين : هل كانتا تلفظان الضاد ظاء ؟. واستغرب هذا السؤال في حينه . وعندما تحدثتا اليوم لم يرد في كلماتهما حرفا الظاء أو الضاد . انه غير متأكد من هذا .. ولكنه لايذكر .

● كانت العلاقات الاقطاعية هي التي تقف عائقا كبيرا امام تطور الانتاج الزراعي ، كما ان نسبة الاستغلال العالية التي يمارسها الاقطاعي على الفلاحين ، ثم تدخل أصحاب المال والمرابين في حياة الفلاح .. كل هذه العوامل كانت تساهم في خلق العوائق في وجه الفلاح.

— لقد أصيب بما يشبه الشلل . اذن ها هي ذي الفتاة الغريقة ، وهاهي ذي جثتها المختفية . انتهى الامر اذن .. ولم يبق هناك أي سبب للبحث والتحري ، ونشر الصور واصدار مذكرات .

● وعلى هذا ، وبالرغم من ان الزراعة هي المصدر الاساسي من مصادر دخلنا الوطني والقومي ، وبالرغم من ان الزراعة تلعب الدور الرئيسي في تجارتنا الخارجية ، وتشكل مصدر الرزق الاكبر للقسم العام من السكان ، فان هذه الزراعة تبقى متخلفة ، وتظل بلادنا في عداد البلدان التي اصطلح على تسميتها نامية.

مابرح عبد السلام ينادي العمال : ايها المتخلف . ويثور الجدل بينهما : متخلف ، نامي ، عالم ثالث ..

● لذا يبقى هذا هو الدور الاول والرئيسي للانسان العربي .وعليه ان يبادر لايجاد الاداة الايجابية الحاسمة في تطور الانتاج ، فجهود الانسان وكفاءاته ، يشكلان — اذا وجدت الاداة لديه — الباعث الحقيقي لتقدم الانتاج الزراعي .

اذن ..! هل انتهى الامر ؟. وهل لم يكن الامر غير حلم . الغريقة ؟. الجثة المفقودة ؟. اذا مثلت المرأتان امام التحقيق واعترفتا بأنهما هما اللتان

تحدث عنهما المراقب نايف سعيد ، فهل تطوى الاوراق ويعود كل امـر الى نصابه ؟..

● ويتوقف امر تطور الزراعة على القوة العاملة الواعية ، المجهزة بالوسائل والاساليب العلمية احديثة و ....

والقى المراقب نايف سعيد أوراقه مستاء ، فهو غير قادر عـلى صياغة افكاره بشكل يدعو الى الرضى والارتياح .

....

كان عمال صب الخرسانة يتحدثون عن امور بدت لهم عجيبة ، ويتحدثون عنها وكأنها معجزة من المعجزات ، ولم يكن نقل الخرسـانة وصبها في القوالب ليلهيهم عن الحديث ، وبالتالي لم يكن الحوار ليحدّ من اندفاع العمل . غير ان ماكان يطمئنهم ، هو قناعتهم التامة بأن هـذه المعجزة ستتحقق لا محالة .

ــ سنخلق بحرا .. بحرا حقيقيا على طول هذا الوادي الممتد غربا الى مالانهاية .. انظروا الى بعيد .. هل ترون شيئا ؟. سيمتد البحـر الى هنـاك . ثمانين او مئة كيلو متر ... الله أعلم .. وسيكون عرضه بين الجبلين .. انه بحرحقيقي تثيره العواصف ، وترتفع فيه الامواج .. وهنا سنسرع باكساء الميول لكي يصطدم بها الموج . كما تحدث الينا المهندس عما دالدين .

وتدخل العامل جمعة السالم قائلا :

ــ سيكون لبحرنا ــ أو بحيرتنا اذا أردنا الحقيقة ــ اسم كبير . ليس قطينة ، او العتيبة ، او الحولة ، او طبريا ..

وأهاب به شعبان الصالح :

ــ وماذا تظن بأنه سيكون اسمها ؟..

وراح البعض يحزرون :

ــ بحيرة الفرات ! بحيرة الطبقة ، بحيرة الشمس الساطعة ..

ــ ولكن جمعة السالم أصر على أن سيكون اسم البحيرة غير ذلك . ولربما اكبر من كل ذلك . وتوقع أن يكون اسمها رمزا لحاضر ومستقبل، ولربما يجمع الماضي ايضا .

وقال العامل نورس حسين :

ــ لقد رايت بحيرة خلقتها الطبيعة نفسها ، حيث تعبرها على قارب بخاري أو شراعي ، واحيانا يعبرها السباحون ، بأجسادهم العارية . انك ترى في الاعلى منحدرات وعرة متشحة بالخضرة الكثيفة ، وفي الاسفل، تحت الماء نفسه ، ترى منحدرات ايضا مغطاة بالاشجار ، ولكنها اشجار سوداء متحجرة .

وقرر المهندس رياض صلاح ان هناك بحيرات طبيعية تختفي على مر الايام ، وقد غيضتها التربة والعوامل الطبيعية ، واخرى تتسع شيئا فشيئا ولا تجف ، كبحيرتنا هذه المنتظرة ، سيجري ضخ مائها الى الاراضي فتسقيها . وستنمو النباتات وترتفع الاشجار لتلعب بها الريح ، وسيكون عندنا محطات أبقار ايضا لان هذه الابقار ستجد ما تأكله .

وهتف شعبان الصالح مشيرا بيده الى هناك .. الى بعثة سينمائية جديدة ...

عدة لقطات عامة تشكيلية لمجرى نهر الفرات في عدة أمكنة مختلفة، تظهر بعض انعطافاته وسرعة غزارته . كما تظهر على جوانبه بعض المنازل المتناثرة . وبعض الجزر الناتجة عن الفيضانات.

. . . . . .

خريطة سورية النهرية مع اسهم لتحديد الاراضي الصالحة للزراعة، يجري التصوير على خط مجرى النهر بشكل مركز . وفي لقطة تفصيلية على الخريطة ومتحركة . ثم لقطة عامة لنفس الخريطة تظهر بعض النقاط التي أجريت فيها التحريات عند موقع الطبقة ، يظهر خط دائري على الطرف الايمن من النهر يسير لموقع الطبقة ثم يليه امتداد خط عريض يقطع النهر ويشير الى مكان السد . ثم يظهر سهم يمتد من موقع الطبقة الى مدينةحلب لاظهار المسافة بينهما، تصوير حي لموقع جسم السد من الطائرة يظهر فيه امتداد نفق المراقبة والتفتيش .

. . . . . .

لما كانت سورية غنية بالاراضي الزراعية فقد اتجهت الانظار الى اقامة سد على نهر الفرات اولا لتنظيم جريانهوثانيالري الاراضي وثالثا لتوليد الطاقة الكهربائية.

وفي الماضي كلفت عدة شركات اجنبية بدراسة هذا المشروع ، ولكن التعاقد معها اصيب بالفشل، لان هذه الشركات ارادت انتفوز بحصة الاسد من هذه العملية.

وتجري الاعمال حاليا في انشاء هذا السد وهو سد ترابي في قلبه نواة كتيمة يمر خلالها نفق المراقبة والتفتيش مبني من حلقات بيتونية مسلحة.

خريطة طولية جانبية لجسم السد في خطوط بيانية اولية ، ثم تمتلىء المساحة وتمتد الى اعلى متوسطة تشكيلات من الخطوط العريضة ويليها امتلاء آخر الخطوط رفيعة تشيرالى المنسوب الاعلى.
انتقال الى لقطات حية في جسم السد . أعمال ترابية لردم جاف. أعمال تجريف ردم هيدروليكي.

وحسب التصاميم يبنى السد في مراحله الاولى حتى المنسوب ثلاثمائة وثمانين حتى المنسوب ثلاثمائة وعشرين يحتاج انشاء جسم السد في مرحلته الاولى لردميات تقدر بخمسة واربعين مليون مترا مكعبا ينفذ منها حوالي اثنان وثلاثون مليونا بطريقة التجريف الهيدروليكي والباقي بطريقة الردم الجاف .

• • • • • •

خريطة رقم ٣ مقطع عرضي لجسم السد في شكله الشبه منحرف مع اظهار درجات الميول على الجانبين . لقطة حية متحركة لعرض جسم السد من مكان يمكن اظهار شكله الشبه منحرف.

ان الابعاد التصميمية للمقطع العرضي لجسم السد الترابي المحققة لشروط التوازن والاستقرار والتخزين تقضي بأن يكون هذا المقطع على شكل شبه منحرف . عرض قاعدته ثلاثمائة واثنا عشر مترا وقمته تسعة عشر مترا وبارتفاع ثمانية وخمسين مترا ويبلغ طوله الكلي اربعة كيلو مترات ونصف الكيلو متر .

• • • • • •

لقطة متحركة تظهر الجوانب المرتفعة من اليسار واليمين للسهل الفيضاني امام جسم السد . لقطة للمحطة تظهر موقعها من السد على الضفة اليمنى . عدة لقطات قريبة لاعمال الخرسانة يظهر

سيكون امام السد بيرة مساحتها ستمائة وثمانية وعشرين كيلومترا مربعا وحجم مياهها المخزونة فيها عند المنسوب ثلاثمائة ليبلغ حوالي اثنى عشر مليار مترا مكعبا . وعلى الضفة اليمنى

فيها وجوه العمال العرب وبعض الخبراء ..

. . . . . .

لقطة شاملة لمجرى النهر يظهر كخيط لامع وسط السهلين الفيضانيين حتى المرتفعات الجانبية . الكاميرا داخل طائرة التيار لتمسح السهلين والمقالع الموجودة فيهما . الجرافات العاملة .. الانابيب الممتدة ن الجرافات الى جسم السد حتى المقالع الخلفية وراء جسم السد . لقطة راسية قريبة لمجرى النهر ومتحركة حتى تشمل جسم السد .

لقطة متحركة تسير باتجاه تيار النهر تستعرض السهلين الفيضانيين على الجانبين كلا على حدة . كما تظهر المقالع النهرية المتآكلة نتيجة لعمل الجرافات المائية فيها . مع التركيز على بعض التشكيلات الناتجة من الفيضانات المدارية للسنة .

. . . . . .

للنهر تبنى المحطة الكهربائية استطاعتها في المرحلة الاولى ثمانمائة كيلو واط ويبلغ حجم اعمالها الخرسانية من البيتون المسلح حوالي مليون ونصف مترا مكعبا .

ان الطبيعة الطبوغرافية الجيولوجية على ضفتي النهر تشكل المنطلق الاساسي في تصميم وتنفيذ منشأة المحطة الكهرمائية على امتداد محور السد والذي يتميز بوجود سرير لمجرى النهر عرضه خمسمائة متر ينحصر بين سهلين متضايقين يمتد الى المرتفعات الجانبية التي تشكل حوض الفرات . تغمر هذين السهلين الفيضانيين خلال فترة الفيضانات الشتوية الناتجة عن الامطار .

خريطة راسية طبوغرافية تبين مجرى سرير النهر . السهلان الفيضانيان امام وخلف جسم السد . المقالع النهرية . امكنة الجرافات العاملة للمقالع . امتداد خطوط الانابيب من الجرافات حتى جسم السد .

. . . . . .

خريطة تبين المقطع الجيولوجي لمنطقة سرير النهروالسهلين تتضمن الاساسات الحوارية وطبقة اللحقيات الرسوبية .

. . . . . .

خريطة تبين مقطعا جيولوجيا مجسما لجزء من هذه اللحقيات . تبين طبيعة تكوينها وتشكيلها الحَبّي . لقطات عامة لبعض المقالع تعمل بداخلها الجرافات المائية . مع التركيز على نوعية التربة الغير متجانسة في لقطات قريبة من الحوافي القائمة ذات الميول الحادة لهذه المقالع .

يبلغ عرض السهلين على الضفة اليمنى كيلو متر ونصف وعلى الضفة اليسرى ستمائة متر . وتشكل تربة هذين السهلين المورد الرئيسي في تغذية جسم السد الترابي . حددت اماكن وحجوم المقالع منها . وتقدر حجوم هذه المقالع بخمسة وثمانين مليون مترا مكعبا . تعمل حاليا داخل هذه تسع جرافات هيدروليكية . تقوم بضخ التربة الحصوية المائية داخل انابيب معدنية تمتد من الجرافات حتى جسم السد .

ان الطبيعة الجيولوجية لمنطقة السد تتميز بأساسات حوارية كتيمة صالحة لان تكون اساسا مقاوما وكتيما للمنشأة وتعلوا الحوار طبقة من اللجقيات الرسوبية

وتشكل هذه الرسوبيات من مواد حصوية رملية غرينية اثبتت التحريات الجيولوجية والتجارب المخبرية ، ان تركيبها الحبي الغير متجانس يصلح لان يكون بتركيبه الحبي وبخواصه الفيزيائية الميكانيكية .

انتقال الى المقطع الارضي للسد في لقطات قريبة وعامة تظهر فيها المناطق الثلاث مع التركيز على تركيبها الحبّي المتداخل والمشكل من مواشير جانبية وانتقالية ونواة.

. . . . . .

خريطة مقطع عرضي للسد بين حدود المواشير الثلاثة تفصلها خطوط عمودية لتبين طبيعة تكوين هذه المواشير يجري القطع بين لقطات حية ولقطات الخريطة.

. . . .

لقطات عامة وتفصيلية لحدود جسم السد وموقعه من مجرى النهر على السهل اليميني واليساري كما تظهر سدود الحماية الحالية التي تحيط بجسم السد.

. . . .

وهذه المناطق الثلاث لمقطع العرض لجسم السد ، مكونة من مواشير جانبية تتشكل من تربة حصوية رملية ولسنة ضئيلة من العناصر الناعمة التي تملأ الفراغات المسامية ، وتشكل هذه المواشير نسبة تسعين بالمئة من الحجم الاجمالي لجسم السد ، ثم منطقة انتقالية بين تربة رملية غرينية وتشكل نسبة عشرين بالمائة ، ثم نواة مركزية كتيمة في الوسط مشكلة من تربة طينية بنسبة عشرين بالمائة من الحجم الاجمالي .

وقد اقتضى تنظيم اعمال التنفيذ ضرورة حماية مواقع العمل في كل من السهلين الفيضانيين من الغمر بمياه الفيضانات باقامة سدود حماية حتى منسوب مائتين وثلاث وستين تحيط منطقة جسم السد ، ومن ثم تقسيم السد في مقطعه الطولي الى سبع مناطق:

خريطة رأسية تبين مناطق جسم السد على السهلين . ثم يمتد خط بشكل سهم . ويحيط بجسم السد الذي يفصله عن حدود مجرى النهر .

. . . .

خريطة جانبية لمقطع طولي لجسم السد بكامله ، تبين حدود المناطق السبع مع الاشارة الى جسم ومكان المحطة ثم يشار بخطوط وهمية رفيعة للمناطق السبع . ثم املاؤها اثناء تصوير الخريطة بخطوط تشكيلية مميزة للمناطق السبع .

لقطات مختلفة لاعمال ردميات جافة . تصوير حي للمقالع في عدة لقطات متنوعة تبين حدودها في مجرى النهر الاصلي وتكون الجرافات المائية تعمل بداخلها .

. . . .

منطقة اتصال المحطة الكهربائية بالضفة اليمنى . ويجري ردمها بالطريقة الجافة.

منطقة السهل الفيضاني الايمن ويجري ردمها بالطريقة الجافة.

منطقة السهل الفيضاني الايمن ويجري ردمه بالتجريف الهيدروليكي

منطقة سرير النهر ويتم ردمها بكلا الطريقتين .

منطقة السهل الفيضاني الايسر ويجري ردمها بالتجريف الهيدروليكي .

منطقة ميول السد امام انف الضفة اليسرى ويجري ردمها بالتجريف الهيدروليكي.

منطقة السد فوق انف الضفة اليسرى على امتداد الفين من الامتار تقريبا ويجري ردمها بالطريقة الجافة.

ويجري حاليا تنفيذ الاعمال بكلتا الطريقتين في مناطق الضفة اليمنى واليسرى من جسم السد. بعد ان اثبتت التحريات على ضفتي النهر امام وخلف محور السد من واقع السبور الاختبارية وجود مقالع تحتوي على الكميات اللازمة للانشاء لطريقة التجريف وبالطريقة الجافة موزعة على مقلع السهل الفيضاني على الضفة

انتقال الى الخريطة بشكل رأسي للسهلين الفيضانيين امام وخلف جسم السد . تسير اولا الى جسم السد ـ مجرى النهر ـ

• • • • •

نقاط خفيفة موزعة على السهلين تشير الى التحريات التي أجريت وذلك بحفر شبكة من السبور .

• • • •

خطوط خفيفة تشير الى حدود وامكنة المقالع امام وخلف السد . بقع مستطيلة خفيفة تشير الى اماكن بداية عمل الجرافات خطوط خفيفة تشير الى حدود المناطق التي تآكلت في المقالع نتيجة لعمل الجرافات بها .

خطوط تشير الى اماكن امتداد الانابيب في الجرافات الى اماكن التوضع .

يجري القطع بين الخريطة وبين التصوير الحي لعمل الجرافات وامتداد الانابيب .

لقطات للمواد المخلوطة تخرج من فوهة الانابيب وتتوضع في تكوين المناطق الثلاث .

اليمنى واليسرى وحجمي رسوبياتهما ، امام السد وخلفه ان الدراسات المستفيضة لطبيعة المقالع وكمياتها ونوعيتها ومواقعها القريبة من محور السد قد اقتضت اعتماد طريقة التجريف الهيدوليكي لتنفيذ ثمانين بالمائة من الردميات اللازمة لانشاء السد . لما لهذه الطريقة من مميزات عملية فنية واقتصادية تتميز بها عن التنفيذ بطريقة الردم الجاف والتي يمكن تلخيصها بأن ردم السد هيدروليكيا يؤمن تصنيف التربة ، وتوزيع الغضار والرمل والبحص في مختلف المناطق وفق المقطع العرضي للسد .

لقطـة :

جرافة تعمل على امتداد الانابيب الى جسم السد . فوهة أنبوب تنقذف منه الخليطة .

لقطات لجرافة تعمل . لقطات عامة لاحواض توضع .

تركيز على شفرات احدى في الماء .

. . . .

لقطات لبعض المقالع والجرافات المائية عائمة على سطح الماء . يظهر طبيعة عمل الجرافة على سطح الماء وبالقرب من اليابسة، وكيف انها قابلة للعوم والارتفاع.

. . . .

انتقال الى عملية نقل التربة بواسطة حفر تقوم به كراكة سائرة تقوم بعملها بصورة متتابعة.

. . . .

كما ان جميع العمليات ، بدء من الحفر الهيدروليكي للمقالع والنقل الهيدروليكي غير الانابيب وتوضع المواد في جسم السد تشكل حلقة فنية مستمرة وممكنة. كما يتوفر التبسيط في معدات الردم الهيزروليكي ، وسهولة الردم واتفاع معدلاته ، كما يستغنى عن ترتيبات الضخ او الحفر تحت منسوب المياه الجوفية.

ومن ميزات التجريف الهيدروليكي ا عدم الحاجة لانشاء سدود الحماية حول المقالع ،وتقليل عدد الكراكات والسيارات، وانقاص حجم العمال الصيانة اللازمة لها، وبالتالي انقاص استطاعة ورشات التصليح وعدد العاملين فيها وما يلزمهم من مساكن ومرافق ، وعدم انشاء طرق للسيارات العديدة التي تستعمل في النقل . ثم عدم توفر الماواد الغضارية بالكميات الكافية لانشاء نواة السد بالطريقة الجافة ، ولكنها تتوفر بعيدا مما يزيد في كلفة المتر المكعب . علما بأن التجريف الهيدروليكي هو المستعمل في معظم البلدان المتطورة.

١١

ـ اسمع ما كتبه زميلنا طارق الحج علي ، هناك كثيرون يكتبـون المذكرات مثلك .

كان المراقب عبـد السـلام حيـدر ، قـد حـز في نفسه حالـة صديقه نايف سعيد التي اضحى عليها ، منذ اصطحبه الى مهيار عيسى عبيد وزوجته ، فهو يبدو صامتا حائرا ، يأكله قلـق محض ، وتتجاذبه افكار غامضة ، فأراد ان يلهيه ويسرّي عنه .

ـ عند وصولي الى الطبقة أول مرة ، لم اكن اتوقع ان ارى فيها أي اثر لجو لطيف . كنت احمل فكرة ، هي أن الطبقة عبارة عن قطعة أرض جرداء ونهر ، القي فيهما المهندسون والعمال والخبراءوالمعدات . ولم أكن أتوقع ان ارى هناك امرأة . الا انني ـ وبعد وصولي مباشرةـ عقصتني عقرب اسود ، لا ازال حتى الآن احس بوخزتها الاليمة . ونقلني الزمـلاء الى المستوصف وهناك طالعني وجهها .

كان المراقب نايف سعيد مستلقيا على ظهره يحلم ، كان يصغي ولا يصغي ، هواجس قليلة فقط هي التي تغطي على كل شيء : استطيع أن افرض انها هي نفسها الفتاة الغريقة . ولكنها لم تغرق . او أن مهيارا وامها قد انتشلا جثتها واعـادا لها الحياة من جديد ، ثـم البساها ثوبا وجعلاها عروساً .

ـ ومن خلال ماكنت أقاسيه من الألم تبينت وجهها ، انها نحيلـة

البنية سمراء البشرة ، كل ما في وجهها ينطق بالمحبة . وسألتها عن اسمها فردت «دعد» . وفكرت : اذا قلبت هذه الاحرف ، يبقى على الاسم نفسه، وهذه سيرة قلما نحصل عليها الا في كلمات اخرى مثل ليل ، توت ، تحت ، خوخ . وجاء بعدها الطبيب ، وبعد فحصي قال : اشكر دعدا يا حضرة المهندس ، فلولاها لكان السم قد تسرب الى قلبك . وفكرت : ان شيئا ما يتسرب الى قلبي ، انه الحب . ولربما كان الحب سماً في بعض الحالات .

هذه افكار جنونية ، فالجثة تبقى جثة، حتى لو ارتدت ثوب عروس، ولكن العروس فضة كانت تتحرك وتتكلم وتبتسم . وان صورتها التي معي تشبهها كثيرا . على اية حال سأذهب اليها غدا واطلب اليها ان تنزع غطاء راسها ، وتبلل شعرها بالماء ، واطلب اليها ان تتعرى وتستلقي ، وأقارن بين الصورتين ، انها هي نفسها ، لا شك في ذلك .

ـ ومرت أيام وتلتها اسابيع ، وانا اراقب هذه الممرضة ، كنت أراها ليلا نهارا لا تنقطع عن عملها ابدا . وحسبت في تلك الفترة ، انه باعتبار انها وحيدة ولا غيرها من ممرضات ، فسيكون هذا السبب في انني أحس نحوها بالحب ، الا ان ظني لم يكن صادقا ، اذا ما لبث ان وفد الى المستوصف ثلاث ممرضات اخريات ، ومع ذلك ظلت دعد وحدها هي التي تخطف نظراتي بملامحها الحنون . وغادرت المستوصف ، ولكني ظللت ازوره دون ان تعقصني عقرب أخرى . ومازلت أزور دعدا حتى بعد أن تم بناء المستشفى ، واستلمت دعد فيه رئيسة للممرضات ، انك تراها في كل غرفة من غرف المستشفى تساعد الطبيب .

اذا نفت فضة وامها وعريسها مهيار ، بأن الفريقة هي نفسها ، فهل يتبدل الامر بالنسبة لي ! فمن تكون الفريقة الحقيقية اذن !

وما برح عبد السلام حيدر يتحدث :

ـ وكانت ترشد العمال الى كيفية استعمال العلاج . انها تظل تسعى دائماً للحصول على مستودع للادوية والمهمات الطبية ، وتدخل في نقاش طويل مع موظف الاسكان الذي لا يستجيب لحاجتها .

واذا ما اخبرت مساعد الشرطة بأن الفريقة التي وشى بي فواز هلال بشأنها ، ليست هي ، فماذا يكون الأمر . ! من تكون الفريقة اذن . ! ثم اين اختفت جثتها ؟ .

ـ صورتها الآن امامي وهي بثيابها البيضاء . أيام كانت جائحة الكوليرا تتهدد العاملين اثناء الصيف وكانت تزرع اروقة المستشفى في أوبة وذهاب ، تحمل القطن والامصال والكحول وتلقح العائلات ، نساء ورجالا واطفالا . هاهي ذي تقف الى جانب الطبيب تكشف له عن ساعد احد العمال وتعدّه لأخذ اللقاح . وهاهي ذي تحمل جهاز الحقن . ثم هي تقف فوق سرير زوجة احد العمال ، في انتظار اللحظة الحاسمة لتقوم بمساعدتها على الولادة . اذكر انها قضت ليالي طويلة الى جانب الاطفال المرضى تخفف عنهم حرارتهم . بكلماتها العذبة ، وبوضع الخروق المبتلة على رؤوسهم ، وتوصل مدّهم بالعلاج .

اكان لزاما على اذن

ان أظل كاتما أفكاري !

لبوصلة الضياع الحمقاء !

ويستانف عبد السلام حيدر الكلام :

ـ اجل . . لم تتغير دعد ابدا . برغم توارد الاطباء والمرضات ؛

وستبقى دائما تقوم بأداء واجبها الكبير في سبيل حماية صحة العاملين في السد ، ومداواة جراحهم وآلامهم . انها تعطي من الحنان مثلما تعطي من العلاج الطبي . انها تشعر بأنها تشارك في بناء السد كما يشارك الآخرون ،

سيهاجر فلاحو القرى الستين، الموجودون في سرير النهر ،لأن قراهم كلها ستغمرها مياه البحيرة .. ولكن . ! ماذا سيكون أمر المزار التركي مع عسكرييه ومخفره !

ــ وفجأة رن جرس الهاتف ، ان الطبيب مدعو الى موقع العمل في السد ، فطلبت دعد مرافقته في زيارة ليلية ، فرحب بذلك ، وخرجا للاسعاف .

مازال عبد السلام حيدر ، يورد القصص والحكايات للتسرية عن رفيقه ولجعله يبوح بأفكاره التي تعذبه ..

ــ كانت الساعة قد جاوزت التاسعة ليلا عندما اخذت السيارة طريقها الى الموقع . دقائق ، ثم بهرت الانوار عيني ، تصورت نفسي وأنا أعيش في مدينة اسطورية . وكلما اقتربنا من الانوار كانت المعالم تتوضح لنا شيئا فشيئا . وهناك رأيت عمال الليل منهمكين في العمل .

سينتقل الفلاحون مع اسرهم الى مايسمونه الحزام الاخضر، ويعطونهم اراضي يزرعونها ، اما المزار التركي وعسكريوه فالى أين هم سينتقلون !

ــ لقد انتصبت اربع روافع برجية عالية ، تقوم بنقل الهياكل المعدنية عن ظهور الناقلات ، لتضعها في اماكنها المعينة لها ، كذلك تقوم هذه الروافع ، بنقل اوعية ضخمة جدا مملوءه بالاسمنت المجبول ، لصبه في مواضع لا تطولها سواعد العمال .

سترفض الحكومة التركية نقل المزار وعسكرييه ، لان المزار هو تراث شعبي ووطني للشعب التركي ، لذا لا يمكن التفريط فيـه ، والاستهانة بشأنه .

ـ وتقدم الينا المهندس فؤاد من قطاع التركيبات المعدنية ، الذي يقوم بالاشراف على ورشات تلحيم الهياكل المعدنية . وقال : هل تنوون زيارة الرافعة ! ولم ينتظر جوابنا ، بل مضى امامنا ، ورأينا انفسنا نسير خلفه باتجاه سلم الرافعة . وفي حجرة قيادة الرافعة ، التي ترتفع حوالي خمسة وثلاثين مترا ، رأينا رجلا يقوم بكل مهارة ودقـة بتحريك ذراع الرافعة شمالا ويمينا ، ثم ينزلها في بطء ، حيث يستقر ما تحمله حلقتها من معدن فولاذي في المكان الذي يرشده اليه المهندس فؤاد .

لن تنفي فضة وامها التهديد . لقد هددت الام ابنتها فعلا باغراقها في النهر ، ولكنها لم تفعل . كان تهديدا مجردا ليس الا فهما كانتا آتيتين لزيارة الخطيب مهيار ، وتحملان له بيضا ، البيض تحطم في الظلام . ولكن! أفي هذاالوقت من الفجر يزور أحد أحدا ! فمنذ متى انطلقتا من دير الزور ليصلا في هذا الوقت ! .

ويتابع عبد السلام حيدر كلامه :

ـ ثم يأتي ثلاثة عمال يحمل كل منهم جهاز تلحيم كهربائي ، ويبدأ الثلاثة بلحم الهيكل على قطع اخرى فولاذية . وكان الاسمنت قد صب حولها وجف . والشرر المتطاير يؤذي العيون ، الا عيون العمال ، فقد كانوا يضعون نظارات واقية . وكان هناك العشرات من العمال والآليات ذوات القامات الكبيرة ، والكل في حركة دائبة لا تنقطع كخلية النحل . قوافـل ذاهبة وقوافل آيبه ، والزمن يمضي ولا يتوقف عن العمل .

تفوّق عليّ الكسندر كاراكيفيش مرة اخرى بالشطرنج ، وقد انهينا شوطنا الماضي هذه المرة في دار الصداقة . فقد بني مقر دار الصداقة العربية السورية السوفيتية اول ما بني في الحي الاول .

ــ قال فؤاد ، لم تكن هذه الوردية ورديتي ، انما كانت هناك ضرورة في ان احضر تركيب الجزء الاعلى من تسليح دعامات البوابات التي تحبس المياه ، لذا رايتني اسرع الى موقع العمل ، لانني اعتقد انه يجب ان انال وسام بطل الانتاج .

وغرق نايف سعيد بأفكاره :

كانت احجار الشطرنج مصفوفة كما تركناها في جولتنا الماضية .. وكانت تشرف على دار الصداقة فتاة لطيفة ، منتقاة لتكون صلة وصل بين المواطنين السوريين والخبراء واسمها مادلين . وبالطبع كانت انظاري موجهة الى الرقعة ، واكتفيت من الفتاة بنظرة ، دوبر فيتيشر دوبر فيتيشر ، مساء الخير وكفى ..

ــ اكداس من الحديد المفتول تقدر بمئات الاطنان ، من مختلف الاحجام والقياسات . ولفت نظري لوحة سوداء ، كتبت عليها احذر . وكانت مديرية الامن الصناعي قد نشرت لوحاتها في كل مكان . وفوجئنا بعدد كبير من الورشات تقوم بالعمل مع هذه الاكداس من الحديد ، بالاضافة الى الرافعات السيارة على سكك عالية كسكك القطارات .. هناك قص القضبان الحديدية ، حسب قياسات محددة ، وهنا تلحم هذه القضبان حسب اشكال معينة . وفي الجوانب ورشات تقوم بضم هذه القطع بعضها الى بعض ، حتى تصبح هيكلا كبيرا ، ثم تأتي جماعة اخرى

مهمتها التدقيق والفحص واجراء القياسات ـ ومن ثم يأتي دور الرافعة السيارة لتقوم بنقل الهيكل الى مكانه المعد .

كان شاهه ووزيره مهددين ، فنقل شاهه الى البيت الابيض ، وبقي وزيره مهددا بقلعتي ، فقتلته . ونظرت في وجه الكسندر فرأيته يبتسم . يا الله !ما هذه الثقة بالنفس ! إنه يحيرني ! اما انه يسخر مني فهذا امر لا وجود له على الاطلاق .

ويتابع عبد السلام حيدر حديثه :

ـ والتفتنا لنرى عاملا قصير القامة يرتدي البزة الزرقاء ويحمل بيده مصنفا ، وعلى عينيه نظارة طبية ، وقد إخذ يتفحص الهيكل مراجعا بعض الحسابات في المصنف . ثم اشار بيده الى اعلى ، فتحركت سلاسل الرافعة ، وتعلق الهيكل بالخطاف ، وبدات الرافعة بالحركة ، حركة رفع الهيكل عن الارض ! وحركة الرافعة كلها نحو الساحة المعدة للهياكل الجاهزة .

وشرع الكسندر ينقل احجاره بتؤده وحرص ، كان يقتل لي حجرا واقتل له حجرا ! نحن متساويان تقريبا ، ولكنني إتفوق عليه بوزير مقابل قلعة ، فقلعتي التي قضت على وزيره ، قضى على الفيل الاسود . وحانت لي فرصة جديدة ، فهددت له شاهه بوزيري .

ولم يكن عبدالسلام حيدر يدري بما يجول بخاطر رفيقه بل كان يسرد حكايته :

ـ وعرفت ان الرجل القصير هو مهندس من القطاعات المعدنية ، وانه مسؤول عن تفحص هياكل تسليح المحطة الكهرمائية . ان القطاعات

كلها تعمل بآن واحد ، جسم السد ، المحطة الكهربائية ، بوابات حجز المياه ، ثم نفق التفتيش الذي اشرف على الانتهاء .

وغاب نايف سعيد مع ذكرياته :

ومن اين اتى بقلعته لا أعلم . فوضعها في وجه شاهه ، وأصبح وزيري مهددا بالقلعة وحاولت ان ارفع وزيري ، فمد يده معترضا : لا .. واعتراني الذهول ، فقد كان شاهي وراء وزيري مباشرة ، واذا ابتعد وزيري مات شاهي بقلعته .

ـ وهناك حادثة اخرى .. هل انت تصغي الي يانايف !

ورد نايف سعيد شارد الفكر :

ـ نعم ..

وتابع عبد السلام حديثه ، وكان هو الآخر مستلقيا على سريره . وهما الآن في منزل جديد، قريب من دار الصداقة . منزل مبني بالاسمنت، فقد وزعت المساكن على اصحابها ، وتم الاستغناء عن الخيم والبراكات .

ـ الوقت هنا من ذهب ، بل هو اغلى من الذهب . نريد ان نسابق الزمن . وانا حين كنت استظهر الكراسات لم يكن الامر مجرد هواية ، كان عملا ككل الاعمال ، اما انت فلا ادري متى تقرأ الكراسات ومتى تحفظها .

اجاب نايف سعيد وهو مشتت البال :

ـ نعم .. فقد قضى على وزيري بطرفة عين .

وضحك عبد السلام مدركا سر اللعبة :

ـ اذن فانت تفكر بالشطرنج اليس كذلك . !

ورد نايف سعيد خجلا

ـ خطر لي ذلك الآن . .

واردف ـ كي لا يحرج صاحبه :

ـ نعم . . اكمل . .

واحس بنوع من الطمأنينة لأن صاحبه لم يكشف سرّه ، ولكنه مع هذا كان عجبا أشد العجب : كيف ان عبد السلام لم يربط بين الفريقة وبين العروسين ! قد يكون في الامر ناحية خاصة تجعل نايفا طرفا في القضية ، ولكن عبدالسلام ألم يطلع على الأمر . ! ولم يضع نايف سعيد في حسابه ان صاحبه منشغل البال في امور أخرى أكثر اهمية ، لدرجة تحيله الى امرىء عديم الفضول . ولكن الاهتمام بالأمر هل هو مجرد فضول ! غير أن عبد السلام وقد بدا هذه الليلة خليّ البال ، والأكثر ، مهتما براحة بال صاحبه ، أو انه غير نعسان ، فقد راح يتابع الحديث :

ـ بالامس حين كنت على راس ورشة عمل الخرسانة ، لقيت شابا جديدا يركب سيارة الجيب ويرتدي القميص الخاكي ، وكانت السيارة مسرعة باتجاه المحطة الكهربائية ، ولم يثر انتباهي المشهد لانه مألوف ، الا اني بعد قليل وقد تابعت الورشة عملها في صب دعامات البوابات المرتفعة ، والتي تقوم الروافع البرجية السيارة بنقل مواد بنائها ـ وكان الشاب هناك يفتح مخططا ويرسم عليه بعض العلامات والاشارات . وهنا عرفته . انه مهندس قادم من أوروبا ، وكنت قد التقيت به في المديرية يتعاقد مع الادارة من أجل العمل هنا !

وتابع نايف سعيد افكاره :

النهر ! ياله من كائن عجيب . كلماته ما تزال حية : هل تسعون لأن تجعلوني اغيّر طبيعتي ! فأنا اعرف كل شبر من هذه الارض التي اغرقها واجعلها ميتة . اني اصنع كل حبة رمل من هذه الارض .. واتحدث الى الشقوق العطشى فيها واسقيها . ولكن قل لي اذن ! من هي الغريقة . !

ـ كان في المديرية يرتدي ملابس صالحة لسهرة ممتعة ، والآن هو يرتدي بزة العمل . وبرغم اني لم اكن دهشنا لرؤيته ، فلم يجبني على سؤالي بل بادرني بسؤال آخر : هل يروقك شكلي الآن ! الا تراني قادر على العمل في السد والعيش في الصحراء ! انني الآن في مديرية التركيبات المائية والمسؤول عن المحطة انني اتفحص المخطوطات . واشار بيده الى حفرة بين قلاع الاسمنت المسلح في اسفل المكان . وقال : هنا ستستقر العنفة الأولى المولدة للكهرباء . وهناك الثانية ثم .. الى الثالثة .

انكم تحسبون بأنكم تمسكون بالعالم .. ولكنكم تجهلون كثيراً من الاشياء . فهل انتم حين تتأملون تدركون كيف تذوب اشياء الليل في النهار ، واشياء النهار في الليل ! ولكني اطمئنكم .. فلن ارضخ لكم .

ـ وتابع المهندس سهيل طحان كلامه عن العنفات : ستقوم هذه العنفات بتوليد مئات ومئات الكلواطات من الطاقة الكهربائية ، ومد القطر العربي السوري كله بالتيار الكهربائي . كما اننا سننتج الكهرباء الى الأقطار المجاورة . ونحن الآن نعد العدة لتركيب قواعد العنفات التي بدأ يتوالى ورودها تباعا ، حسب الخطة المرسومة ، والمتفق عليها مع الخبراء .

قهر .. اخضاع . ان كلمات النهر عجيبة .. الخيال يجمح بكم !!

ماذا يقصد ! انكم مع ذلك لا تيأسون . دمرت لكم منذ حين سدود الحماية، وها انتم مازلتم مصرّين على المتابعة . انكم تتجاهلون الحقيقة ، ولكنكم لن تخترعوا شيئا . وأنا لست مغرورا كما يخيل لكم ، فانا اراقب الطبيعة وهي تنمو ، وانتم لا ترون ذلك ، وهذه الطبيعة تمدني بالقوة .

ـ هل تعرف سليمان سعدو يا نايف !

وصحا نايف سعيد . فلم يكن النهر الذي يتحدث الآن ! ورد :

ـ نعم . . لا اعرفه . .

وقال عبد السلام حيدر ، ولم يسعفه التثاؤب بعد ، ولم يشأ اليوم ان يلعب الطرنيب .

ـ انه سائق سيارة التموين التي تقوم بنقل المواد لمطعم الخبراء من حلب . انه شاب مربوع القامة ، اسمر البشرة ، متوسط الطول . ما ان تبدأه بالسلام حتى يغمرك بالتاهيل والترحيب لانه يسعى لكسب ما أمكنه من الاصدقاء . وسليمان هذا هو اب لطفلتين كبراهما في الخامسة من عمرها . سألته منذ يومين : كيف ترى العمل في الطبقة اجاب في زهو : يبدأ عملي اليومي في الساعة الرابعة صباحا ، حيث اغادر الطبقة متوجها الى حلب فأصلها في السادسة والنصف على ابعد تقدير . واتجه مباشرة سوق الهال . ومعي قوائم طلبات الخبراء ..

الارض . ! تعطيك الخضرة اذا اعطيتها الماء . من قال هذا ! الارض ! ماتة من اجلها الناس من العطش ، وهم يموتون من الحب . لاشك بأنه الفراتي :

نحن قتلاه في الهوى وقديما
شفّ اباءنا واصبى الجدودا

ـ ونبدأ انا وزميلي بالانتقال من محل الى محل لنجمع ماورد في الفواتير . ثم نبدأ بتحميل ما اشتريناه . ونذهب الى الجزار لنشتري لحم العجل . ثم نأخذ طريق العودة لنصل الى الطبقة في العاشرة والنصف، فالطعام يجب ان يكون جاهزا في الثانيـة . يوميا هذا هـو عملي ، منذ سنتين ونصف تقريبا ، وقد قطعت خلال هذه المدة آلاف وآلاف الكيلو مترات من الطبقة الى حلب وبالعكس .

وشرد نايف سعيد بأفكاره :

نحن كنا نأكل علب السردين في افضل الحالات ، اما اليوم فقد اصبح لدينا مطعم العمال .

اما الخبراء ، فهم يظلون يعيشون كما لو انهم في بلادهم . والآن انهم يبنون في الطبقة مدينة خاصة بهم ، تحتوي على الملاعب والمسابح ، ودور السينما والاوبرا والنوادي . وكلهم لاعبون رياضيون ، وعازفون على الآلات الموسيقية ، وضباط سابقون في الجيش او في تنظيمات الانصار ، وفوق ذلك يتزوجون وينجبون اطفالا . ويعملون في السد .

كان عبد السلام حيدر ما زال يتكلم عن سائق سيارة الطعام :

ـ يوميا هذا هو عملي ، ولكني لم احس يوما باي تعب او ملل . فانا اشعر بأني سعيد لاني أؤدي واجبي لاولئك الذين يعملون في انشاء سدّي، فالنهر نهري والارض ارضي ، والسد سدّي ، وانا ابن هذه المنطقة . اما حياتي الخاصة فقد اعطاني مكتب الاسكان بيتا في الحي الاقتصادي يحتوي على الماء والكهرباء ، وهذان العنصران استخدمهما مجانا وبلا أيّ مقابل . وهؤلاء الخبراء .. انهم هناك في بلادهم يتمتعون بهذه المزية ،

ونحن هنا ليس عندنا جباة كهرباء ولا جباة فيجة . وهذه حسنة من حسنات العيش هنا .

وعاد نايف سعيد بأفكاره الى الفريقة :

وفضة العروس ما هي قصتها ؟

انت ايتها العروس الخجلى مائة مرة
انك تقاسين العذاب تحت ارجل الذي لا سمات له
واذا ما تجمد اساك الى الابد
واذا ما ذرفت العبرات على خطئك
فلأنك اصبحت اسما منسيا منذ الابد
على الذكرى التي تراودك .
انا مثلك يافضه
نقش محياي في الليل
وولدت باسم لم يكن قط اسمي

وانتقل عبد السلام حيدر الى جديث آخر :

— حين كان عملي على الجرافة السابقة ، وقبل انتهاء نوبة العمل لمحت منظرا اثر في نفسي . رايت الخبير زاباتنيكوف يعانق العامل رمضان الدروار : ويقول له بركاكة : انا احبيك . انت تعمل جيدا على الجرافة ، انا مطمئن . سأذهب في اجازة وبالي مرتاح . يمكن الاعتماد عليك . مرحى. واجاب رمضان : كن مرتاحا . نحن في مدرسة الحياة ، اننا نتعلم كل شيء ثم نقوم بعد ذلك بالعمل وحدنا . ورمضان في الواقع ليس بروليتاريا في الاصل ، بل هو كولاكي صغير كما يقول اخواننا السوفييت ، استولى

الاصلاح الزراعي على ارضه فاضطر للعمل في السد . وهذه هي فائـدة الاصلاح الزراعي . بالاضافة الى فوائده من الجهة الثانية . انه يأخـذ الارض ويعطي الارض . انه يجعل الناس كلهم فقراء كما يقول الاستاذ مؤيد الكيلاني المحامي .

وكما لو أن عبد السلام حيدر عرف بما يفكر رفيقه انتقل بالحديث الى هذه الناحية :

ـ كانت ارضه تعود للمشروع الرائد . وقد تم استخدامه في البداية كعامل مبتدىء . وحين بدات الجرافات الهيدروليكية العمل كان من بين الذين وقع عليهم الاختيار ليتدربوا عليها . ومرت أشهر وسنة وهو يعمل ليل نهار دون كلل أو ملل ، الى جانب معلمه الخبير زابالوتنيكوف . حتى كانت عطلة عيد الميلاد وراس السنة . فأحب الخبـير ان يقضي عطلتـه في بلاده بعد أن اطمأن الى قدرة عمالنا على العمل وحدهم .

وانتقل نايف سعيد بأفكاره الى جانب آخر :

أما فواز هلال الخبيث فهو يقضي معظم وقته بالعبث ، والذهـاب الى مخفر المزار التركي ينال حصة من لحم النذور ، ويعابث انطونينو عالم الآثار ، وقد افسد ضيف الله الشاب الغر المسكين ، ولعله ولعله يفسده الآن في حلب كما تنبأ عبد السلام .

ـ لا شك انه يخطر لك بالمناسبة العامل فواز هلال . .

ودهش المراقب نايف سعيد وصحا من اشرافه على النوم .

ـ وكيف عرفت . . ؟

ورد حيدر ضاحكا ، وقد انتشل ورق اللعب من تحت وسادته ، وراح يلعب الطرنيب لوحده .

ـ بما انني اتحدث عن العمال المتفوقين ، فلاشك ان العمال المتخلفين سيردون الى الاذهان وعندي واحد منهم . ولكن لن اضيع وقتي بالحديث عنه ، بل سأتحدث عن عامل مجد آخر ، انه لاجيء . لا . . بل هو نازح كما أطلق على أبناءالجولان . وهويعتقد ان العمل في السد هو كحرب التحرير تماما : وان بناء السد سيعمل على اعادة الجولان لاصحابها . وهو مكلف منذ مدة بالعمل مع زمرة الحفر بالسواعد . . وهو يعرف السبب في عدم استعمال الآلات بحفر ذلك الخندق الطويل .

ماذا يخطر لعقل نايف سعيد الآن ؟

اني لابصر قبالتي وأنا ارنو بطرفي

تيارا يعدو اثر تيار

ولا ينسى يعاود عدوه

دون ان يصل ابدا . .

الا الى راسي .

ـ انه يقول ان الجرافة لا تقوم بعملية الحفر التي نقوم بها بالمعاول . اولا لانها تكلف اموالا باهظة ، والساعة الواحدة من عمل الجرافة . تفوق تكاليفها عملنا ليومين كاملين ، كما أن العمل المطلوب منا

لايمكن تنفيذه بالجرافة،لأننا نقوم بشق خندق طويل توضع فيه شبكة الهاتف التي ترتبط بكافة قطاعات السد وادارته . ويأتي بعد ذلك الفنيون ليقوموا بمد الشبكة ووصلها ، ونعود نحن ثانية لردم الخندق و . .

نايف سعيد يفكر الآن :

المزار التركي ! سمعت انهم يحفرون هنـاك خندقا ، وربما انهـم سيدافعون عن المزار حين البدء بتحويل مجرى النهر، ولكن كيف يدافعون! وضد من . ؟ ضد الماء ! . هذا يدعوا الى السخرية !

ـ هل تعرف صالح الريش ؟ انه سائق شاحنة . سألته ماذا كنت تعمل قبل مجيئك الى هنا : فرد انه كان راعيا للغنم . واضاف انه يخشى السيارة ويهرب منها مسافة بعيدة ، والآن هو يقودها ، ويسيطر عليها . وقال انه عندما تعمل عنفات الكهرباء وتصل الى قريته في ناحية حلابيـا وزلابيا ، سيعود الى القرية ويتزوج امرأة يعرّيها على ضـوء الكهرباء . وسليمان ضرغام العامل الحداد في تركيبات المحطة الكهربائية . انه يرتدي جنزيرا فولاذيا تحت ملابسه على طريقة فرسان العصور الوسطى . وقال ان هذا الجنزير يحميه من السقوط من الاعلى ، فهو يصعد على ارتفاع عشرين مترا واكثر ، وقال انه ينفذ تعليمات الامن الصناعي لذا لا يخشى التعلق بين السماء والارض .

كنت في عداد أولئك
الذين قرأوا
في ضباب الطفولة روايات المغامرة والرحيل
هكذا رحت منذ ذلك الحين احترز
من فقدان توازني
عند تخـوم الدنيـا

ـ سأحدثك عما يعانيـه المراقب خليـل حمـود في قطاع لحـام الاوكسجين . .

انهم يعملون عشرين ساعة متواصلة في لحم التشقق في قضبان الحديد الناتج عن شدة البرودة . خاصة التشقق الذي يحدث في البوابة القوسية ، انهم يلحمونها اكثر من خمس مرات ، وفي كل مـرة تظهر تشققات جديدة لهذا لا يتوقفون عن اللحام ليلا نهارا .

سأتحدث الى الرفيق ايوب ابو المجد عن اعتقادي بوجـود الفريقة الظنينة ، وسيرشدني الى العودة الى الصواب . ولكن .. كيف اعود الى صوابي ؟ سينصحني دون ان يرشدني الى الطريقة . سيقول لي انتهـى الأمر ووجدت الفريقة . فهل هذا كلام ؟ . اين الفريقة بالفعل ! ومن هي ! هذا اذا كانت فِضة هي الفريقة الاصلية . شيء مضحـك . هناك غريقة اصلية وغريقة فرعية .. ياللهراء . !

ـ هـل احدثك عن سقوط العامـل عبد الرحيم تواب مـن اعلى رصيف المحطة ؟

وهتف نايف سعيد بذعر :

ـ لا .. ارجوك ..

واحس عبد السلام حيدر بالحبور ، لانه جذب انتبـاه جليسه . وقال :

ـ اذن انتبه لي وتخلَّ عن هواجسك .

ولم يشأ نايف سعيد ان يدخل زميله فيما يؤرقه ، لأنه لن يجـد حـلاً للمعضلة .

حـلاً للعضلة . ولكنه وعد بالاصغاء . واستأنف حيدر نشاطه . ان لسانه اقوى اسلحته . وهواثناء العمل في الورشة ، ان لم يجد ما يقوله يدأب على الصراخ :

ـ يا متخلف . .

وكأنه بهذه العبارة ، يمحو احقابا طويلة من الجهالة والضياع .

وشرع عبد السلام حيدر اخيرا باستظهار كراساته :

ـ اما الطبيعة الجيولوجية لمنطقة السد ، فتميز بأساسات حوارية كتيمة صالحة لان تكون اساسا مقاوما للمنشأة ، تعلوها طبقة من اللحقيات الرسوبية بسماكة وسطية قدرها عشرة امتار مشكلة من المواد الطمية التي حملها معه النهر خلال السنين السابقة . وتتشكل هذه الرسوبيات من اتربة حصوية رملية غرينية ، صالحة لان تكون مواد اولية لبناء جسم المنشأة .

لا يستطيع المرء ان يجد تفسيرا مقبولا لظاهرة رفض المستقبل الوظيفي ، من قبل قطاع واسع من الشباب في هذه الايام ، سوى ان هذا الرفض يأتي بمثابة تعبير حقيقي لمشاعر الاخفاق المريرة ، الناجمة عن سوء اختيار الطريق الحياتي لهذه الفئة من المواطنين . وهي مشاعر ظلت كامنة لفترة طويلة ، الى ان بدأ المستقبل يتوضح للشباب بصورة أكثر جلاء .

ـ وهكذا اتم ايجاد الشكل الصحيح لتصميم وتنفيذ منشأة الطبقة فنيا واقتصاديا ، انطلاقا من المعطيات الطبوغرافية الجيولوجية ، التي تقول ان السد يجب ان يكون سدا ترابيا بأقسام رئيسية ثلاثة : سدان فيضانيان على الضفتين اليمنى واليسرى ، وسد سريري لمجرى النهر .

ويكفي لمعرفة الهوة الفاصلة بين فئتين من المشاعر ، تنتمي احداهما لعالم الموظفين البائس ، والخامل ، والأخرى لعالم العاملين الحي ، هو ان يستمع المرء لهموم فئة الموظفين المحصورة بالراتب والمأذونية وايجاد

السكن . ففي حين تكشف هوية ومشاعر الموظفين عن عبودية تدفع الذات للهروب نحو عتمة اليوم ، تكشف هوية العامل عن سلطان قوي من الرغبة يستبد بالذات ويدفعها الى استباق الزمن .

ـ ان الابعاد التصحيحية لمقطع السدالترابي المحققة لشروط التوازن والاستقرار والتخزين ، تقضي بأن يكون هذا المقطع على شكل شبه منحرف بميول جانبية . ويشكل هذا المقطع على طول محور السد ، حجما من الردميات الترابية قدره ستة وثلاثون مليون مترا مكعبا . يمكن تنفيذه بطريقة الردم الجاف ، باستعمال الآليات المختلفة للحفر والردم والنقل ، او بطريقة التجريف الهيدروليكي ، باستعمال معدات وقساطل التجريف .

ان الموظف يعاني شعورا بالعبودية لانه يزاول عملا فرضته عليه ظروف الحاجة الى العيش . في حين يتجلى الشعور بالسعادة والسيادة لدى العامل لكونه يزاول عملا اختاره بنفسه .

ـ ان التجريف بالطريقة الهيدروليكية يشمل مجموعة العمليات ، المبتدئة بحفر التربة من المقلع المغمور بالماء بواسطة معدات التجريف الرئيسية ، وهي الجرافة المائية ، ثم نقل الخليطة المائية الحصوية بواسطة الضخ خلال قساطل معدنية الى مكان جسم السد .

في حين اخذ نايف سعيد يشرد بأفكاره الى تاريخ سورية :

احتلت الجيوش الفرنسية أثناء الحرب العالمية الاولى كل المنطقة الكائنة على شريط مرسين وأضنة الى الموصل . كما احتلت كل الساحل الممتد من مرسين واسكندرون حتى اناقورة . وقد تم ذلك بناء على اتفاق البلدين المتحالفين فرنسا وبريطانيا ، الذي كان يقضي بأن تسيطر فرنسا

على سورية وان تسيطر انكلترا على فلسطين والعراق وتسمى المنطقة الفرنسية (كيليكيا) وهي جزء من سورية الطبيعية .

ـ يتم تشغيل وايقاف جميع اجهزة الجرافة الرئيسية وتوجيه حركتها من غرفة القيادة ، الموجودة في اعلى الجرافة . اما القساطل العائمة المحمولة على عوامات معدنية ، فترتبط مباشرة بالجرافة . وحدث في عام الف وتسعمائة وتسعة عشر ان اعلن مصطفى كمال اتاتورك عصيانه على احكام الهدنة التي عقدتها الحكومة العثمانية مع الحلفاء قبل سنة ، فالتجأ الى جبال الاناضول وجعل من مدينة (انقره) مركزا لقيادته الانقلابية . وقد تصدت اليونان لاتاتورك مصطفى كمال ووقعت الحرب بينه وبينها .

ـ اما التوضع في الاحواض ، فيعتمد على طريقة التوضع من الجانبين الطويلين للحوض ، وذلك لتناظر المقطع العرضي للسد وفق المحور المركزي ، اي لوجود النواة الكتيمة في المنطقة المركزية . وعلى هذا الاساس يمكن تشغيل جرافتين لكل حوض . يتضح من ذلك ان هدف التجريف الهيدورليكي هو انشاء جسم السد الترابي وفق المعطيات التصميمية .

وكان واضحا اثناء العمليات الحربية ، ان بريطانيا كانت تساعد اليونان . وبما أن التناقضات بين فرنسا وانكلترا ليست خافية ، فان الحكومة الفرنسية ساندت اتاتورك وسعت الى التفاهم معه . ولذا فانها ارسلت في تموز عام الف وتسعمائة وواحد وعشرين وفدا كبيرا الى انقره ، كان يراسه افرانكلان (بويبون) رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الفرنسي .

كان الليل يتقدم ، والمراقبان يضطجعان كل على سريره . عبدالسلام

حيدر يسعى لابعاد شبح الصمت عن زميله ، ونايف سعيد يجعل صاحبة يسكت . ولكن .. وفجاة وبلا مقدمات ، حدث مالو ادركه الشابان لانفجرا ضاحكين . فقد أخذ نايف سعيد يستعيد دروسه بصوت مرتفع ، في حين راح عبد السلام يستعرض كراساته في ذاكرته

ـ وبعد مفاوضات دامت ما يقارب الثلاثة اشهر . تم توقيع الاتفاقية الفرنسية التركية في العشرين من تشرين الاول عام الف وتسعمائة وواحد وعشرين ، التي اعترفت فيها فرنسا لمصطفى كمال على انه الممثل الشرعي الوحيد للشعب التركي .

ان هدف التجريف الهيدروليكي هو انشاء جسم السد الترابي . ولتحقيق هذا الفرض ، بالاضافة الى الاعمال التنفيذية الكمية ـ التي سبق ذكرها ، ابتداء من الجرافة وحتى احواض التوضع ـ يجب اتخاذ تدابير فنية لتحقيق النوعية والشروط الفنية المطلوبة .

ـ وقد تضمنت الاتفاقية انسحاب فرنسا من جميع الاراضي الكائنة في كيليكيا ـ اي من اضنة الى الموصل ـ على ان تعود هذه المنطقة الى تركيا . وتم تخطيط الحدود السورية التركية فيما بعد على هذا الاساس. اذ اشارت معاهدة لوزان ، الموقعة في الرابع والعشرين من تموز الف وتسعمائة وثلاثة وعشرين الى ان الحدود بين سورية وتركيا هي تلك المنصوص عنها في اتفاقية انقره .

بدأ استثمار الجرافات الهيدروليكية بشكل تدريجي منذ وصول الطاقة الكهربائية الى الطبقة . واكتمل عدد الجرافات في الاستثمار بعد ذلك و ..

ـ وقد ادخل الاتراك في الاتفاقية عنصرا للتدخل الدائم في شؤون سورية . اذ تنص المادة التاسعة على ان قبر سليمان شاه ، جد مؤسس السلالة العثمانية والمعروف باسم المزار التركي والكائن في اسفل قلعة جعبر ، ان يبقى هذا المزار . مع متمماته ـ المخفر والحرس ـ ملكا لتركيا التي يمكنها ان تبقي حراسا عليه ، وان ترفع فوقه العلم التركي . وهكذا تمسكت الحكومات التركية المتعاقبة بهذا الحق المنصوص عنه بالمادة المذكورة .

صاح عبد السلام حيدر :

ـ مرحى ..

وصفق عبد السلام حيدر . قال نايف سعيد وهو يتثاءب :

ـ لقد اخفتني .. ماذا حدث لك ؟ انك لا تني تتكلم طوال الليل والنهار دون ان اهتف او اصفق . فماذا حدث !

وفسر عبد السلام حيدر الامر قائلا :

ـ اني اراك تتحدث وهذا كل مافي الامر .

ولكن نايف سعيد اراد الحد من براعة زميله . فأجاب :

ـ وما يدريك بأني كنت افكر بما أقوله ..

ولم يتخل عبد السلام حيدر عن براعته حين قال :

ـ لا .. انت لاتفكر بأمور اخرى .. وليس الشطرنج احدها على كل حال .

وطرح نايف سعيد سؤاله مطمئنا على صعوبة الاجابة عليه :

وبما تظنني كنت افكر يا ذكي ؟

قال حيدر وقد استوى فوق سريره مهيئا نفسه لطرح الموضوع بجد:

ـ انت تفكر بفضة .. وهل هي الفريقة ام لا ..

واصاب نايف سعيد ذعر لم يكن مهيئا له على الاطلاق .. ولكنه تماسك . ولم يشأ ان يستنطق رفيقه ، أو يستخلص منه الطريقة التي عرف فيها بماذا يفكر .. وقال وكأن الأمر أصبح معروفا ولا حاجة لاستقصاء خفاياه .

ـ اذن فأنت تفكر بالامر مثلي اليس كذلك . !

ورد عبد السلام حيدر بما يشبه الخبث :

ـ ليس مثلك تماما .. ولكني اكتشفت الامر بنفسي ..

قال نايف سعيد وقد فرغ صبره :

ـ وماذا اكتشفت اذن . !

رد عبد السلام حيدر وهو يتنهد وقد طار النعاس من جفونه :

ـ اكتشفت ان فضة وامها هما اللتان تشاجرتا وراء نافذتك .

وامسك نايف سعيد رجفة في اوصاله . ولكن هذه الرجفة لم تخف على عبد السلام حيدر فشرح الأمر بسهولة ودون تطويل :

ـ الصورة .. وهذا هو الامر الغريب . الفتاة لم تفرق ولكن الصورة تشبهها . وبدات اعيش لفترة في عالم الطلاسم . وبما أني لا أومن بالغيب ، فقد اكتفيت بمعجزة المصادفات . وقد جرى حديث بيني وبين المراتين، فاعترفت فضة بالامر، ولكن امها لم توضح الحادثة بشكل صريح، فقد خشيت ان تكون مسؤولة عن تهديد ابنتها .

وسأل نايف سعيد :

ـ اذن كيف وصلا في ذلك الوقت اذن !

ورد عبد السلام خيدر :

ـ أتتا من دير الزور بالسيارة ، وقد تعلطلت السيارة في الطريق ، فاضطرتا لان تناما في خيام قريبة من الطبقة تابعة لبدو الشوايا ، ثم استأنفتا طريقهما عند بزوغ الفجر . وكانتا تحملان بيضا الى مهيار .

وصمت الشابان واخذ ينظر كل منهما في عيني الآخر ، دون ان يفلحا في ايجاد اي تعليق ، أو سؤال ، أو افصاح عما يدور في خلد ... وظلا محدقين كل منهما في وجه الآخر .

. . . . . .

١٢

ظهرت قضية مزار جعبر التركي فجأة على المسرح ، وبشكل رسمي ، وراحت تتحدث عنها الصحف . والصحف لا تتحدث عن قضية رسمية لها شأن الا بايعاز . خاصة وان الصحفيين لايغادرون مكاتبهم الا في الاحوال الطارئة ، اما اذا تطلب الامر السفر الى خارج المدينة ، فيكون الامر بمثابة مغامرة تكتسب صفة الاعجوبة . واخذت الالسن تتحدث عن ان وزارة الخارجية طلبت من الحكومة التركية رفع مزارها وجندها من جعبر ، لأن الوادي سيمتلىء بالماء ويصبح بحيرة ، وان تحويل مجرى النهر بات قريبا . وكان قد تم اجلاء سكان سبع وخمسين قرية عن قراهم وتهجيرهم الى ما سمي بالحزام الاخضر ، حيث تم تأمين معيشتهم باعطائهم أراضي يزرعونها وتصبح ملكا لهم .

وذات مساء كان الخبيران ستاد شنكا فلاديمير وقسطنطين ارسنتييف يتمشيان على ضفة بحيرة المستقبل القريب ، في طريقهما لحضور حفلة الاوبرا ، التي ستقيمها فرقة الهواة من الخبراء وزوجاتهم واطفالهم . كان ستاد شيكا فلاديمير في اوائل الاربعينات ملازما اولا في الجيش . وحارب في خطوط الدفاع السوفيتية طوال ثلاث سنوات ، ثم انتقل الى الهجوم المعاكس ، وعبر مع جيوشه كثيرا من البلدان التي اصبحت دولا اشتراكية الى ان وصل الى ابواب برلين ، وهناك اصيب بشظية منعته من متابعة الهجوم حتى الوصول الى الرايخشتاغ . وهذا ما حز في نفسه كثيراً لانه لم يشترك برفع العلم فوق ساريته . اما قسطنطين ارشينييف فقد كان

يحارب في صفوف الانصار في جبهة ستالينغراد (فولغا غراد حاليا) ، وقد ادخل الكثير من الذعر في نفوس النازيين ، حتى اصبح يقول في كل مناسبة: اني اعجب لماذا يعطون كل هذه الاهمية للالمان الفاشست ، لطالما انهم كانوا يموتون من الذعر والخوف قبل ان تنفجر الالغام بين اقدامهم .

وظهرت لاعين الخبيرين قلعة جعبر عن قرب فراحا يتحدثان عنها . ثم انتقل بهما الحديث الى المزار التركي ، لطالما انهما سمعا بعض المهندسين والعمال السوريين يتحدثون عنه في اهتمام . ويتشاورون حول امكانية رفعه من مكانه . قال ارشيتييف :

ــ انهم يسمّون صاحب المزار . . او يسمون عظامه النخره بالسلطان سليمان شاه . .

قال ستاد شنكا :

ــ وهل كان سلطانا بالفعل . ؟

ورد ارستييف :

ــ لا اظن انه كان سلطانا . . فقد عرفت انه سمي فيما بعد سلطانا حينما تسلم احفاده الحكم وصاروا سلاطين . اما هو فلم يكن في الاصل غير شيخ عشيرة من الاتراك ، هاجم بلاده التتار ، فاضطر مع عشيرته الى الهرب من اواسط آسيا الى الاناضول . وحين عبرت قافلته نهر الفرات عند جعبر ، هنا في هذا الموقع ، غرق سليمان شاه في النهر ونجا حصانه . وانتشلت جثته ، ودفنه رجاله في المكان الذي غرق عنده .

وسأل ستاد شنكا :

ــ ومنذ متى حدث ذلك بالتقريب ؟ .

اجاب قسطنطين ارسيتييف :

ــ اظن بأنهم قالوا منذ سبعة قرون ونصف .

وصفر فلاديمير متعجبا . واضاف ارستيف الذي تعلم بعض اللغة العربية ، وصار يخالط العرب العاملين في السد ويستمع الى احاديثهم :

ــ وبعد غرق سليمان شاه انقسمت عشيرته الى فريقين . افراد الفريق الاول بزعامة ابنه الكبير (دوندرانيك) ويضم الرجال ذوي الراي والحصانة تشاءموا بما حدث لزعيمهم فنكصوا عائدين الى بلادهم وموطنهم الاول ، اما الفريق الثاني ، فكان يضم الشباب المغامرين بقيادة (ارطفل بيك) الابن الآخر لسليمان شاه ، وهؤلاء تابعوا مسيرتهم الى الاناضول حيث تمكن لهم الامر ، وحيث أصبح (ارطفل بيك) اميرا وتلاه ابنه عثمان فأصبح سلطانا .

وقال فلاديمير :

ــ اذن فهذا هو ضريح جد سلاطين بني عثمان . !

ورد ارستيف :

ــ هكذا سمعتهم يقولون . ويقولون ايضا انه قد عاد الى هذا الجد لقب احفاده بالمفعول الرجعي فسمي قبره قبر السلطان .

وضحك ستاد شنكا فلاديمير من جديد .

ــ كيف يأخذ اجداد الجدود من احفاد الاحفاد . فلو ان كل زعيم في بلد من بلدان العالم ، نبش قبور أجداده ، وحوّلها الى مزارات لغصت الإرض بالانبياء والرسل والقديسين وما شابه . !

ورد ارسيتيف بانتباه :

ـ وقد يحدث العكس ، ابنـاء واحفاد الزعمـاء الذين اصبحـوا متشردين ، يجب ايضا ان يعودوا الى قبور اجدادهم الرخامية المرتفعة ، فيهدموها ، ويبيعوا رخامها ليأكلوا بثمنه .

قال ستاد شنكا :

ـ وهذه هي لعنة توارث العروش ، ومن هنا تأتـي المصائب علـى الشعوب . وذلك حين يفرض عليها ملك او سلطان أو زعيم دون أن يكون لها راي بذلك ، وقد يكون هذا الملك او السلطان او الزعيم مجنونا او مأفونا اخرق ، لا يعرف كيف يدير امور حمل صغـير ، فيدير شعبا برمتـه ، ويرميه في مهاوي ليس لها قرار . واظن ان هذه هي احدى اسباب الحروب الدامية التي كانت تندلع في تلك الايام ..

واعلن ارسيتيف :

ـ وعلى كل حال ما اكثر السلاطين وما أكثر قبورهم ! ومع ذلك ، فان ضريح سليمان شاه ، المزار كما يسمونه هنا وينحرون له الذبائح ، يختلف عن امثاله من قبور السلاطين ، وذلك بما أثاره ، ويثيره حتى الآن من مشاكل سياسية ، لا تزال تسحب زيولها كل يوم .

وسأل ستاد شنكا وكأنه يطلع على الامر لاول مرة :

ـ واية علاقة بين القبور وبين المشاكل السياسية . !

طرح الخبير سؤاله عن حق ، فالقبر هو قبر ، ويخص عظاما افناها الدود والتراب ، اما المشاكل السياسية فهي تدخل شعوبا حية بكاملها في

مآزق ومشاكل وخيمة العواقب قد تؤدي الى حروب جديدة ، ان لم تؤد الى مجالس الامن والسلم وما شابه . !

وفسر ارسيتيف الأمر قائلا :

ـ سأوضح لك .. فحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان قبر سليمان شاه ضريحا مهجورا ليس له صفة .. او اية صفة رسمية ، حتى ان احفاد سليمان شاه ، سلاطين بني عثمان المتتابعين ، لـم يهتموا بقبر جدهم القديم . اما القبائل العربية التي كانت تنصب خيامها بالقرب من جدثه ، صارت تعتبره مزارا ، اعتقادا منها بأن هذا الضريح هو ضريح لولي من أولياء الله ، تنذر له النذور ، وتقسم به الايمان المغلظة . كما حدث لسيدي خمار .

ودهش ستادشنكا :

ـ سيدي خمار .. ! ومن هذا ايضا ؟ .

وضحك ارسيتيف قائلا :

ـ سمعتهم يتحدثون عنه في جمعية دار الصداقة . وذلك في مجال الحديث عن قبر سليمان شاه .

قال ستاد شنكا :

ـ من هو اذن . ؟

وعرّف ارسيتيف الأمر قائلا :

ـ هنا في سوريا يوجد كثير من المهاجرين من البلدان الاجنبية ، ويوجد كثير من القوميات الذاتية كلها في دولة واحدة ، وكلهم يتمتعون

بجنسية واحدة وبالمزايا والحقوق والواجبات نفسها التي يتمتع بها المواطن العربي ، وكثير من افراد هذه القوميات، كبار السن خاصة، لايتقنون لفظ الكلمات العربية ، فيلفظون الحاء خاء والضاد دالا والصاد سينا .. الخ وذات مرة مرت قافلة بشيخ يندب حظه ، ويبكي امام حفرة مردومة ، ويضرب كفا بكف نادبا : سيدي خمار .. سيدي خمار .. وتوقفت القافلة امام الحفرة ، وبنت فوقها ضريحا فخما مسوّرا ، صار فيما بعد مزارا ، يستقبل الوافدين من كل البقاع ليتمسحوا ببركته ، ويقرأون الادعية على روحــه .

وفرغ صبر ستاد شنكا فلاديمير وقال :

ــ حسنا .. ومن هو سيدي خمار هذا ! ومن يكون !

ولم يضحك ارسيتيف هذه المرة حين اجاب :

ــسيدي خمار هذا .. لم يكن غير حمار عادي . كان الشيخ يمتطي حماره من جهــة الى جهــة ، فنفــق حمــاره في الطريــق وراح يندبــه ويبكيه . وكان الرجل تركمانيا لا يتقن اللغة العربية فلفظ الحاء خاء .. وانتهى الامر .. اما كلمةسيدي فكان الشيخ يوجههــا الى افراد القافلة ليس الا ..

وتابع شرحه قائلا :

ــ وفجأة .. حين زالت السلطنة العثمانية من الوجود ، وقامت على انقاضها في تركيا جمهورية علمانية ، تنصلت هذه الجمهورية عن آل عثمان وسلطنتهم ، ولكنها ــ وهذا هو بيت القصيد كمــا يقول الغرب ــ جعلت لرفاة سليمان شاه هذا مكانة قومية ، وتفرغ اقطاب هذه الجمهورية ــ في

جملة ما تفرغوا ــ الى نبش تاريخه ، وجعله بطلا وطنيا ذا شأن كبير ، ورفعوا فوقه العلم . وقدطلب هؤلاء الاقطاب ــفي مفاوضات معاهدة انقرهـ ان تكون لهم ملكية قبر سليمان شاه ، فاستجاب الفرنسيون لطلبهم بكل سخاء . وهكذا احتفظت تركيا ــ بموجب تلك المعاهدة ــ بهذا الضريح ، وسوّرت الارض من حوله ، وبنت بجانبه مخفر للحراسة ، واعتبرت هذه الرقعة من الارض ، ارضا تركية ، يرتفع عليها العلم التركي ، ويتناوب الحراسة عليها جنود اتراك ،مع أن هذه البقعة ــ كما ترى ــ تقوم في الارض السورية ، وان اقرب حدود للارض التركية تبعد عنها اكثر من مائة كيلومتر .

وتعجب ستاد شنكا فلاديمير قائلا :

ــ انه امر يدعو الى الحيرة ، انه وضع غريب ! نادر المثال في كل بلدان العالم ، المتحضر منه والمتخلف .

ثم حاول استيفاء معلوماته سائلا :

ــ ولكن الا يلقى الاتراك عناء الوصول الى بقعة (هم) هذه ، التي وسط الاراضي السورية ، كلما خطر لهم تبديل الحرس ! ؟ ثم امر العناية بهم ومسألة تموينهم ! ؟ وارضاء حاجاتهم ، الجنسية خاصة !

وشرح ارسيتيف ما يعرفه من الموضوع قائلاً :

ــ قد لا يخلو الأمر من بعض الصعوبات ، ولكنهم يتمسكون بالضريح والبقعة من الارض المقام عليها تمسكا شديدا ، وهم كما يقول العرب : «يعضون عليها النواجذ» . سمعتهم يقولون في جمعية الصداقة ، أن هذا الضريح يشبه مسمار جحا . وانت لا تعرف جحا حتما . سأقول لك قصة مسماره

العتيد . فقد باع جحا داره ، ولكنه احتفظ فيها بملكية مسمار وحيد مدقوق في حائط المرحاض . وفي كل يوم وكل ساعة تقريبا ، اخذ جحا يطرق الباب على المالك الجديد ، واحيانا كثيرة يوقظه من سباته ، ويسأله الاطمئنان على مسماره المقدس . الى ان زهقت روح ذلك المالك المسكين ، ولكن جحا لم يزهق روح مسماره . وعاد ستاد شنكا يضحك لهذه القصة، في حين ان القصة شبيهتها تلك ، لا تضحك ، ولكن لا يخلو الامر من شر بلية على كل حال . غير ان فلاديمير سأل جاداً :

ـ هل يحلم الاتراك بأن يتنازل لهم السوريون عن الدار بأكملها من اجل مسمارهم ؟

ولكن ارسيتيف بدا يضع الامور في نصابها حين قال :

ـ هنا تبدأ المشكلة السياسية التي تحدثنا عنها منذ قليل . فبتغيير مجرى النهر وتحويله الذي سيتم قريبا ، سيصبح (المسمار) مهدداً بالغرق ، فاما ان تكون هناك بحيرة يحلم بها السوريون منذ امد طويل لتعمر بلدهم وتكثر نسلهم ، وتشفي رمدهم ، وتدفع شر حاسديهم كما يعبر عن ذلك شاعر هنا اسمه ضيف الله ، او . . انهم سيرضخون ،ويبقون القبر حيـّا .

وقال ستاد شنكا مقترحا عين الصواب :

ـ اعتقد ان هذه فرصةلابأس بها ، لينقل فيها الاتراك رفاة جدهم الكبير الى ارضه الأم ليحظى بالرعاية التي يستحقها .

ورد ارسيتيف موافقا :

ـ هذا هو الراي المنطقي والمعقول . ولكن كما يبدو انالجيران مازالوا

متمسكين بمعاهدة انقره المعقودة منذ اكثر من نصف قرن . وقد سمعت اليوم حديثا يجري بين مسؤولين في مديرية السد ان تركيا لن توافق على نقل الرفاة الى الارض الام .

وعاد ستاد شنكا الى التعجب :

ــ والى اين سينقلونها اذن ؟

اجاب ارنستييف :

ــ انهم يدرسون نقل الرفاة الى بقعة اخرى على النهر ، على ان تكون هذه البقعة ضمن الاراضي السورية دون ان تبارحها ، ويقول السوريون ان الاتراك هم جيران اعزاء ولا يريدون اغضابهم . وقد يوافقون على الاقتراح التركي ، لأن النهر ينبع من اراضيهم وكأن لهم فضلا في ذلك .

وضرب ستاد كفا بكف :

ــ يا للاسف ! انهم يعطون وهم احرار ما أخذ منهم وهم مغلوبون على امرهم .

قال ارستييف ليزيد في اسف صاحبه :

ــ لاتنس انهم بنوا سد كيبال على هذا النهر ، عدا عنهم قد حجزوا نهرين كاملين عن سوريا دون ان يتركوا لها من هذين النهرين قطرة ماء واحدة ، وهذان النهران هما نهر جفجغ ونهر القويق .

ولكن اسف فلاديمير في هذه المرة كان يتضمن استنكارا .

ــ واين القوانين الدولية اذن ! الم يعترض السوريون على ذلك ؟

ورفع ارستييف ساعديه ماطا شفتيه وكأنه يقول الله اعلم ..

وقبل ، أو تقريبا عند وصـــول الخبيرين الى باب السينمـــا ، التي تستخدم ايضا كدار اوبرا التقيا بـ سافجنيكو سكرتير رئيس الخبراء ، وبما أن الرجل يعيش في المديرية ، فقد كان على اطلاع على بعض الامور التي تجري هناك ، وزف اليهما خبرا مفاده : انه قد صدرت الأوامـــر بنبش القبر مرة اخرى . واجفل الخبيران ! فقد كان آخر حديث يتبادلانه هو قبر السلطان . وهذا ما خطر لهما على الفور . وسألا في اهتمام وبنبرة واحدة تقريبا . .

ـ نبشوا قبره !؟ . .

ولم يدرك سافجنيكو سوء التفاهم بعد . فأجاب :

ـ الفريقة فتاة وليست شخصا ، الا تعلمان . ؟

وتدارك الرجلان التشويش الذي حدث ، وانصرفا الى هذه القضية. انهما يعرفانها ولا شك ، ويعرفان انه قد افتقدت الفريقة في المرة الاولى . وجرى البحث عنها مرة ثانية . وفي المرة الثالثة عند الظن بأن السيل قد جرفها . اما في هذه المرة . ؟

وافصحا عن تساؤلهما علنا :

ـ ولماذا في هذه المرة . ؟

ورد سافجنيكو :

ـ علمت ان المديرية العامة تلقت كتابا من القصر العدلي في دمشق ، يرجو فيها المساعد على نبش الحفرة التي ووريت فيها الفريقة ، نظراً لأن التحقيق علم بأن المنطقة التي دفنت فيها الفتاة مليئة بالكهوف والتجاويف الاثرية ، ويخشى ان الجثة قد سقطت الى الاسفل بسبب ما . . .

فقال ستاد شنكا :

ـ ولكنهم في المرات الاولى وجدوا ان الحفرة مغلقة من جميع الجوانب، واستبعدوا فكرة ما اذا كان النهر قد خطفها من جديد ، ثم أعاد اغلاق الفوهه .

ورد سافجنيكو فارضا احتمالا ما :

ـ من يدري . ! فلرجال القانون والقضاء نظرياتهم وافكارهم .

ودخل الرجال الثلاثة باب دار السينما المتحرك ، مخلفين وراءهم امر الجثث والسلاطين ورجال القضاء والقانون .

والواقع ان المديرية العامة لسد الفرات تلقت الكتاب الذي اشار اليه سافجنيكو ، ووضعت خمسة عمال برفوشهم ومعاولهم تحت تصرف مساعد الشرطة ، وذهب هؤلاء العمال لتنفيذ مايطلب اليهم . وهناك التقوا بالعاملين العائدين من دورة التدريب ، في معهد حلب المهني ، فواز هلال وضيف الله الشبين . وعرف فواز هلال مهمة العمال فأراد أن يشاكس رجال الشرطة مرة اخرى . وكانت شرطة حلب قد تكفلت بالتحقيق معه حول الفكرة التي كانت قد خطرت لمساعد شرطة القرية ، وقد خرج ـ وهو شرطي الامن السري سابقا ـ من هذا التحقيق اسما على مسمى ، خرج فائزا . بعد ان جعل المحققين يتعرقون من الخجل . سألوه :

ـ ماذا جـ ت تفعل في القرية . !

فرد في براءة الحمل :

ـ جئت لاشتري خبزا وجبنة لاتعشى .

واعادوا السؤال نفسه :

ـ ماذا جئت تفعل في القرية . !

ففيّر اجابته الحرفية ببديل عنها مشابه :

ـ جئت لاشتري بندورة وخيارا . .

ثم اعادوا السؤال مرة اخرى ، وهذه خطة يستعملها المحققون ليكشفوا الفرق بين اجابات المستجوب ، فيمسكوا الخيط الخفي في القضية المكلفين باستقصائها . وفواز هلال ، الخبير بهذه المهنة ، اراد ان يستغل خبرته الى اقصى مدى . وبعد اسئلة واجوبة دامت بضع ساعات بكاملها ، وكان هو نفسه يتيح للشرطة ان يتابعوا سؤاله ، او يفسح لهم المجال ليطرحوا اسئلة جديدة ، طرحوا عليه السؤال الجوهري ، ولكن طرحهم كان بطريقة فجة تفتقر الى الذكاء . وهنا فكر قليلا ، واطال التفكير ليخترع مادة لاطالة الحديث ، ثم أجاب :

ـ ارجعتها الى صاحبها .

ولفترة من الوقت كادت اللعبة تنطلي على المستنطقين ، وهم يظنون انهم يمسكون بالزمام . الى ان احس فواز بالجوع ، فأنهى التحقيق بعبارة مختصرة ، ولكنها تكاد تكون عبارة صميمية : قال لهم بجد وخطورة :

ـ الجثة التي تتحدثون عنها لم تسرق في اليوم الذي كنت فيه في القرية ، بل سرقت في اليوم التالي لدفنها .

ونهض رافعا يده بالتحية :

ـ السلام عليكم .

ولسبب ما اقتنع المحققون بأن هذا العامل الخبيث ، لن يكون سارقا لاية جثة ، بالرغم من اصطناعه هيئة تدل على الثعلبية .

وخارج القرية راح العمال الموفدون من الطبقة يحملون معاولهم في مكان الدفن . ولو كان الدفانون الاولون على قليل من الخبرة ، باعتبار انهم هم انفسهم الذين حفروا المكان في المرة الاولى ، لحاولوا معرفة ما اذا كانت الحفرة قد تم نبشها في غيابهم ، قبل ان يحاولوا هم نبشها . ولكنهم ــ وتلبية لايعاز الشرطةوالمحققين الباحثين عن عفاف الفريقة ــ حفروا حفروا الارض دفعة واحدة فلم يعثروا في جينه على اي أثر . والآن يتحلق يتحلق حول عمال السد ، رجال الشرطة وفريق آخر من المحققين ، وعالم آثار استعير من قلعة جعبر ، ولم يكن انطونينو في القلعة ، فقد ذهب الى جلب ليبيع لوحاته التي رسمها خلال المدة الفائتة ، ووراء كل هؤلاء كان يقف فواز وضيف الله ، يسيطر عليهما حب الاستطلاع . ولم يلمح المساعد من كان غريمه ، لانه كان منشغلا باصدار التعليمات . أمر واحد فقط كان يخطر لاحد رجال الشرطة الذين تتبعوا القضية من بدايتها ، وهو يقف يقف الى جوار رئيسه ، يكاد ان يكون مستنفرا متوتر الاعصاب : ماذا لو انهم حفروا قليلا فوجدوا الجثة في مكانها .! وهذا امر لم يخطر لبال أحد آخر . لربما لان الخيال ، وعدم الايمان بالخوارق لا يجدان لهما مكانا في عقولهم العملية .

كان فواز يفكر وهو يشهد عملية الحفر : ترى ما هو دوري المناسب في هذه القضية ؟ وبأي منظار سينظر الي الناس لو عرفوا بأني انا الواشي ؟ والغريب في الامر ، هو أن يجهل حتى الآن ما اذا كان المعلم نايف سعيد قد عرف بأنه وشى به ، علما بأن الرفيق جمعة السالم ــ العامل الحزبي ــ

اطّلع على الامر ، ومن غير المستبعد ان يكون قد أخبر نايفا بأمره . وعلى كل حال فقد فسر المشكلة بنفسه ولنفسه ، اصبح موضوع الوشاية امرا لااهمية له، فنايف سعيد ان كان قد سمع اولم يسمع بامراة تهدد فتاة بالفرق، فان الفتاة قد غرقت . ولم يكن بمقدوره ، بأية حال ، ان يمنع وقوع الجريمة ،لانه لم يشهد تنفيذها ، اذن فنايف غير مسؤول عن شيء ، وباعتبار ان نايفا لن تكون له علاقة بالأمر ، فهوا ايضا سيكون غير مقترف أي عمل يعرضه ، حتى للوم او الملاحظة .

كان الوقت يقترب من الظهيرة ، والسماء صاحية ، والشمس تملأ السماء . الجو ربيعي ، في عنفوان ربيعه ، والرجال جميعهم يقفون هنا بلا شعور بالتعب أو الارهاق ، أو حتى السأم . وسمعت على حين غرة ضجة مباغتة من القرية ، في البداية لم تثر الضجة اي اهتمام ، كانت عيون الرجال وحواسهم معلقة بعملية الحفر ، صحيح ان احدا منهم لا تراوده فكرة العثور على الغريقة ، بل ان ذهنه منصرف الى الحفر العميق ، ليمكن الوصول ، الى فجوة او كهف أو تجويف يحتمل ان تكون الغريقة قد سقطت فيه ، ولكن الضجة تصاعدت اكثر ثم اخذت تقترب .. والتفت بعض الرجال بما فيهم مساعد الشرطة . فشاهدوا صبيا يتحلق حوله الرجال وهم يلغطون ويحركون سواعدهم ، مشيرين الى العاملين في الحفر والمراقبين ان يتوقفوا . . .

وتوقف العمال فعلا ، بانتظار وصول المجموعة القادمة ، وبينهما الصبي الذي بدا مأخوذا ، وكأنه تسبب في خلق مشكلة غير مسؤول عنها . وصاح المساعد بلهجة متعالية :

- ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟

ورد أحد رجال المجموعة في نبرة من يحمل نبأ صاعقا :

ـ يقول هذا الصبي انه قد تم العثور على الجثة ..

وحملق الرجال مدهوشين ، وقد فغرت افواههم . ولكن الصبي ، اضطر الى تصحيح ما قاله الرجل . فقال :

ـ لا .. لا .. لم يعثروا على الجثة .. بل عثروا على الفتاة ..

كان الرجال مندهشين فاغري الافواه ، أما الآن ، وبعد سماعهم كلمات الصبي ، ازدادت اماراتهم تشويها ، حتى ان حواجبهم جادت عن أماكنها . وسال من افواههم اللعاب ، ثم جف بغتة . وأحس بعضهم بالظمأ . ولكنهم ظلوا مسمرين في اماكنهم ، اقدامهم اثقال مثبتة بالارض . وتقدم المساعد من الصبي محاولا جره من عنقه ، ولكن المحقق الرئيس تدارك الأمر . وهب لمساعدة الفتى . وسأله بلهجة حاول ان تكون لطيفة ما امكن :

ـ ماذا تقول يا بني . ! من انت !

واجاب الصبي بنبرة شبه باكية :

ـ انا من الطبقة الجديدة ياسيدي .. وقد ارسلوني لاقول لكم بأنه تم العثور على فضة ..

وهتف ثلاثة رجال :

ـ ومن هي فضة . !

ورد الصبي وقد استعاد طمانينته :

ـ فضة .. هي الفتاة .. الـ .. غري .. لا .. انها لم تغرق .. بل تزوجت ..

قال المساعد متخذا هيئة حازمة ، ولكنها أبوية :

ــ ومن ارسلك اذن ! .

ورد الصبي دون جفل :

ــ ارسلني المراقب . .

وأشار بيده شرقا . .

ــ هناك . .

وفكر الجميع تقريبا : اية مداعبة سمجة يقوم بها هؤلاء الناس

وسأل المحقق بتروٍ :

ــ حسنا يا بني . . ومن هو هذا المراقب ! ما اسمه . .

ولكن المساعد تعجل قائلا :

ــ هل هو المراقب نايف سعيد !

وهز الصبي رأسه نفيا .

ــ لا . . انا اعرف المعلم نايف . .

وقال المحقق :

ــ وذاك الذي ارسلك . . ما اسمه . !

وقال الصبي :

ــ لا أعرف . . ولكنه ناداني يا مت . . خ . . لـ . . ف . .

وهنا برز فواز هلال وأعان بصراحة :

ــ انه المراقب عبد السلام جيدر . .

وتقدم من السيارة اللاندروفر :

ـ هيا .. سآخذكم إليه .. هيا يا ضيف الله تعال معي لنقود الرجال الى عبد السلام حيدر لنرى ماهي المسألة ..

وصلت سيارتا المحققين والشرطة الى المدينة . وسأل المحقق فوازا :

ـ اين يمكننا ان نجد المراقب عبد السلام ؟

ورد فواز :

ـ لابد ان يكون الآن في ورشته في مكان العمل .

واهاب المساعد بالسائق ان يتجه شمالا الى موقع العمل . وحين وصلت السيارتان الى منعطف الهبوط الى جسم السد ، تصدى لهما جندي مسلح من سرايا الدفاع . وتوقفت السيارة الاولى ، وافصح الرجال عن مهمتهم . ولكن الجندي رفض السماح لهم بالنزول . وناداه فواز :

ـ اسمع يا حبيبنا .. هؤلاء رجال شرطة ومحققون يريدون مقابلة المراقب عبد السلام حيدر .. وانا عامل في السد وهذا ايضا ، مشيرا الى ضيف الله .. وهذه هويتي ..

ولكن الجندي تمسك بموقفه ، واشار الى المساعد ان يذهبوا الى العلاقات العامة ويحصلوا على تصاريح بالنزول . واستجاب الرجال لطلبه ، وعادوا ادراجهم الى المدينة . وفي مكتب مدير العلاقات العامة افصح الرجال عن مهمتهم ، وقصروا طلبهم على مقابلة المراقب عبد السلام حيدر ، واضطر المدير ان يسألهم عن السبب . فرد المساعد :

ـ انا نريد ان نعرف منه حقيقة الخبر الذي ارسله لنا مع هذا الصبي . ولاول مرة لمح مدير العلاقات العامة الصبي حسين سواده .

فنسي الموضوع كله . ووجه سؤاله الى الصبي :

ــ ماذا تفعل هنا ايها الشقي !

وخشي ان يكون الموضوع ليس غير عبث اطفال . ولكن المدير توجه الى القادمين قائــلا :

ــ وماذا اخبركم ؟.

وشرح له المساعد الموضوع كله في اختصار . وتنبه مدير العلاقات، وبدا انه يذكر الموضوع :

ــ لعله يقصد فضة .. تلك زوجة مهيار عيس عبيد ! .

وهز الصبي راسه :

ــ نعم نعم .. هي .. هي ...

قال المساعــد :

ــ حسنا .. هل يمكننا اذن ان نقابل المراقب عبد الســلام حيدر . او نايف سعيد .. لان له صلة بالموضوع . !

ورد مدير العلاقات : مظهرا استعداده للمساعدة .

ــ انا اعرف الموضوع كله .. وقد تبيّن لنا ان الغريقة الحقيقيــة ليست من كان يظن انها هي .

وتبلبلت خواطر الرجال . ان الامر يدخل في متاهة غير متوقعة ، اما فواز وضيف الله فقد سبب لهما النبأ بلبلة اشد وطأة ، لانهمــا يعتبران نفسيهما من ذوي الصلة بالموضوع . وهنا اراد المحقق ان يثبت وجوده .

فطلب من مدير العلاقات ، ان يدلهم ، او يصحبهم الى الفتاة فضة ، ليستخلص منها بعض المعلومات . وحبذ ان يكون المراقب موجودا . فاعلن مدير العلاقات ان المراقب يصعب الوصول اليه الآن ، عدا عن الوقت الطويل الذي سيستغرقه هذا الوصول . واعلن عن استعداده لمصاحبتهم الى الحي الاقتصادي حيث يسكن مهيار عيسى عبيد واسرته .

استقبلتهم أم فضة بترحاب ، ولكن لا يخلو من التهيب . وافسحت لهم مكانا للدخول . وفرشت على الحصير فراشين ، وضعت عليهما بضع وسائد . وجلس الرجال مترقبين لحظات فاصلة . في حين ظل فواز وضيف الله واقفين . ماذا حدث هنا .. في اي عالم عجيب نحن ! وماهذه الدنيا التي تبدلت بكل هذه السرعة . !

سأل مدير العلاقات :

ـ أين هي فضة . !

وردت الأم :

ـ ذهبت الى السوق لتشتري خبزا .

وباعتبار ان مدير العلاقات لا تهمه الامور كلها ، أو انه لم يتوصل الى اهميتها فقد سأل المرأة مداعبا :

ـ ولماذا لا تخبزون على الصاج . !

وردت المرأة كما لو انها حزينة :

ـ الصاج . ! الله يرحم ايام الصاج .. لا وقوف علي ابواب الافران ولا ما يحزنون . طحين وحطب وماء .. وكل يا جوعان ..

واراد المساعد ان يطرق الموضوع بلا روية .

ـ اخبرينا اذن يا .. ام فضة ما هو اسمك انت ..

وردت المراة بخيبة لا مبرر لها :

ـ اسمي تركيـــة ..

قال المساعد :

ـ طيب يا تركية .. إنت اتيتي الى هنا مع ابنتك قبل اليـوم .. اليس كذلك .. !

وردت المراة قبل ان تدرك سبب سؤاله او ماهيته :

ـ نعم .. بالطبع آتي .. لأزور صهري مهيار ..

كان المحقق يعرف شيئا عن التحقيق السابق الذي تم اجزاؤه مـع المراقب نايف سعيد . ولكن قناعته توحي له بأن لا اهمية لبحث الموضوع السابق . ان مايهمه الآن هو : كيف انالفتاة هذه، فضة، نجت من الغرق، وكيف غرقت فتاة اخرى غيرها . وهونفسه لايدرك لماذا يربط بين الفتاتين، ولا يعرف ما هي علاقة احداهما بالأخرى . لذا ظل صامتا يستمع الـى الأسئلة التي يطرحها المساعد ، والاجوبة التي تعطيها المراة . مؤمـلا ان يستخلص منها شيئا ذا اهمية ، له صلة في النهاية بمعرفة حقيقة الغريقة ، ثم التوصل الى اختفاء جثتها .

وسأل المساعد :

ـ وفي احدى المرات اتيت صباحا مع ابنتك الى هنا وانتما تحملان بيضـا ..

وتعجلت المراة ، وقال بأسى :

ولكن البيضات تكسرت يا حضرتي

الأمر واضح تماما ، وكل شيء يسير على ما يرام . ولكن مدير العلاقات المحب دائما لإظهار خفة روحه ، قال متفكها :

ــ ولماذا لم تصنعي من البيضات المكسرات اقراص عجة ..

وردت المراة في حزم :

ــ ما هذه العجة والفجة .. انا لا اعرف ما هي .

ــ واضطر المحقق لأن يستسمح من مدير العلاقات ، ان يؤجل دعابته ، وشرع المساعد يهيء نفسه لالقاء السؤال الفاصل ، ولكنه اخذ يفكر في كيفية صياغته ، فاقل بادرة توحي بأن سؤاله سيحمل صيغة أتهامه يجعل المراة تصمت ، او تجيب بالنفي . لذا طرح سؤاله على الشكل التالي :

ــ وماذا فعلت عندما تكسرت قفة البيض ..

ورفعت المراة ساعديها في الفراغ :

ــ وماذا افعل ! حزنت على ضهري مهيار . لانه سيبقى أياما دون ان ياكل ..

وفي تلك اللحظة دخلت الفتاة فضة ، ثم همت بالتراجع ، في الوقت الذي اطلق فيه المساعد صرخة تكاد ان تكون صرخة رعب .. ولكن المراة طمانته بطيبة قلب :

ــ لا تخف يا اخي .. لا تخف .. هذه فضة ..

لقد كان الشبه بين الفتاة والفريقة يكاد ان يكون متطابقا . وبحث في جيوبه باحثا عن الصورة فلم يجدها . وانحنى على اذن المحقق هامسا :

ـ يا للعجب . ! انها هي .. هي ـ نفسها .. اقسم بشرفي وشرف عائلتي ..

ولكن المحقق لم يفهم شيئا .. حتى أنه زهد في معرفة من هي هذه ، ومن هي تلك .

هتف بلهجة مهذبة :

ـ أدخلي يا ..

وتوقف عن كلمة آنسة واستبدلها بكلمة حلوة . ولكن الأم ذكرته بلوم ، أن ابنتها اسمها فضة وليس حلوة . ولم يشأ أن يشرح لها عدم وجود فرق بين المعنتين ، ولكن مدير العلاقات يأبى ان يصمت ، فراح يشرح التشابه بين المعنيين شكلا ومضمونا . ودخلت فضة وتحت ابطها عدة ارغفة . القت التحية ، ثم توجهت الى الداخل . وفي لحظة من اللحظات طرح كل من الحاضرين سؤالا واحدا على نفسه . السؤال الوحيد ، طرحه الجميع على انفسهم : ماذا نفعل هنا ! ولأي غاية جئنا . وسادت فترة من الصمت ريثما يتأكد كل واحد من الضيوف الى اجابته على سؤاله . وبعد ذلك قرر المساعد ان ينهي الامر بطريقة فاصلة ، هي البتر المباشر . فليطلق قذيفته وليكن ما يكون :

وقال بنبرة جاهدا كثيرا أن تكون طبيعية :

ـ لقد هددت ابنتك باغراقها بالنهر اليس كذلك ..

وهنا . ومع وجوم الأم وارتباكها ـ ظهرت الفتاة من باب المطبخ . وهتفت بصوت لا يعتريه اي تهيب او حياء :

ـ نعم .. هددتني باغراقي بالنهر .. وماذا يعني هذا . ؟

الا يكفيكم انكم اغرقتم فتاة اولى . ! هل تريدون أن تغرقوني أنـا الثانية .

وأمام الماء البارد الذي سكب على رؤس الجميع اجهشت الفتـاة بالبكاء .. كان بوق سيارة الاسعاف تنطلق منذ مدة غير قصيرة ، ولكنه الآن يقترب ويقترب . ثم يتوقف . وظهر على الباب المراقب نايف سعيد وقد بدا منفعلا حاسر الرأس .

المساعد هنا . ! تفضل معنا .. لقد بترت ساق عبد السلام جيلز تحت العجلات ..

١٣

صحا العاملون في صباح يوم الاول من أيار دون أن يتخذوا له العدة في اليوم السابق . فقد كانت احداث طارئة مع ذيولها تأخذ من اهتمامهم ، وينامون وهم يفكرون بها . غير نقابة العمال . ونقابة الخبراء ، قد وضعتا امور اليوم في الحسبان واعدتا لليوم عدته . وقد باشرتا برفع اللافتات في نواصي الطرق والساحات وعلى ابواب الاماكن الهامة . وهيئت الصالة الكبيرة في مبنى النقابة لتضم الحشد الكبير الذي سيحتفل بالعيد وأهم من ذلك كله ، انه قد هيئت الخطابات ومكبرات الصوت .

وهما في طريقهما الى مكان الاحتفال سأل ضيف الله صاحبه :

ـ ومتى نقوم بالمسيرة ! قبل الخطابات ام بعدها ؟ .

ورد فواز هلال :

ـ انسيت كيف جرت الاحتفالات السابقة ؟

ولم يرد ضيف الله بأنه نسي أم لم ينس ، ولكنه ظل يذكر انه سيكون هناك مسيرة كبيرة . وكان يهيء نفسه ليقول في هذه المسيرة شيئاً هاما . فكونه عاملا بالدرجة الاولى ، ينبغي له ان يفصح عن نفسه ، وكونه شاعرا يجب أن يكون افصاحه شعرا :

عاش عمال الفرات

عاش عمال السدود

نحن من يبني البلاد

للمعالي والخلود

وفي الطريق التقيا مع شعبان الصالح وجمعة السالم وشاهر الشاهد واسطفان بشارة ، وكان هؤلاء الاربعة قد اسكنوا شقة في الحي الثالث . اما فواز هلال وضيف الله فقد سكن معهما رمضان ونورس من عمال اكساء الميول . وراح شاهد الشاهد يتحدث عن الاول من ايار ، هذا اليوم التاريخي في حياة عمال العالم ومستقبلهم وقال :

« ان العامل الذي يحاط بجو من الاستقرار المادي والمعنوي ، وتتوفر له الشروط الانسانية الضرورية للعيش ، ينتج اضعاف ما ينتجه العامل المفتقر الى عوامل الهناء والراحة والاستقرار ، اما العامل الذي تطارده الامراض وسوء التغذية وسوء السكن والخوف من الغد ، وغير ذلك من الآفات التي تشغل أفكاره ، يكون مسلوب الارادة ، وغير قادر على العطاء . من هنا نرى ان نسبة زيادة الانتاج وتطوره لدى العامل في المجتمع الاشتراكي ، تبلغ اضعاف النسبة الانتاجية في المجتمعات الراسمالية ، او المجتمعات الخاضعة للاحتلال . وقد سمعت ان وزارة النفط تؤدي لعمالها خدمات تشجيعية يمنح العمال كميات من الوقود باسعار مخفضة .

ومنحهم اسطوانات غاز مجاناً . وهذه البادرة تشكل حافزاً كبيراً للعاملين لزيادة انتاجهم وتحسين ادائهم . ويامل العمال في المؤسسات الأخرى ان تحذو هذه المؤسسات حذو وزارة النفط ، في مساعدة عمالها على مواجهة الغلاء الفاحش التي تؤدي الى خفض مستوى المعيشة والتضييق على متطلبات الاسرة .

وقال اسطفان بشارة :

ــ ان مؤسستنا ايضاً لا تبخل علينا بالعطاء ، فها هي ذي تقدم لنا السكن والماء والكهرباء مجاناً

وقال شعبان الصالح :

ـ الماء والكهرباء لم يصلا بعد الى كثير من البيوت .

ولسبب ما انشد ضيف الله :

لست ترصورا غبيا

لا . كما لست نبيــا .

انا انسان يفكر

منذ ان كنت صبيا

وضحك الرجال ، معلقا كل منهم على الشاعر ، بالصلة وغير الصلة ، بما يتحدثون به ، وبما هو يتحدث به . ولكن فواز قطع النقاش مباشرة حين هتف .

ـ اسمعوا .. لقــد علمت الشاعر القراءة ، وهــا هو ذا سيقــرأ اللافتات .

واحرج ضيف الله ووجد نفسه امام امتحان صعب . ،

ـ هيا ياضيف الله اقرأ هذه اللافتة .

وبدا ضيف الله محرجا يفكك الاحرف ، وقد التف حوله الرجال فاحصــين .

ـ الـ . ص . دا . ق . ه العربية الـ . س . و ف ي ي ت . . .

وصفق الرجال :

ـ مرحى .. مرحى الصداقة العربية السوفييتية .

وطلب اليه فواز هلال أن يقرأ اللوحة المقابلة :

ـ الـ ج . ب هـ . ة . الـ . ت ق . د م ي ة . الـ

وصفق العمال من جديد :

ــ مرحى . الجبهة الوطنية التقدمية .

ووصل العمال الى لوحة جديدة . اشار اليها فواز .

ــ وهذه .

وراح الشاعر يهجي الكلمات ببطء .

ــ ال . ح . ر . ك . ة . ال . ت . ص . حي . حي حي ..

وفرغ صبر جمعة السالم ، فصرخ في وجهه .

ــ الحركة التصحيحية ايها الأمي ..

ثم التفت الى فواز لائماً .

ــ انك اسوأ معلم رأيته في حياتي يهاأ المهمل .

ولم يستأ فواز لهذا اللوم . ولكنه تابع استقراء تلميذه . وهذه اللافتة هناك . اقراها ايها التلميذ النجيب . واستأنف الشاعر يهجي الحرف :

ــ ال ر ف ي ق ..

ولكنه شهق فجاة ، وكانه عثر على غنيمة :

ــ انظروا ..

وانتبه العمال الى ما يمكن انه قد اكتشفه .

ــ ماذا . !

هتف الشاعر وقد ملأت اماراته النشوة :

ــ الحروف نفسها . الفاء والراء والقاف والياء وال ..

ثم لزم الصمت ، محتفظا بموهبة ذكائه ، كما أن شاهدا وإسطفان لم يتابعا كلامهما ، وكأن الجميع نصبوا انفسهم حكاما للفصل في موهبة جمعة السالم وقدرته على التمييز .

وراح الشاعر يعتذر عن قراءة لافتات جديدة ، خشية ان تثير قراءته المبتدئة نقاشا قد يثير الحفائظ . وعند باب ندوة العمال اراد فواز أن يستعمل سلطته المفقودة . فرفع ساعده ممدا سبابته عن الاصبع الموسطى متمثلا وضعا عسكريا ! وهتف :

ـ رتلا ثنائيا . . اسماء الاشهر الى اليمين ، اسماء الأيام الى اليسار .

ولمح فجأة عبد الاحد حبيب يسير مع الحاج . فاستأنف إيعازاته :

ـ عبد الاحد مع الايام الحاج مع الشهور . .

ولكن نادرته لم تلق اهتماما ، ودخل العمال ندوة الاحتفال . كان المراقب نايف سعيد يقف هناك قرب المنصة . لم يكن حزينا كما كان متوقعا ! ولم يكن شارد الذهن ايضا ، او هذا ما كان توحي به سيماه المنظورة . ان فقد المراقب عبد السلام حيدر لساقه البارحة سبب حزنا للكثيرين ، بما فيهم زميله نايف ، ومن المفروض إن يكون نايف سعيد أشدهم حزنا ، ولكنه الآن يبدو وكأنما هو خلي البال . إلا ان الرجل يمتاز ، لا بمقدرة منع نفسه عن اجترار الهموم ، بل باخفاء ما يعتلج في نفسه . والواقع ان أمرا هاما يثير انتباهه ويعتمل في نفسه منذ فترة طويلة ، وذلك منذ ان بوشر باكساء ميول السد ، فكان يقول في نفسه « انا الآن مراقب عمال ليس الا ، وهذا العمل ليس مهنة ، وبالتالي ليس وظيفة . اذن فانا بمهنة مؤقتة . وغدا عندما ينتهي بناء السد ، وينتقل العاملون الى المشروع الزائد ، والمزارع

المنوفيجية التي يسترتوي من مياه النيل ، اصبح انا بلا عمل . اما اذا نقلت مع العاملين الى الاراضي الزراعية فلن اكون غير مراقب ايضا ، ولكن مراقبه على ماذا ! ؟ هل اراقب عمل الحاصدات او آلات قطف القطن ، او زارعات الذرة والارز ؟ وهل هناك يحتاج الامر الى مراقبين ! قد اعين مديرا لاحد الاعمال ، ولكن هذه الادارة ايضا ستكون مهمة مؤقتة . وهكذا كان المراقب نايف سعيد يحاول جاهدا ان ينشيء لنفسه مستقبلا . ولعل موضوع الكلمة التي هيأها ليلقيها في احتفال اليوم ستدور حول هذه القضية . وكان قد اعتذر عن ان يكون مفتتحا للاحتفال او مقدما للخطباء لانه سيكون هو نفسه خطيبا . وكان الخبراء يحتفلون بعيد اول أيار في قاعة السينما الخاصة بناديهم ، تحت شعار ، يا عمال العالم اتحدوا ، منوهين بما لثورة اكتوبر العظمى من مدلولات صميمية وقاطعة ، على ان العمال هم الطبقة الوحيدة التي بيدها الحكم المطلق والحاسم في تقرير مجد البلاد وتطورها ومستقبلها .

افتتح احتفال نقابة العمال ، بالوقوف دقيقة صمت على أرواح شهداء الطبقة العاملة في القطر ، وشهداء سد الفرات في مقدمتهم ، وكان عددهم حتى ذلك الحين قد بلغ الثلاثين شهيدا . ثم اعطيت الكلمة لرئيس النقابة عز الدين صالح المحمود الذي استهل كلمته بالاشادة بالحركة التصحيحية ، معتبرا هذه الحركة منعطفا تاريخيا ، لها أهميتها على المستوى القومي والجماهيري والحزبي ، لانها تبلور خط المسيرة السياسي على اسس واقعية وثورية ، وتعمل على اغناء الفهم العلمي ، وتوضيح افكار المناوسة الثورية لمجمل القضايا العربية ، وبلورة حركتها التحررية . ثم ثم تحدث عن الدور النضالي في الرد على جميع المخططات الاستعمارية

والصهيونية ضد الشعب والامة العربية ، ونوّه بان القضية الفلسطينية ، هي محور السياسة العربية ، وحدد العلاقة مع الدول الأخرى على اساس موقفها من القضية الفلسطينية ، لان هذه القضية هي العلامة البارزة في النضال وفي مجمل المواقف ، وختم كلمته بان الطبقة العاملة قد اخذت على عاتقها تعهدا بزيادة الانتاج وتحسينه ، لتتسلم البلاد مكانها الحقيقي في صف العالم المتقدم .

وكان التصفيق حادا تتخلله بعض الهتافات التشجيعية والمؤيدة . اما العامل ضيف الله الشمري ، فكان يتمزق شوقا لان يقف ويلقي شعرا في هذا الجو المنفعل ، الهادر بالعواطف الجائشة . ولم ينتظر ، فقد واتته الفرصة المناسبة عندما اقترب المعلم نايف سعيد من المنبر ليلقي كلمته . فنهض ناصبا صدره ساحبا عقاله الى الخلف . وهتف :

حزبنا حزب الرجال العاملين

حزبنا حزب الرجال المخلصين

وجلس ، قبل أن يصيب المحتفلين وجوم خانق . وقال له جمعة السالم ، وكان يجلس الى جانبه :

ــ اذا لم يكن لديك ما تقوله ، فلا تشوّه جوّ الاحتفال .

وردّ الشاعر مبررا تصرفه :

ــ وماذا اقول غير ما يقوله الخطباء وفي كل مناسبة !

وتوقع فواز هلال وكان يجلس جانبا ، ان يكون نايف سعيد قد اغتاظ من شعر ضيف الله ، فيتعثر في القاء كلمته . ولكن توقعه كان

خاطئا ، لأن الرجل كان قد وضع نصب عينيه أن لا يتعثر مهما كانت الظروف . وبدأ كلمته بالحديث عن مستقبل العاملين في سد الفرات ، ولاحظ المقربون اليه ان نبرته يشوبها بحة حزن او قلق ، ولكنه تابع دون ان يميز تلك البحة في صوته . وحكى عن التحرك الواسع الذي يقوم به المهتمون بمستقبل العاملين بسد الفرات ، من أجل وضع الترتيبات للاستفادة من الكادر الفني الذي صنعه سد الفرات ونماه ، لأن مصلحة القطر تتطلب وضع هذا الكادر وخبراته المتراكمة في اطار يسمح له بتحقيق الاهداف التي يجب تحقيقها . وتساءل : فما هي مراحل هذا التحرك ؛ وما هي الجهات التي ساهمت وتساهم في وضع الترتيبات لهذا الكادر ؛ وما هو دور نقابة عمال سد الفرات في هذا المجال ؟

وصمت قليلا ليبتلع ريقه ، وظن البعض انه فعل ذلك ليحصل على بعض التصفيق . ولكنه في الواقع لم يكن يفكر بذلك . كانت عيناه تملى الكلمات التالية قبل ان تقراها ، وتابع : لا شك أن الكادر الفني والنهائي والورشات المساعدة والمباني السكنية . تشكل هذه كلها بمجموعها امكانيات هائلة ، يمكن الاستفادة منها بشكل واسع ، بحيث تؤدي جميعها الدور المناط بها في بناء القاعدة الاقتصادية في هذا القطر ، وترسيخ دور القطاع العام في بناء المشاريع الانمائية .

كان قد حصل على مأذونية ، وذهب الى حلب لزيارة صديقه عبد السلام حيدر ليرى ما حل به بعد أن بترت ساقه تحت عجلات ناقلة خرسانة لاكساء الميول . ولم يكن عبد السلام في حينها يقف على الطريق ، بل يقف عند بوابة السد ، وقد فرغت الناقلة حمولتها ، أو انها كانت تفرغها ، وهي لكي تعيد الصندوق المنحني الى مكانه ، تضطر لان تتقدم

خطوة . وفي هذه الخطوة التي تقدمتها السيارة مرت فوق ساقه لقد نزل في تلك الحظة لينتقل الى الجانب الآخر ، ومر لصق الناقلة بصورة لم يلمحة فيها السائق . وكان يمكن ان يحدث له ما حدث للمرحوم عايش ، الا أن أحدهما كان اسعد حظا . ولو كان جيدر متشائما لاعتبر أن عايش هو ذلك الاحسن حظا ، ولكن عبد السلام لم يكن متشائما ، فاعتبر نفسه هو الافضل حالا . فخسارة ساق أو ساقين ، وساعد أو ساعدين ، أو لربما عين أو عينين . . او كثير من الاعضاء ، لا يعتبر فاجعة كبرى إمام زهوق الروح بكاملها دفعة واحدة .

ولم يستجب نايف سعيد في تلك اللحظة لنداء أفكاره ، بل انتزعها من حلب ، ليستمع الى كلمة المهندس عبد الجليل طحان وهو يتكلم عن علاقة المهندس بالعامل . لطالما ان نايفا كان يصطدم بكثير من اسواء التفاهم الحاصلة بين عماله ومهندسيهم . كان المهندس يقول : انه في بداية الدورة النقابية لوحظ الفهم الخاطىء لما يجب ان تكون عليه علاقة العنصر القيادي بمرؤوسيه في ورشات العمل . وكان البعض يفسر هذه الظاهرة ، بأنها نوع من بقايا الصراع الطبقي المترسخ في نفوس العمال . وقال المهندس : انتبه يشك في صحة هذا التفسير ، بل أعلن ان هــذا التفسير مغلــوط وتزييف لمعنى الصراع الطبقي ، فهو ليس الا صراع مهني . واضاف في جبور انه لم يذكر في تاريخ نضال الطبقة العاملة ان هنالك صراعا جرى بين النجارين والحدادين والميكانيكيين ، ولا يعني هذا الاختلاط في الفهم سوى الجهل والتخلف الذي ارثنا اياه الاستعمار .

قال نايف سعيد في نفسه : اتمنى لو كان الاستعمار غولا مجسما ظاهرا للعين ، ويمكن القبض عليه باليد والاصابع ، لامسكته به بكل قوة ،

وخلطت العالم كله من شروره !! ففي كل مناسبة او غير مناسبة ، يحمل الناس اخطاءهم واوزارهم الى الاستعمار ، علما بأن هذا الاستعمار المسكين لا دخل له بانحرافاتنا وكذبنا وسرقتنا وتزلفنا وخضوعنا وحبنا للتسلط ، انهم دائما يضعون الاستعمار بمنزلة الله ، ويقولون هكذا اراد الله ، ولا سبيل الى مقابلة ارادته الا بالخشوع . وهو يفكر بهذا وجد نايف سعيد نفسه خارج القاعة ، يقف على الرصيف ، وقد اعاده الى الواقع الهواء النقي الذي راح يستنشقه . وكانت الاصوات من الداخل تصل الى اذنيه مسموعة واضحة ، يضخمها ويدفع بها عبر الابواب والنوافذ ، مذياع مكبرات الصوت . وخطر له ان ينتظر هنا حتى تنتهي الخطابات ، ويخرج المحتفلون في المسيرة ، غير انه وجد ان المسيرة ستحصره في الجو نفسه . الى اين أمضي قليلا . ؟ وتحرك .. ووجد عينيه تقودانه ناحية الحي الاقتصادي . سأزور فضة وامها ، لاطلع على ما جرى بينهما وبين المساعد والمحققين من استجوابات . فقد علم فيما بعد ان المساعد لم يخرج من الدار بأية نتيجة ، واية نتيجة يا ترى كان يحلم في أن يحصل عليها ؟! وهو ماذا يريد على وجه التحديد الفريقة ام الجثة . ! علم ايضا ان المحققين ورجال الشرطة ، استأنفوا الحفر السابق الى عمق كبير ، وقد وصلوا فعلا الى تجويف في الارض ، استدعي البروفسور جان دوسلامين عالم الآثار للكشف عنه . وأستحضر له سلم . وهبط البروفسور . وطلب عند مدخله ضوء ، فأحضر له فانوس هوائي ، طلب استبداله بنور أقوى ، فاسعف بنور كشاف يعمل على مدخرة جيء به من معدات خبراء السد . وقد استغرق هذا الإجراء وقتا طويلا . قطعه العالم بفرك التراب بين اصابعه ، وتحسسه بأنفه ثم هبط العالم الى الاسفل . دون ان يجرؤ على

مصاحبته غير الشرطي خمود الجذعان ، الذي كان يتخيل انه سيتم العثور على الجثة عند أول ضربة معول . كان التجويف يمتد في الطول مسافة يصعب تحديدها ، لان العالم توقف بعد عدة خطوات ، حين عثر على عظام بشرية بالية . راح منكبا عليها ، يتفحص املاحها الكلسية ، واليافها العظمية . واخرج من جيبه منظارا يدقق في ما اذا كان في العظام ما يزال شيء من فوسفات الكالسيوم ، أو فحمات البوتاسيوم . ولاحظ ان اقسام العظام المعدنية قد فنيت ، إما عناصرها العضوية فهي في سبيل الفناء . اما السمحاق والخلايا الكاسرة للعظم فقد فنيت بدورها ، والخلايا المصورة على العظم تدخل في دور الفناء .. وقال العالم : سنبحث عن المشاشة العليا للظنبوب . وسأل الشرطي في الظلام : ماذا تقول .. ؟ ولم يفهم العالم ما قاله الشرطي ، غير ان هذا كان يعتقد بلا ادني شك بأن البروفسور يفحص عظام الفريقة المنشودة . وسمع صوت البروفسور يلفظ كلمات : قناة هافرس ، وكان العالم يتفحص الجمل الخلالية والتعظم النشائي في العظام .

وصعد الشرطي قبل ان ينهي العالم متابعة دراسته للعظام ، ليعلن — ولكن في شك — ان العالم عثر على شيء . وتجمع حوله الرجال مستفسرين في تلهف :

— على ماذا عثر .. ؟

ورد الشرطي مبلبلا :

— عثر على عظام ..

ونظر الحاضرون بعضهم الى بعض ، وقد تعلق في وجوههم الأمل . هتف المبناغد :

ـ عظام . ! عظام ماذا . !

وخطر له ان وحشا ترابيا ، او ما اشبه ، قد افترس الجثة .

قال الشرطي كالمضيع :

ـ إنها عظام آدمية . ساق وقفص صدري . وفك .

ولا يدري احد لماذا طرح المحقق سؤاله هذا ..

ـ هل هو فك علوي أم سفلي . !

وضحك بعض من يستملحون سماع النكات . ولكن أولئك الذين لا يقيمون وزنا لعدم تشابه الفكين العلوي والسفلي ، خلدوا الى التفكير . قال المساعد مستبشرا الهمم المثبطة :

ـ ساهبط الى الأسفل لأرى ماذا حدث ..

ولفظ كلمة حدث ، ليوحي لمن حوله ، بان الأمر اكثر خطورة مما لا يظنون . وتقدم من السلم وادلى عليه احدى ساقيه ، ثم توقف ناظرا الى الجمع ، حين واتته فكرة مفاجئة : « ماذا لو أني هبطت فوجدت ان العالم قد افترس ايضا من قبل الوحش » او أني لربما ما وجدت احدا على الاطلاق : فقد يكون هناك نفق طويل يمتد تحت النهر حتى يصل الى القلعة ، يسير فيه العالم حتى يصل الى مكانه بكل هدوء واطمئنان . غير ان المساعد قرر ان يخوض مغامرة ، والى آخرها . فاما أن يكون شهيدا ، او انه لربما نال ترقية ووساما وشهادة حسن عمل ، تسجل في سجله الوصفي . وحين نظر الى رجاله وهو يضع قدمه على أولى درجات السلم ، اراد ان يوضح لهم خطورة ما يفكر فيه ، ومع ذلك فهو سيزاول هذه

الخطورة . ولكنه نادى الشرطي حمود الجدعان ليدله على الطريق .
وضحك في سره : سيكتشفون إني خائف ، او انهم سيظنون ذلك . وتقدم الشرطي قائلا في شجاعة :

ــ ساهبط قبلك ..

وصعق المساعد . وساعد الشرطي على الهبوط ، ثم هبط وراءه .

المراقب نايف سعيد لم يكن يعلم بهذا كله ، ولم يدر بعد شيئا عن تلك المغامرة . كل ما عرفه انهم نبشوا القبر ، وهبطوا الى كهف ، فلم يعثروا الا على عظام ميت قديم ، اومومياء قديمة ، لان المحقق ادلى فيما بعد ان العالم يظن بان العظام هي عظام انثى متقدمة في السن ، بدليل ان ... وشرح له عن تكوين العظام بكلمات علمية اكادمية يصعب فهمها او الالمام بها . وافاق نايف سعيد على ضجة المسيرة . وكان المحتفلون من العمال والمهندسين وبعض كبار الموظفين وفروع الحزب القريبة ، قد خرجوا وبدأوا المسيرة ، وعلا هتافهم : يا عمال العالم اتحدوا .. وكان بعض الهاتفين يصحح صيغة النداء : ياعمال الوطن العربي اتحدوا .. وتصدر نداءات من الجوانب صادرة عن كبت قديم : ياعمال العالم اتحدوا .. ويعود رفاق قريبون من مكان هذا الهاتف ليصححوا :

ــ ياعمال العالم العربي فقط .

ويتساءل اناس قريبون من الهتاف .

ــ اذن وعمال جنوب افريقيا والفيتنام وموزامبيق !

فيرد الرفيق القريب :

ــ كل امة يتوحد عمالها كما تريد ...

واسرع المراقب نايف سعيد ليلحق بالمسيرة التي كانت تتجه شرقا . وانتبه الى انه يسير وحيدا ، فعبد السلام حيدر لا يسير الى جانبه ، كان قد لحق به الى حلب . وصل في الليل وكان زميله في غرفة العمليات ، واضطر الى الانتظار الى قرب الصباح ، حين فتح باب الغرفة ، وخرج ممرضان يدفعان عربة الاسعاف التي كان عبد السلام ينام فيها ، مغطى بالاغيطة البيضاء حتى شعره المعرّق والمبعثر . فلحق به ، ولكن الطبيب خرج ينزع القفاز من يديه ومنعه من الاقتراب منه ، واستفسر نايف عن الوقت الذي يستطيع ان يرى فيه زميله ، فرد الطبيب بأنه لن يستطيع رؤيته حتى الغد . ورجع نايف سعيد الى مدينته دون أن يكتمل حزنه حتى انه لم يكن حزينا على الاطلاق . وقد تساءل في نفسه : ترى هل أنا حزين أم غير حزين ! ولكنه حاول في المساء ان يكتب شيئا في مذكراته ففشل . راحت تتجاذبه افكار بعيدة كل البعد عمّا حلّ برفيقه . وكان من بين هذه الافكار اخته . اخته تزوجت وانجبت طفلتين ، لن تكون احداهما خادمة ؛ لان ابيهما ملازماً في الجيش ، والأسرة تعيش في حوران ، فقد كان صهره معاون آمر قاعدة صواريخ سام .

وخلد نايف سعيد وحيدا الى نفسه ، منذ ان غاب زميله وهو يحس بالارق :

انا نحمل الموت في ذواتنا

خفيًا كروح

وهو على غرارها يخدمنا ولا ريب

وهو مثلها يسبقنا ويتفوق علينا

ويستيقظ من سباته فجأة . فيتمثل مدير المؤسسة في مؤتمره الصحفي :

● هل ستقام في هذه المنطقة مشاريع صناعية !

ــ طبعا . . وذلك لانه توفر لدينا جميع المقومات اللازمة للصناعة : ماء ، كهرباء ، طرق برية وحديدية ، وتسهيلات ميكانيكية ، وخاصة بالنسبة للصناعات التحويلية ، التي تتوفر منها المواد الاساسية من منتجات المشاريع نفسها .

● ماهو مستقبل مدينة الثورة بعد انتهاء بناء السد .

ــ اعتقد بان مستقبلا زاهرا ينتظر مدينة الثورة ، وخاصة من الناحية السياحية ، وهناك الى جانب هذا المشروع الانمائي الكبير ، يوجد البحيرة الجميلة التي ستتشكل قريبا بعد تحويل النهر ، كما أن هنا ، قريبا منا ، عددا من المعالم الاثرية القيمة ، والتي ستساعد على جذب عدد كبير من السياح والزائرين والباحثين .

● ما هو رأيكم بكفاءة العامل السوري ؟

ــ ان كفاءة العامل السوري من الناحية التقنية تدعو الى الفخر والاعتزاز ، خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار تجربته القصيرة . وقد شهد جميع الخبراء الذين عملوا معه بذكائه وقدرته على سرعة الاقتباس والتطور .

ويعود المراقب نايف سعيد فيرى اباه في الحلم

مات ابي كادحا

فاتاح له موته ان يملأ أيامه

ان ما تبقى منه يبحث الآن عن نتيجة

هذه الارادة الفاصلة المتحررة

التي تحول القلب الى عضلة للراحة .

ويسمع صوت امرأة في غبش الفجر ، وينتظر صوتا آخر لتكون فضة او امها . في ذلك اليوم لم تكن فضة ولا امها . كانتا امرأتين مجهولتين هابطتين من السماء، غرقت احداهما في النهر واحدثت مشكلة لا نهاية لها، وطوردت الاخرى كقاتلة،ووزعت صورة الاولى على مخافر الشرطة ومخاتير القرى ، ولكنها لم تنشر في الصحف،صورتها معي لاتزال . انهمامتشابهتان شبها لا يصدق . لو كان العارفون ذوي نظرة نافذة لدلّوا على فضة على انها الفريقة ، ولكن الباحثين اكتفوا بتوزيع الصور غربا وشمالا ، ولم يوزعوها شرقا ، فالفتاة تعيش في الشرق ، في دير الزور .. ولكن من هي الفريقة ؛ ولماذا ينبشون قبرها مرة .. ومرة .. ومرة .. هل هي عذراء أم ثيّب ! . لا شك في ان احدا اغتصبها ثم اغرقها .. ثم سرقها ل .. يغتصبها من جديد . ثم يغرقها . ثم .. آه .. انني أجن ..

ونهض وارتدى ثيابه ومضى الى حلب .

ـ اريد ان ازور النزيل عبد السلام حيدر .

لن تقول لي لقد مات ..

اننا نحمل الموت في ذواتنا ..

خفيا كروح .

كان عبد السلام أصفر الوجه ، مغمض العينين ، شفتاه تتحركان بانشودة ، وانحنى الزائر فوق شفتيه ليسمع ما يقول ، أية قصيدة تتراقص على شفتيه :

تقع المحطة الكهربائية المائية ، التي تشكل جزء من السد ، على العنفة اليمنى من السهل الفيضاني ، على بعد ثمانين مترا من منحدر الضفة ، وهي من النوع المندمج مع المفيض . تتسع هذه المحطة لثماني مجموعات ، استطاعة كل منها مائة الف كيلو وات . يركب فيها ثلاث وحدات في نهاية العام . ويزداد عددها تدريجيا حتى تصل الى الثمانية من العنفات ، باستطاعة اجمالية قدرها ثمانمائة الف كيلو وات في المرحلة الاولى عند المنسوب زائد ثلاثمائة ، وترتفع الى الف ومائة مليون كيلو وات في المرحلة الثانية عند منسوب ثلاثمائة وعشرون ! قطر العنفة ستة أمتار وهي من نوع كابلان . واستطاعتها مائة الف وثلاثة آلاف كيلو وات . عدد الدورات في الدقيقة مائة وخمس وعشرون دورة، التصريف أثناء الاستطاعة المعيارية والضاغط الحسابي مائتان واثنان وتسعون مترا مكعبا في الثانية . وزن العنفة ستمائة وتسعون طنا . اما المولد فاستطاعته المعيارية مائة الف كيلو وات ، والتوتر ثلاثة عشر الف وثمانية في العشرة كيلو وات الوزن الاجـ . .

وفتح عينيه . . ظل فترة لا يرى ، ولكنه صمت . لم تكن انشودة تلك التي تتراقص على شفتيه ، انه يستذكر . فردتا حذائه تحت السرير مصطفتان احداهما الى جانب الأخرى . لم تكن ساقه قد بترت أثناء الدهس ، كانت متدلية فقط ، كقطعة معلقة بلا تثبيت . وكيف يمكن تثبيتها ؟ بأية بزالات ؟.

ـ كيف حالك يا عبد السلام ؟ .

وابتسم عبدالسلام ابتسامة واهنة ، ولكنها غير مزيفة ، من تلك الابتسامات التي يتصنعها الناس في المكاتب وعند التحية والاستقبال . انها ابتسامة انسان يقول : لابأس .. فأنا مازلت حيّا . وسأل بنبرة غير منخفضة كما ينتظر :

ـ هل بتروا ساقي يا نايف ؟ .

نايف سعيد لا يعلم بعد ، وهو لا يريد ان يجيب اجابة غير صحيحة .

قال نايف :

ـ لا اعلم ..

واضاف ليدلل على صدقه :

ـ بعد .

وهمس عبد السلام وكأنه يخاطب نفسه :

ـ سمعتهم يتحدثون عن اطراف اصطناعية ..

وافاق نايف سعيد واتخذ هيئة جادة ، وتصنع شيئا من عدم الفطنة . فقال :

ـ و .. بأية مناسبة كانوا يتحدثون عن الاطراف الاصطناعية ؟

فتح عبد السلام عينيه وأجاب بنبرة أقوى :

ـ ليركبوا لي ساقا .. الم تعلم بعد . !

ودهش نايف سعيد لصفاء ذهن صاحبه ، والاكثر لواقعيته ، ولكنه لم يظهر رأيه بالموضوع . لقد رأى ان بحث موضوع الساق الصناعية

سابق لأوانه . وارتأى ان يصرف ذهن رفيقه الى ناحية اخرى . فزف اليه النبأ :

ـ سيجري تحويل مجرى النهر خلال أيام في احتفال كبير .

وهنا بدرت في ملامح حيدر بادرة اهتمام وسأل :

ـ وهل ستأتي السينما لتصوّر .

ورد نايف مستجيبا ، مشجعا صاحبه على الكلام :

ـ طبعا طبعا . . وسيكون التلفزيون ايضا فسيدشن عملية التحويل الرئيس بنفسه .

وهنا تحرك حيدر ، محاولا الانتصاب ففشل . وردد كأنما هو حائر :

ـ ساقي مبتورة ولا شك . .

وأراد نايف أن يطمئنه :

ـ سآتي غدا بسيارتنا واحملك الى المدينة لتكون شاهدا الاحتفال .

وادار حيدر راسه الى جانب هامسا :

ـ لا مانـع . .

وفجاة سأل ، وهو ينظر الى كيس من الورق وضعه نايف على طاولة فوق راسه :

ـ ماذا يوجد في هذه الربطة . .

ورد نايف خجلا :

ـ انه . . قليل من الفاكهة حملتها لك . . الا تأكل بشكل طبيعي ؟

ورد حيدر في توجع . .

ـ لا أعلم .. شوربا وحليب وعقاقير .. لقد اتخموني بالأدوية ..

ولكنه بدّل لهجته فجأة :

ـ اسمع يا نايف .. انت كما انت .. لم تتغير اليس كذلك ؟

ورد نايف في حماس :

ـ نعم .. نعم .. انني رفيقك قل لي وكن مطمئنا .

ولكن حيدر صمت ولم يجب . وظل صامتا فترة طويلة . ثم اغمض عينيه .

انت لن تموت ابدا

كما عشت

لأنك ما عشت الا لكي تلهو

آخر المطاف بموتك .

انك تجلو موتك وتنميه

وتضيف اليه احسانك وكرمك .

وفتح الباب ، ودخل المهندس عبد الحميد درويش ومهيار خلوف العبد الله .

سأل المهندس :

ـ هل هو نائـــم ..

ورد نايف سعيد :

ـ لا . . ولكنه أغمض عينيه .

همس مهيار :

ــ هل قطعوا ساقه .. أم وضعوها في الجبس .

قال انيف :

ــ انه لا يعلم ..

واحتج المهندس

ــ ولماذا لم تسأل في المستشفى ..

قال نايف :

ــ أخشى ان اصاب بصدمة ، لذا لم اسال .

ولفت الحذاء انتباه مهيار وسأل :

ــ هل هم الذين صفّو الحذاء هكذا .؟

قال درويش :

ــ ومن تظن انه فعل ذلك !

قال مهيار :

ــ اريد ان اعرف فقط .. هذا كل شيء ..

ــ تريد أن تعرف، اذا كانوا بتروا ساقه فيجب انيبقوا فردة واحدة ويتلفوا الاخرى .. اليس هذا ما تظنه ؟

ولم يجب مهيار ، وكان صمته دليلا على انه يفكر بذلك قال نايف سعيد :

ــ قبل أن تصلا بقليل كان يريد أن يحدثني بأمريهمه كثيرا . وسالني عن الثقة المتبادلة بيننا .

وفكر المهندس قليلا . ثم قال :

ـ اظن بأنه يريد ان يرسل بواسطتك خبرا الى خطيبته .

ودهش نايف لهذا الخبر :

ـ ولكنه لم يكن يحدثني عن ذلك مطلقا .. هل انت واثق !

ولكن مهيار أجـــاب :

ـ نعم .. ان له خطيبة جميلة ، ولكنه لا يذكرها امام احد ..

وسخر نايف سعيد من هذا الخبر :

ـ يذكرها امامك فقط .. ويعلم بها عبد الحميد ، وانا لا أعلم ..

قال مهيار مدافعا عن نفسه :

ـ انه لم يذكرها امامي ..

ورد نايف :

ـ اذن ..

قال مهيار :

ـ لقد رايتها ..

وزادت دهشة نايف ، في حين تشاغل المهندس بقراءة الوصفات على طاولة المريض .

ـ واين رايتها .. ؟ ـ

ورد مهيار :

ـ رايتها في القرية ..

وفرغ صبر نايف قائلا بصوت مرتفع :

ـ ولكن عن اية قرية تتحدث بحق الله . ! فعبد السلام من منطقة الغاب وانت من هنا .. اليس كذلك ..

ورد مهيار حانيا رأسه :

ـ نعم .. ولكنني ذهبت انا الى هنــاك في السنة الماضية لزيــارة والدي الذي يعمل في محطة الري .

وهنا افاق عبد السلام حيدر ، وبدا وكأنه في صحة جيدة ، وراح يشرح القضية :

ـ اسمع يا نايف . انا خاطب فعلا .. فتــاة من قريتك . وهــذه الفتاة تحبها انت . لاتحملق عينيك هكذا .. انهــا سامية . هل انخطف لونك ؟ لا .. لا ترجف .. لاترتجف .. سأشرح لك الأمر فيما بعد ..

. . . . . .

١٤

يعيش في وادي نهر الفرات ، مزارعون صغار من البدو المتحضرين ، يعيشون من الزراعة وتربية الماشية . ينتشرون عبر الوادي ، من حدود الطبقة حتى ثمانين كيلو مترا الى الغرب ، في قرى صغيرة بدائية ، مبنية من الطين والاخشاب واغصان الشجر والتنك الصدىء . وهؤلاء المزارعون يزاولون اعمالهم في هدوء وسلام ، راضين عن حياتهم نصف البائسة ، دون أن يحلموا بغد افضل . واحيانا يربي بعضهم قليلا من رؤوس الماشية فيكون حظه افضل حالا ، لانه يتكسب مما تدره من صوف والبان ، وما تنجبه من عجول وخراف .

وابو جمعة السالم الذي يعيش في قرية (صرم الجحش) شيخ اشرف على الثمانين من عمره وله ثلاثة صبية وثلاث بنات ، زوج منهن اثنتين بآلاف الليرات ، وبقيت الثالثة تنتظر نصيبها المضمون . اما الصبية ، فقد التحق اكبرهم (جمعة السالم) بأعمال سد الفرات بورشة السبر ، والتي يرأسها المراقب نايف سعيد ، اما الآخران فقد حجر عليهما ابوهما ومنعهما من الالتحاق باعمال السد ، لانها ــ كما يزعم ــ اعمال ضارة ومؤذية ومنافية للمعقول ، هدفها الاضرار بالنهر وسجنه في حفره . وكان يردد دائما :

اذا كان يحلو للنهر ان يغرقنا في بعض الاحيان ، وهذا امر طبيعي من امور الله ــ فان هؤلاء يريدون ان يغرقونا عن سبق ارادة وتصميم ، دون

ان يقعوا تحت طائلة اية مسؤولية ، لأن الدولة نفسها هي التي تساعدهم وتتبناهم وتوعز لهم بالعمل . وعلى هذا وقف الشيخ ضد ابنه (جمعة) المتمرد الذي خرج على طاعته ، وراح يرفض استقباله في ايام الجمع وأيام العطل والاعياد ، مهددا اياه بالقتل اذا هو استمر في اعمال سجن النهر .

وكان بو جمعة من أوائل الناس الذين اكتشفوا الفريقة . وهي ملقاة على الشاطىء . وبدلا من ان يعتبر ذلك الحادث مصيبة من المصائب ، اعتبرها عملا طبيعيا من اعمال النهر العظيم ، ومعجزة من معجزاته التي يهزأ فيها بالبشر ، ويمتص أرواحهم دون خشية أو عقاب . واثناء زيارة فواز هلال وضيف الله الشاعر لقلعة جعبر وللمخفر التركي كانا يزوران الشيخ بو جمعة ويسامرانه ويشربان عنده الشاي . ويأخذ يحدثهما عن السوء الذي سيلحق بالنهر من جراء اعمالهما واعمال رفاقهما الشيطانية ، ويدعوهما الى ردع ولده جمعة ، وجعله يكفّ عن العمل معهم قائلاً :

ــ ان ابني هو بدوي شاوي مثلي ، والبدو الشوايا من العيب عليهم ان يعملوا كما يعمل غيرهم ابناء المدن ، وان يرتدي البنطال والقميص الذي يرتديهما الاجانب وغير المؤمنين بالله الكبير .

ولكن ضيف الله وهلال يسخران من حجته ، ويحاولان اقناعه دائما بأن هذا العمل سيعود في النهاية الى خير المنطقة وخير سكانها وسينشر النفع العميم . وان المياه المتجمعة ستسقي الاراضي العطش الجرداء . وستصنع منها مزارع تنبت فيها اشجار الفاكهة والحور وسنابل الحبوب وستخضر المنطقة بأسرها ، وتجعلها تعيش بنور الكهرباء . ولكن بوجمعة يظل مصرا على رأيه دون أن يتنازل عنه قيد أنمله . وكان يعلن في كل مرة :

سأبقى في داري الى النهاية ، ولن تجسر اية قوة على وجه البسيطة من جعلي اتزحزح منه شبرا واحدا . ومنذ ذلك الحين بدأ يسعى للحصول على بندقية ليقاوم بها رجال الشرطة اذا هم حاولوا تهجيره الى مكان آخر. وكان يقول :

ـ يفيض النهر .. لا بأس ! سأبقى انا وام جمعة ومواشينا في مكاننا. سنعيش في جزيرة يحيطها الماء ، قد نفقد ارضنا التي نزرعها قطنا ، ولكننا لن نفقد خرافنا ، فسنأويها معنا في الجزيرة ، ونبني لها حظيرة مرتفعة الجدران .

وفي المرة التي حدث فيها الفيضان الأخير فقد بو جمعة بعض مواشيه ، واجزاء كبيرة من جدران داره ، ولكنه ظلّ راضيا وهو يردد :

ـ سينحسر الماء بعد قليل ، وبعد ذلك اعيد بناء الجدران المهدمة ، وسأستعيض عن فقدان المواشي . المهم .. اني اظل راسخا في ارضي وارض اجدادي لا اتزحزح .

اما عندما بدىء بالحديث عن اعمال التهجير ، وشاع بين السكان خبر انذار الاتراك باخلاء مخفرهم ونقل ضريحهم الى مكان آخر ، فقد راحت الوساوس تأكل صدره :

انهم جادّون هؤلاء الخبثاء ، وهم يريدون تهجيرنا الى اراض غريبة لانعرفها ولانملكها ، ولا ندري كيف نعيش فيها . سأقاومهم .. سأقاومهم، ولن أرحل من هنا الا جثة هامدة . سأدافع عن ارضي ما دام في صدري عرق ينبض بالحياة .

وخلا مرة بام جمعة وراح يغريها ببيع حليّها الفضية :

ـ اسمعي يا أم جمعة .. ان القضية قضية حياة أو موت ، هل

تسمعين . ؟ انهم يريدون ابعادنا عن ارضنا وتهجيرنا الى آخر الدنيا .

وترد زوجته في خوف :

ـ وماذا بمقدورنا ان نفعل ما دامت القرى كلها واهلها سيرحلون . ؟

ويقول بوجمعة وعيناه تبرقان بالتصميم الأكيد :

ـ سنبيع أساورك الفضية ونشتري بثمنها بندقية .

ـ لا . . ابدا . هذه اساور عرسي . ولا يمكن أن اتخلى عنها . انك تلعب بمصيرنا . وعيب على شيخ مثلك في هذه السن أن يركبه الجنون عند آخر عمره .

ولكن بو جمعة يظل مصرا على رايه . ويقول لزوجته :

ـ نبيع الاساور افضل من ان نبيع الارض والمواشي . لاننا بالبندقية سندافع عن الارض والمواشي . الا تفهمين ؟ !

وتأبى أم جمعة ان تنساق وارء رغبات زوجها ، وترفض أن تعطيه اساورها رفضا باتا . الى أن خامره الأمل مرة لأن يسرق بندقية احد رجال الشرطة .

فقد وفد الى القرية شرطيان مسلحان لتبليغ نص دعوى ضد أحد السكان ، ونزلا في مضافة المختار الذي راح يحضّر لهما غداء من الدجاج . وهرع بو جمعة الى مضافة المختار مع بعض السكان ، واتخذ لنفسه مكانا الى جانب الشرطيين . وراح يسترق النظر الى البندقية الملقاة الى جانب . ثم راح يقترب شيئا فشيئا الى ان اصبحت تحت تناول يده . فمدّ أصابعة وراح يتلمسها في توجس ، مراقبا اعين الحاضرين كيلا ينتبه له

احد . ثم راح يسحبها شيئا فشيئا . ثم يتوقف بين لحظة واخرى ، رافعا يديه الى وجهه يتلمس لحيته ، موحيا للجميع بأنه لا يفعل شيئا . وبعد حوالي ساعة او ساعتين كانت البندقية قد ابتعدت عن مكانها بعدا واضحا. بحيث كان الشرطي مضطرا لان ينحني ويمد جسده للوصول اليها . غير ان الشرطي كان منشغلا بتناول الطعام الشهي ، فلم ينتبه لبندقيته . وفي تلك اللحظة صدرت من القرية اصوات عويل نسائي وضجيج مباغت . فرفع الحاضرون رؤوسهم ومطوا اعناقهم مستوضحين ما حدث وومضت في عيني الشيخ ومضات الظفر . فنهض واقفا مستنفرا الحاضرين للخروج واستطلاع ما حدث . وقد خرج بعض القرويين فعلا . ولكن الشرطيين لم يتزحزحا من مكانيهما . فأهاب بهما صائحا :

ـ انتما . ! لماذا لاتتحركان . ؟ هناك قتيل في أزقة القرية .. الا تسمعان . ؟

ولكن الشرطيين لم يأبها لندائه، وظلا جالسين في مكانيهما لايتحركان. فانحنى على الارض وتناول البندقية ، ومضى مندفعا من باب المضافة بخفة شاب هائج . ولا حقته الضحكات من ورائه تسخر منه ومن رعونته . والتفت الى الخلف ، فوجد القرويين يلوّحون له بأيديهم وينادونه :

ـ ارجع يا بو جمعة .. ارجع .. ان البندقية معبّأة .. اياك ان تصيب أحداً بأذى ..

وعندما وجد أن أمره قد كشف . القى البندقية على الارض ، ومضى مختفيا عن الانظار لمدة اسبوع . ولم يتابع الشرطيان القضية واعتبراها عبثا من عبث الشيوخ ، أو حماسة حقيقية اعترت الشيخ فجعلته لايدري كيف يتصرف .

.....

بعد شهر من تلك الحادثة ، شوهد الجنود الأتراك ينقلون امتعتهم واشياءهم على شاحنة ، كما شوهـد بعضهم يهدمـون جدار الضريـح ويحفرون الارض . اذن .. فقد بات الامر واضحا . سيجلو عن المكـان المخفر التركي والضريح اول من يجلو ، ثم يأتي بعد ذلك دور القاطنين . وبدأ النوم يهرب من عيني ابي جمعة . ولكنه ظل مصرا كل الاصرار :

(لن ارحل .. وليفعلوا ما شاؤوا ..)

وبعد يومين شوهدت سيارة مدير الناحية عند باب مضافة المختار . ولم تنقض بضعة أيام حتى جمع المختار اهالي القرية واعلمهم بأنه تلقى تعليمات من الحكومة بوجوب اخلاء القرى من سكانها، لان الوادي كله سيغمر بالماء ولان تحويل النهر بات قريبا . وأخبرهم بأن شاحنات الدولة ستفد اعتبارا من الغد لنقل الاثاث والمواشي والآدميين . ولكن أباجمعة تنطح للرد قائـلا :

ــ لن نرحل من هنا أبدا .. وليفعلوا ماشاؤوا . !

وليبتلعنا النهر خير من ان يبتلعنا التشرد والضياع .

والتفت الى السكان صائحا :

ــ وانتم ماذا تفعلون أيها الارانب !؟ هل تتركونهم يضحكون عليكم ؟. أليس لكم دور وأراض ومواشي .. كيف تتركونها لهم ايها الجبناء . ؟

وضحك الشبان من هذه الخطبة الحماسية ، ولكن بعض الشيوخ هزوا رؤوسهم مؤيدين ، فيما أخذت بعض النسـوة العجائز . يندبـن ويدققن على صدورهن .

ومنذ الصباح بدات الشاحنات تفد الى المكان ، وشرع الرجال بتحميلها بالاواني والبسط والافرشة . وعند باب ابي جمعة ظلت الشاحنة واقفة في مكانها فارغة . وصاح السائق :

ـ اين انتم ! لماذا لا تحملون امتعتكم . ؟

وردت عليه العجوز :

ـ لقد ذهب ابو جمعة والصبيين الى الحقل . .

ولن يعودوا حتى الغد . .

والواقع ان بو جمعة هرب مع ولديه منذ الصباح متواريا عن الانظار كيلا يكون تحت الامر الواقع ويفرغ داره من اثاثها .

وبعد ذلك بدات تشاهد قوافل الشاحنات المتلئة بمحتويات الدور . تغادر الوادي صاعدة المرتفعات متجهة نحو الطبقة . في حين ظلت شاحنة واحدة فارغة متوقفة امام دار الشيخ بوجمعة . وتقدم المختار من العجوز مستوضحا :

ـ اين هو الشيخ ايتها العجوز ؟ نريد ان نرحل .

فردت العجوز :

ـ ارحلوا انتم وحدكم . . فالشيخ لا يريد ان يغادر داره . .

وعبّر المختار بيدية بحركة تنم عن :

(انتم وشأنكم . . فليأكلم النهر وعلى الدنيا السلام . .)

وفي اليوم التالي حضر جمعة السالم مع رفيقيه ضيف الله الشمري وفواز هلال الى القرية . فخرج اليه ابوه وبيده عصا طويلة وغليظة :

ـ ماذا تريد ايها العاق . ؟ ايها المتآمر مع الجميع . ؟

وردّ عليه جمعة السالم في تحبّب :

ـ اسمع يا ابي .. لقد رحل الجميع ولم يبق غيرك وامي .. فما هي الفائدة ! سيغمر الماء المنطقة هذا المساء أو غدا .. فماذا يمكنك ان تفعل!

ورد عليه لشيخ مهددا بعصاه :

ــ ارحل انت وعصابتك من هنا اولا .. وبعد ذلك أفعل ما أشاء ..

وحاول فواز وضيف الله اقناعه ولكن دون جدوى . وتغامز الشبان الثلاثة ، ودخلوا الى الدار لينقلوا الامتعة . فتصدى لهم الشيخ وراح يضربهم بعصاه على ظهورهم . وتصدى جمعة لابيه يريد الامساك به . ولكن الشيخ تناوله بضربة اليمة من العصا على وجهه جعلت الدم ينفر من انفه وجبينه .

.....

لقد تم تحويل النهر . واخذ الماء يتجمع في الوادي مالئا الاراضي المنخفضة هنا وهناك ، وباتت دار العجوز بوجمعة يحيط بها الماء من كل جانب . انه وحده من زوجته العجوز يقفان على مصطبة يراقبان الماء الذي يعلو ويتقدم خطوة وراء خطوة . لقد جمعا حولهما بعض رؤوس النعاج والماعز يضمانها بعضها الى بعض . ومن بعيد شوهد قارب شراعي يقترب شيئا فشيئا . انه يحمل جمعة مضمد الوجه وشرطيين ورفيقين من العمال . وظل القارب يتقدم ، والماء يعلو ببطء . وراحت الماشية ترقب الماء بأعين حزينة . وبو جمعة يمسح شاربيه بغضب وعصبية . وام جمعة وحدها تبكي حظها الملعون الذي أوقعها بهذا الشيخ الذي لا يعرف قلبه الرحمة .

١٥

لايجد ضيف الله الشمري ما يفعله اليوم ، فصديقه فواز ذهب الى القرية لزيارة خطيبته اناهيد ، والآخرون منشغلــون ، البعض في تنظيف غرفهم ، والبعض الآخر يتندرون أو يقصدون حلقات (الطرنيب) . اما هو لماذا لا ينظف غرفته المشتركة ، أو يتندر ، أو لا يلعب الورق !؟ فلأنه أحب أن يرصد حركة تشكيل البحيرة ، بعد أن حوّل مجرى النهر . فاليوم تقرر ان يكون يوم عطلة ، او عيد اذا صح التعبير .

وكان احتفال الامس تاريخيا ، لم تشهد له المنطقة ، مثيــلا منذ أن افتتح فيها العمل . وقد هب مرارا لان ينهض ويلقي بعض اشعاره ، ولكن مهابة الاحتفال جعلته يرى نفسه ليس خليقا بأن يدلي بدلوه . وحين كان الرئيس يقــول :

نحن اليوم نقهر تحدّي الاعداء ، وتحدي الطبيعة . فنحقق الامل ونروض النهر .. اعتملت في صدره تفاعلات من الحماسة ، جعلته يهــم بالنهوض لينادي :

يافراتا للناس كن سلسبيلا
كن صبورا يكفيك قالا وقيلا
سنطوعك فاحترس وتجلد
سنمددك في الفلاة عرضا وطولا

وحين وصل الرئيس الى كلمته : وستشهد هذه المنطقة التي قاست

من الاهمال طويلا ، ازدهارا اقتصاديا كبيرا ، يرتكز الى مجتمع جديد ، مجتمع يدفعنا خطوات كبيرة نحو المجتمع المنشود ، المجتمع العربي الاشتراكي الموحد . دفعته الاهابة لان يهتف :

احب الارض والنهرا
ساحيا فيهما دهـرا
ساجني من هنا العنقود
هناك اقطف الزهـرا
وبئس الشر لن القاه
في يومي بل الخيرا

وحين اشاد الرئيس بالصداقة والتعاون المخلص بين سورية العربية والاتحاد السوفييتي الصديق اقسر نفسه على الا يصيح :

شمس الصداقـة
ما احلى اشراقها
راية خفاقـة
على الانسانية

وحين تطرق الرئيس الى جهود العمال والفلاحين وبذلهم وعطائهم ردد ضيف الله في صمت :

فلاح وعامـل
يكدح ويناضـل
والاقطـاع ولى
بثورة علميـة .

وهو نفسه انشأ صداقة حميمة مع المهندسة الشابة الجميلة والشقراء « نينا فاسييلفنا » . رآها مرة في احدى الامسيات تتنزه وحيدة على ضفة النهر . فقطف من الارض زهرة برية ، وقدمها لها .. ففرحت بها كثيرا ، حتى انها همّت بأن تعانقه . وقد تركت هذه الذكرى في نفسه أثراً كبيراً . في حينه لم يبح بسره لأحد ، كيلا يصاب بالحسد ، أو يصبح عرضة للتندر . وتعددت لقاءاته مع الفتاة ، وفي كل مرة يهديها زهرة ، الى ان باحت مرة بسر ، قالت عدة كلمات من بينها كلمة (لبلوؤ) ولم يعرف معنى الكلمة ، ولكنه وجدها رقيقة ناعمة . فاراد ان يستفسر عن معناها من الكسندر كاراكاليفيش نفسه ، لانه يعرف العربية . ولكن كاراكاليفيش لم يكن ليوجد في اي مكان ، انه يتنقل دائما من المخبر الى المقلع ، ومن مكتب رئيس الخبراء الى جرافات الهيدروليك ، الى ان لقيه اخيرا وفي احدى الامسيات ، داخلا الى النادي .

ـ مرحبا رفيق

ـ مرحبا بالرفيق الشاعر ..

وفسر الكسندر الكلمة ومعناها (احبك) . لم يطر الشاعر من الفرح ، ولكنه أصيب بالذهول ، وظل مغلقا على سرّه . ثم عرف بأن فاتنته هي شاعرة أيضا

هذه الارض رحبت بنا

بحنو صامت

وقد اتحدنا نحن الاثنين

وكل مكان صار لنا

وبشفاه ندية تبادلنا القبل
النسيم دفعنا كلا نحو الآخر
والسماء صارت لنا سقفا
ها هو السد
وهنا ستكون بحيرة مياهها فضة
نغرفها بأكفنا
والنجوم هنا وهناك
تغمز لنا مشفعة بهمساتنا
حتى تذوب في العالم

ولم يصمت الشاعر حين فهم معنى القصيدة ، بل صاغ قصيدة منثورة :

ميلي بشعرك الاشقر
ميلي يا مرمر
شعرك الاشقر
مجبول بالعنبر
يا وردة يا زهرة
يا سمينة واكثر
مجبولة بالسكر
عيناك اكبر
من الدنيا وانضر
محتار أنا احاكيك
محتار أنا اسميك

اقتربي منـــي

عيشـي في قلبــي

عيشـي مـــع حبي

لقد نظم فيها قصيدة ، فهل كان يحبها ..؟ ولاول مرة في حياته بحث معنى كلمة الحب . هل هو يحب كل فتاة جميلة ! وهل هي نينا فاسيلفنا تحبه ! ثم لماذا لا يشرك احدا من المقربين اليه في هذه التجربة ؛ هل كان الامر فقط مجرد محافظة على سر ، ام خشية من الحسد ! انه لا يستطيع ان يجد تعليلا لهذا التكتم ، ولكنه وجد فيه مادة غنية . دون ان يخطر له انه ستكون هناك نهاية ما لهذا الامتحان الصعب ، ولكن الامـر لـم يكن صعبا بمعنى من المعاني . كان امراً مثيراً ويدعو الى التأمل ليس إلا .. لقد صاحب امراة في حلب كان يقوده اليها زميله فواز ، ولكن شتان ما بين المراتين . تلك كانت تعطي ليلتها ان يدفع نقودا ، ولكن هذه فيما يبدو ، لن تعطي ليلتها ، ولن تطلب نقودا . لقد نظم في تلك قصيدة ايضا ، وخيل له انه احبها ، وانها احبته ، ولكن حبه في المرة الاولى كان كالهشيم ، خفيفاً ورخواً ، يحترق بسرعة ، ثم يذوب ويتلاشى ، دون ان يترك غير حفنة من الرماد . اما في هذه المرة ، فقد حاول الا يجعله هشيماً ، يحترق ويذوب ويتحول الى رماد : ولكن .. ما يسميه اذن . ! الامر الحقيقي والصحيح بالنسبة الى الشاعر ضيف الله ، انه لم يحاول ان يخوض تجربة الشباب، وان يحاول اللهو مع اية امراة يصادفها في حياته . ولا يظن بأن المدينة لـم تفسده ، اذ اعتبر ان الحب السريع وذا المأرب هو نوع من انواع الفساد . انه يعتبر الحب الحقيقي ، هو الحب الذي يعطي ثمراً . والحب لا يعطي من الثمر غير الاطفال . فامراة حلب لا يمكنها ابداً أن تعطيه طفلاً ، فهي

لا تمارس الحب من اجل هذه الغاية ، بل تمارسه لتكسب المال . اذن فتلك المراة لن يكون لها شأن في حياته ، وقد نسيها بعد لقائين او ثلاثة . اما هذه ؟ ! نينا فاسيليفنا . انها تظهر له المودة والصداقة والارتياح ، ولكن ... هل هذا هو الحب ! وبالتالي ، اذا فرضنا ان هذا هو الحب ، فهل نينا فاسيليفنا مستعدة لان تنجب له طفلا يكون هو ابوه ! وفي كل مرة يضطر لان يتذكر الفتاة البدوية شمسه . تلك الموشومة الذقن ، التي في انفها حلية زرقاء . ذات العينين الواسعتين دون كحل ، تلك التي تتكلم العربية وصوتها أشبه بنغم الربابة . انها تظهر له المودة والصداقة والارتياح ، وبالاضافة الى ذلك تخجل منه ايضاً . وهذا الخفر يعطيها جمالا ومعنى لا تعطيه الاخريات ابداً .. والاكثر من ذلك ، لا يتقن اعطاءه . وبعد ، وبعد كل ذلك ، فهي على استعداد لان تمنحه طفلا .

آثمات العيون غرن على الحسن
وروّعنه ففر اليك
وتولى الجمال رعبا فما أحلاه
حين استقر في عينيك
ذي ثمار التفاح مطرقة الراس
اتراها خجلانة من خدّيك
وثمار الرمان تركت اغصانها
وتعلقت في نهديك

جلس الشاعر ضيف الله على حافة الوادي يتنهد ، في انتظار تشكيل البحيرة . إنه يجلس على الطرف الغربي من السد ، والنهر يتسع وينتشر ماؤه ، وهو يتمطى ويتنهد ايضا :

ـــ سأحدثك أنت ستكون لي صديقاً . انظر ماذا فعلوا بي ، وانت أيضا ساهمت معهم بالفعل . لا بأس يا صديقي سأكون مفيداً على كل حال . سأروي لابنائي مئات الالوف من هكتارات الارض ـ من الميادين حتى مسكنة ، سأجعل نفسي تحت تصرف مستثمري حوضي . ولن اكون حزينا . ولكن يحلو لي الآن ، كما يفعل الجندي عندما يتخلى عن سلاحه ، ان اروي ذكرياتي ، وكما يفعل الشيوخ ايضا ، حين يحدثون احفادهم عن ماضيهم الحافل . لقد انتشر التتار ـ الذين لا حقوا سليمان شاه ـ على امتدادي ، وقتلوا النساء والاطفال من أبنائي ، وخطفوا رجالا ونساء من ابرتي ، ومن بعدهم جاء الاتراك ثم الانكليز والفرنسيون . كل هؤلاء عاثوا فسادا في مياهي ، وشوهوا ارضي ولطخوا تاريخي ، ووصموني . . سأحدثك عنهم . فأنت اليوم في عطلة ، في انتظار حفلة السمر التي ستقام الليلة احتفالا بتحويل مجراي . لقد جلبتم فرقة فنية لتعزف وتغني وترقص ، وسيشارك المطران انطونينو في الحلفة ويعرض احدث لوحاته . وستطلقون هذه الليلة اسما على هذه البحيرة ، وقد علمت بأنه سيكون اسما كبيرا . كان يجلس قبلك هناك المراقب نايف سعيد ، وكنت اتحدث معه ، وكان يظهر لي التفهم ، ولكنه كان يخشاني ولا يزال ، فهو متورط بالفتاة التي داعبت جسدها طوال ليلة كاملة . لن افصح لك عن سر هذه الفتاة ، لأن أحداً لا يعرفه ، اريد أن اظل محتفظاً ببعض الهيمنة بعد ان جردتموني من اعظم ميزاتي . قلت لك سأحدثك عن الاتراك ، الذين عاشوا في حوضي مئات السنين ، وكان آخرهم هنا ، هو المتصرف حلمي بيك ، انني اعرفه كل المعرفة ، ولي معه صولات وجولات . في أواخر عهده باتت الحالة غير مستقرة تماما ، فقد اخذت راعيته العجوز تلفظ أنفاسها ، وراح السوس ينخر في عظامها البالية .

نسيت أن اقول لك أولا ، هل تعرف معلمك نايف سعيد أين هـو الآن . انه في حلب . يزور صاحبه المسكين عبد السلام حيدر الذي قصت ساقه . لقد وجد هناك فتاة اسمها سامية ، وهي خطيبة عبد السلام . ان نايف سعيد يحبها ويعبدها ، ولكن صاحبه عبد السلام هو خطيبها ، وقد اجتمع الثلاثة هناك . الخطيب في سريره مقطوع الساق ، والغريمان نايف وسامية حوله على مقعدين . تصور هذا الموقف ، انه كما يقول مؤلفو الروايات السينمائية ، (موقف دراماتيكي) . ولكن لا .. يجب الا اجعل افكارك تشرد الى بعيد ، سأحدثك عن حلمي بيك ، متصرف وادي الفرات قبل خمس وخمسين سنة تقريبا . هذا الرجل وجد ان الكرسي بدأ يهتز من تحته .. خاصة وان ابنائي باتوا يعانون من الضيق مالا يتحمله بشر . وكانت هناك حرب دائرة في الشمال وحرب دائرة في الجنوب ، وثورة تقوم في روسيا . وبالاجمال كان العالم كله يفور ويضطرم .

وبما ان حلمي بيك بدأ يشعر بالنهاية ، فقد اخـذ يتمسك بخيوط العنكبوت التي راحت تتقطع ، كلما تمادى في ممارسة الضغط والارهاب ، وكان أبنائي ، ابناء الفرات هم اسباب المصائب التي تحل بالعالم ، وخاصة المصائب التي راحت تتوالى على الجيوش العثمانية ، التي اخذت تندحر على الجبهات كافة . واهمها الجبهة الجنوبية ، حيث كان يتقدم في اتجاه دمشق جيش يضم ، رجالا يعتمرون العقال ويتكلمون العربية ، وآخرون ، يعتمر بعضهم العقال وبعضهم القبعات ويتكلمون الانكليزية ، وكان ضباط الفريقين يتكلمون اللغتين معاً . دون ان يتمكن الفريق الثاني من لفظ بعض الحروف العربية بشكل سليم . في هذا الوقت ادرك ابنائي الفراتيون أن القبضـــة الماسكة بأعناقهم شـرعت ترتجف . وان المتصرف حلي بيك ، عينه ، بدا ذاهلا عما حوله ، يتلمســـ عنقه في فزع . وكان الناس هنـا

يعرفون بأنه حاكم بلا مبرر ، وأنه يستحق أن يشنق أولا ثم ترسل جثته الى امه العجوز لكي يدفن معها . لان الفراتيين انفسهم كانوا يعانون من ضائقة مشابهة . فهم يعايشون الجوع والمرض وفقد الحرية ، والاكثر من ذلك ، نسوا عادة التفكير ، ومعرفة التعبير عما يساور نفوسهم ويختلج في ذواتهم . وكانوا يعرفون ان نقص امكانية التفكير والتعبير ليسا ناتجين عن عدم المامهم بالفلسفة ، بل لان الظروف التي يعانونها كانت تولد لديهم هذه البادرة السيئة .

وحين شعر المتصرف واعوانه وحاشيته بأن الاحوال باتت على غير ما يرام ، ولاحظوا ان فياعين الناس اعواد مشانق منتصبة، تلاحقت انفاسهم، وعقدوا اجتماعا سريا في بهو السراي للتشاور في الامر الجلل ، وفيما يجب اتخاذه من اجراءات ، فيما لوا انتقلت اعواد المشانق من حدقات الناس الى الساحات العامة ، ثم ربطت الحبال . ودار الحديث بين المتصرف واعوانه ومستشاريه عن تقدم الجيش العربي من الجنوب ، ووصوله الى قرب دمشق . وتبسط المتصرف في الحديث . وراح مع مستشاره العسكري الامير لاي يتبادل المشورة ، والبحث عن وسيلة للسيطرة الفعلية أو النجاة . ولكن الآخرين لم يبقوا صامتين بل راحوا يدلون بدلائهم ، مقترحين الاعمال التي يجب اتخاذها لتجنب الكارثة المحققة الوقوع، والبوادر التي ينبغي لهم تجنّبها لدرء هذه الكارثة . وبتّ الراي فيما بينهم ، بعد يأسهم المطبق ـ على ان ينسحبوا تحت جنح الظلام من منطقة الفرات ، ولكن بصورة مؤقتة غير دائمة ، فمنطقة الفرات يجب أن تبقى بيد العثمانيين ، وهي ملك لهم ، كملكية الله على الارض ، ولكن ، لحقن الدماء ، واخماد الدخان الفائحة رائحته في نفوس المواطنين ، يجب الابتعاد قليلا كيلا تزكم انوفهم تلك الرائحة . وبعد ذلك يرجعون الى مناصبهم

كعائدين من أجازة ، وذلك حين تستقر الاوضاع ، وتغيب اعواد المشانق من العيون ، فيزاولون مهماتهم الرسمية على افضل ما يرام . وبعد ذلك يعود الجيش الغازي في الجنوب الى خيام مكة المكرمة ، ويؤوب ذوو القبعات الراطنين الى مملكتهم التي لا تغيب عن تاجها الشمس .

وجمع المتصرف حلمي بيك ومستشاروه واعوانه وحاشيته اخراجهم، وملأوها بالسمن والجبن والخرنوب ، ثم حملوها على ظهور البغال ، واجتازوا بها الجسر ذاك ، احد جسوري الخشبية المنصوبة في شمال دير الزور . وهم ، تارة يتوجسون خيفة ، وتارة يربطون جأشهم شمال دير الزور . وهم ، تارة يتوجسون خيفة ، وتارة يربطون جأشهم . وكانت مياهي تحت الجسر، تنظر اليهم بعيون كابية، اضناها طول السهر، وامضتها القيظ الآفل . فقد حدث ذلك في الخريف من ذلك العام .

وافاق الفراتيون ذات يوم ، ابنائي ، فلاحظوا ان السراي مقفلة دونما حارس أو رقيب او عتيد . فتلمسوا عيونهم التي غاضت فيها إعواد المشانق . وصرح بعضهم بأنهم سمعوا في الليل ضجيجاً ينبعث من فوق الجسر . ودار الهمس . لقد هربوا .. وخمّن بعضهم : لقد ذهبوا ليحضروا النجدات .. ولكن ذوي الامر ، فروا بلا جدل ، لقد انسحبوا الى غير رجعة ، وسنحكم انفسنا بأنفسنا ، ريثما يصل جيشنا الفاتح من الجنوب . وفي الوقت نفسه ، ننسج ونخيط اعلاما ورايات تحمل السيف والخنجر . ولكن احدهم من الشعراء الشباب ، اقترح ان ترسم على الرايات والاعلام شعارات جديدة مستمدة من الارض والطبيعة ، كالشمس والنجوم والقمر . وفي خضم النقاشات ضاع الهدف الاساسي من صنع الاعلام والرايات .

وتشعبت الآراء والافكار ، حول الشعارات التي يجب ان تنسج . حتى ان احد الفلاحين القساة ، اقترح ان تحمل الرايات شعار المنجل ، ولكن اقتراحه رفض رفضا قاطعا من قبل احد رؤساء العشائر . وقد وضع هؤلاء الرؤساء ، ثقلهم في القضية ، فصمت الناس جميعا . هؤلاء الرؤساء ، هم الذين كنت اغضب عليهم واثور حيثما اطوف وادمّر . وما كنت افعل ذلك الا لأغرقهم . ولكن ما حيلتي ولكن ما حيلتي اذا كانوا يسكنون القصور المنيعة ! ولكن لا تنسى ايضا ، انني اغرقت سليمان شاه، وكان رئيس عشيرة . ! هل تعرف ذلك ؟ لقد ظل هنا راقدا الى جانبي مئات السنين ، ثم نقلوه الآن الى جرابلس ، وظل الى جواري ايضا ، فسيمتلىء مكان ضريحه السابق بمائي ، ببحيرتي . ولكن ما لنا ولهذا الآن! فهؤلاء السادة ، رجال العشائر ، ظلوا يحكمون حتى الامس القريب . ومن سوء حظي، ان لم يكن لي شرف اقصائهم وازاحتهم، ثم وضعهم في الصفوف الخلفية ،

انني طوال عمري اسير من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ولكني سأعود الآن الى الشمال . لنرى ما حدث للمتصرف واعوانه الذين مضوا فيما سنسميه اجازة مؤقتة ، ريثما تستقر الامور كما كانوا يتوقعون ، ويرجع جيشنا الى خيامه في مكة المكرمة ، ويعود ذوو القبعات الراطنون الى مملكتهم التي لا تغيب عن تاجها الشمس ، وتختفي اعواد المشانق من عيون ابنائي . فقد تابع المتصرف وقافلته طريقهم الشمال مجتازين الحسكة ثم القامشلي ، حتى وصلوا الى ماردين ، اولى المحطات التركية وهناك . . . وفوق ارضهم الحقيقية، بدا المتصرف ورجاله يتصرفون كمواطنين حقيقيين . فقد بدا الخلاف والشقاق يدب فيما بينهم . فمنهم من اقترح

العودة الى حوض الفرات ، حوضي ، باعتبار ان الامور لابد وان تكون قد استقرت ، فيما رفض البعض الآخر هذه الدعوة ، وهؤلاء الرافضون ، كانوا من المتشائمين وبعيدي النظر . وقبل ان يشرع كل منهم في الامساك بتلابيب الآخر ، حسم الامير لاي ، وهو المستشار العسكري للمتصرف حلمي بيك ، الموقف قائلا : يجب ان نصل الى قيادتنا لنستدعي جحفلا عسكريا لنمسك جيدا بزمام الامور ، ونسكت الفوضى والاحتجاجات السائدة من صفوف الفراتيين . وهكذا ندخل منطقة الفرات للمرة الثانية دخول الفاتحين . معيدين مجد آبائنا الأوائل منذ خمسة قرون . وبما أن الامير لاي كان يحمل مسدسا محشوا ، ويزين كتفيه بالسيوف والنجوم ، ويرصف على صدره حصيرة من الاوسمة فقد كانت كلمته هي العليا .

وتابع الموكب سيره لتنفيذ اقتراح الضابط الكبير ، وحين وصول الموكب الى اقرب مركز حكومي انزل رجاله ، ليشرب افراده الشاي ويستريحوا من عناء السفر . ولكنهم ، وقبل تناول الشاي ، سمعوا بالاعلان المفاجيء ، فقد اعلنت الهدنة بين جيوش العالم المتحاربة ، فرنسا وانكلترا وروسيا من جهة ، والمانيا وتركيا من جهة ثانية ، في حين عاد جنود الجيش الروسي الى موسكوا لينضموا الى العمال والفلاحين ويقوموا بثورة ضد رجال العشائر عندهم ، ويسمونهم قياصرة . وكانت هذه الهدنة تقضي ببقاء كل جيش حكومة في مكانه ، ريثما يبت بالامور ، ويجري تقاسم الارزاق المستولى عليها نتيجة الحرب ، ويجري اعداد سلاسل لتقييد ارجل واقدام الشعوب التي استولي على اراضيها .

وهنا ثار فريق المتصرف حلمي بيك المطالبين بالعودة الى منطقة الفرات دون استدعاء جحافل عسكرية ، ضد الاميرلاي الذي كان يحلم

بالمجد والسؤدد ، باعتبار انهما مبتغى سهل المنال ، يمكن الحصول عليهما بحربة وقبعة وحذاء ممسمر . ونفخ المتصرف اوداجه ، واستهان بمسدس وكتافيات واوسمة الاميرلاي ، فأنشب اظافره في ياقته ، وجرده من سلاحه واوسمته وسيوفه ونجومه، ثم أعلن انه سيحاكمه بصورة ديمقراطية، ثم يطلق على راسه الرصاص من مسدسه نفسه . و .. غاضت اعواد المشانق من عيون الفراتيين . فقد أودع حكامهم السابقون البعض في المقابر ، والبعض الآخر وراء قضبان السجون .

وصمت النهر .. وعاد الى تجهمه ، ترتسم على صفحته التي تتسع وتأخذ شكل بحيرة ، تجعيدات سئمة . ووصل مهيار خلوف العبد الله . وجلس جانب الشاعر وسأله :

ـ هل انت تدشن البحيرة يا ضيف الله ؟

ورد الشاعر حالما :

ـ انني ارقب الجزر التي يحيطها الماء من كل جانب .

قال مهيار محاولا تجربة شاعرية جليسه .

ـ وهل توحي لك هذه الجزر بالشعر ؟

قال ضيف الله :

ـ لم لا . !

وصفق مهيار :

ـ هيا اذن . ! قل ..

وصحح الشاعر من وضع عقاله على راسه وانشد :

ياجزر الفرات انت حزينة

لست الا قواقعا مدفونة

حبس النهر صهوة الماء فيك

فبقيت سجينة مسكينة .

وعاد مهيار الى التصفيق :

ــ مرحى .. ولكن ما معنى صهوة الماء . ! انني لم افهم ..

ورد ضيف الله ساهما :

ــ وانا كذلك ..

ولم يشأ مهيار ان يناقشه . بل انتقل الى حديث آخر . تحدث عن كلمة غلاكتينوف كبير الجيولوجيين في تحول مجرى النهر ، فهو يقيس اهمية سد الفرات ببناء المسجد الاموي . ويقول ان السوريين بمساعدة الاصدقاء السوفييت بنوا اعجوبة مماثلة . تدرا السيول وتقي من الدمار، وتمد المعامل والمساكن والمدن والقرى بنور الكهرباء . ثم تحدث عن هذه البحيرة التي تتوسع شبرا شبرا . وبالمناسبة سيعطون هذه البحيرة اسما هذه الليلة . في حفلة السمر التي ستقام . فهل انت مستعد لالقاء كلمة شعرية في هذه الحفلة ، ورد ضيف الله من جديد .

ــ لا اعلم .

ولبثا فترة صامتين ، محدقين في الماء الذي ينتشر . قال مهيار :

ــ صحيح ما يقولون .. خريطة العالم تتغير . كما ان حديثك .. او شعرك بالاحرى ، عن مستقبل الانسان يعبر حقيقة عن الواقع . لقد اصبح المستقبل حاضرا .. وهو بيد الانسان .

غمغم ضيف الله بدون طلب او تشجيع :

ارضنا ارض الجدود

وصمت .

ولم يطلب منه مهيار ان يكمل . فقد شرد بأفكاره الى أمر آخر . على ضفة النهر حدثه ابوه مرة عن الاستعمار الانكليزي لمنطقة الفرات .

قال له ابوه :

ـ انظر يابني الى النهر .. انه يفكر مثلنا .

وسأل مهيار متعجبا :

ـ كيف !

ورد الأب :

ـ أن يستعرض ما ضيه الحافل ... يستعرض شيخوخته ..

قال مهيار مستفسرا :

ـ ولكن الفرات لا يزال شاباً يا أبي ..

وقال الاب بأسي :

ـ مع الاسف يا بني ان الشباب لا يفكرون . والفرات على كل حال ليس من شباب اليوم ، بل هو من شباب الامس .

كان الشابان قد نهضا وتمشيا قليلا ، فوصلا الى شرق السد ، حيث كان النهر يسير حزينا متعبا هزيلا ، بعد رحلة طويلة ، شاقة ، متعبة ومثيرة فعل خلالها ما حلا له أن يفعل ، متربدا صاخبا ، تارة من نشوة الظفر ، واخرى بتأثير العمر والتجارب . لقد سكر مرارا ، فماج واضطرب ، وحطم كل ما وصل الى يديه من جدران وسقوف ومحاصيل ، وطوى تحتها ما طوى من اجساد وارواح . انه اليوم يمضي هادئا بسيطا ،

يكاد ان يكون خائفا منهكا ، بعد ان قلمت اظفاره ، وبات لا يقوى على اطلاق اية صرخة . تنهدات بسيطة واهنة ، كانت تفصح عن اسراره المكنونة . انه كشيخ هرم ، يجر عصا ترحاله القاسية جرا لا تقوى اصابعه على الامساك بها . ومع ذلك فهو يسرد ذكريات ماضية التليد والوليد ، وكأنه يستمد منها العون ، ليصل الى مرفأ امانه ، قبل ان تخونه القوة في اسعافه، انه يبدو كأنما هو يجر اذيال عمر سحيق مليء بالاحداث . ويحكي لاحفاده ــ وفي عينيه تترقرق الدموع ــ حكاية ابنائه الثائرين الذين نجوا من عقابه . اولئك الذين شربوا من مائه ، فماجت في عروقهم دماء الفرات . . انه يتحدث دون ان يقلب صفحة ، بادئا من انتفاضة ابنائه ضد التتار والمغول الغازين ، ومنتهيا بالعثمانيين ثم بالانكليز ثم بالفرنسيين ، مشيحا بوجهه عن هؤلاء الاغراب الجدد الذين لم يثيروا حفيظته اكثر من انهم تعاونوا مع مواطنيه على لجم قدرته وهدّ حيله وسجنه في قفص البحيرة ، لتشرب عصير عنفوانه الارض العطشى ، والناس البعيدين ، ولتستنير من قبسات روحه جميع الكهوف المظلمة ، هذه القبسات الموزعة على جميع الانحاء والاصقاع . النهر الآن يتحدث عن ماضيه في خشوع ، ولكن في نبراته ، ينطوي غيظ مكظوم . انه الآن راض بما بقي له من نصيب ، في نفس هادىء ، غير انه لا ضعيف ولا متقطع .

بعد رحيل العثمانيين عن منطقتي ، كلم الفراتيون انفسهم بأنفسهم ، تحت قيادة مجلس عشائري . الم اقل لك . ! ها . . انتما الآن اثنان . انت يامهيار ، كنت تريد ان تحكي لرفيقك حكاية الانكليز التي حكيتها لأبيك ، ولكني سأرويها انا بنفسي مرة ثانية . الم اقل اني كنت اريد ان اكنس بثوراتي هؤلاء رؤساء العشائر . ولكن الذنب ليس ذنبهم على

كل حال . كانوا رجالا طيبين ، بالقدر الذي كان معنى الطيبة مفهوما في عهودهم ، واظن بأنهم كانوا مظلومين ، لان معنى الطيبة تغير وتبدل ، مع تغيير الزمن وتبدله . لقداصبح للطيبة معنى جديد، متوافق مع تقدم الزمن العجيب . هذا الزمن اللعين الذي لا يترك امرا على حاله ، انه يصاحب في مسيرته الجديد ، ويترك العتيق منحلا باليا . تبا لهذه الازمان ، لو يمكن ايقاف دورانها على الاقل ف . . فليكن . المهم ، انا نفسي كنت اساير الزمن واخشاه ، لذا كنت احاول بثوراتي ان اكنس رؤساء العشائر ، لافسح المجال امام اطفالي الذين يستهينون بي ، يستحمون بمياهي ويركضون على حصاي ويتراشقون به ، ويطبعون بطون أقدامهم على رمالي . والآن وقد جاء دورهم ليكبروا ويعملوا ، فليس لي ان آسف أو احزن . انني سعيد برغم كل شيء، لان التضحية ـ كما تقولون ـ هي عمل مجيد يستحق الثناء.

وهكذا ترى يا ابني يا مهيار ان الدنيا مليئة بالعجائب . فبعد أن تخلصنا من المتصرف حلمي بيك وجنوده وزبانيته ، جاء يحكمنا بعض المشايخ ، ومنهم خال والدك فنوش العبود رحمه الله . ورحنا ننتظر وصول جيشنا القادم من الجنوب ، الذي لم يتأخر كثيراً ، شهرا فقط ، او ثلاثةوثلاثين يوما بالضبط ، نعم ثلاثة وثلاثون كحبات السبحه . الا ترى هذا الرقم (ثلاثة) ؛ انه رقم ذو مدلول كبير . ولا ادري لماذا لا يسير أي مخلوق على ثلاث . فالمخلوقات اما أن تسير على اثنتين او على اربع ، مع ان الثلاث لها نصيب كبير في جميع الاعداد . فحين تريد ان تفحص امرء جاهلا ، تسأله : ثلث الثلاثة كم ؟ والفصول ترى ان كلا منها ثلاثة أشهر ، ولو كنت على معرفة اكثر بأمور الدنيا ، لقدمت على الرقم ثلاثة امثلة اخرى .

وفجأة قفزت من بطن النهر ثلاث سمكات كبيرات ذوات زعانف براقة . فصمت النهر قليلا ريثما يعيد السمكات الى أحضانه . ثم تابع روايته .

ووصل الجيش الفاتح ، المعتمر العقال ، الى مدينتي دير الزور ، في أوائل الشتاء . ورفعت الاعلام والرايات التي تم نسجها احتفاءبالقادمين المحررين . بعضها يلوح في وجه الخيول وفرسانها ، وبعضها الآخر تم رفعه على اسطحة المنازل . وكانت هذه الرايات ، بعضها يحمل السيوف ، وبعضها يحمل النجوم ، ولسبب لم يدركه احد ، وجدت راية من الرايات تحمل المنجل . ووقف المتصرف العربي مرعي باشا الملاح خطيبا في الساحة . واعلن انه جاء متصرفا لمنطقة الفرات وانه مؤمن مسلم ، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقدم الى الناس اللواءعلي بك العسكري ، المكلف بتشكيل جيش وطني . ثم اعلن عن تاليف مجلس عشائري جديد . كان من اعضائه جد أم مهيارخلوف عبدالحميد رحمه الله . ولكن فجأة . دخل الانكليز الى المدينة ، فقامت القيامة وفار التنور . دخل الانكليز ايضا بعد ثلاثة وثلاثين يوما . . الم اقل . . ان هذا الرقم ذو مدلول كبير . دخل الانكليز الى دير الزور مجتازين جسري الشمالي الشرقي ، انه جسر بسيط ولكنه قوي . فقد حمل فوق ظهره ناقلات الجنود والسيارات المصفحة .

هالو بوب . هالو بوب . . هكذا كانوا يتصايحون . ثم يرددون (لوك ريفر) و كانوا يقصدونني بهذه العبارة ، وكان قائدهم الميجر (كاروير) يركب في سيارة المقدمة المكشوفة . وهم عندما يلفظون هذا الاسم ، لا يلفظون الياء لفظا كاملا ، ولا الواو ايضا . انهم يمزجون الحرفين بحوف واحد .

وتوقفت القوة الانكليزية امام دار المتصرفيه ، وهبط الميجر من

سيارة الجيب . ودخل المتصرفيه وبيده عصا صغيرة لا تصلح لطرد كلب متشرد . وفي وجهه مزروع انف صغير أشبه ما يكون بنبات الفطر . وبعد أن غاب فترة من الزمن ، أمام ذهول ابنائـي الفراتيين وحيرتهم ، وهـم يتهامسون : هل جاء الانكليز ليحكموا بلادنا بدلا من العثمانيين ! ان هذا استخفاف بنا وحط من كرامتنا . وهل يظن العثمانيون والانكليز انـا لا نستطيع ان نحكم انفسنا بأنفسنا ! وقد تبين للناس فيما بعـد ، ان الانكليز قد جاؤوا فعلا ليتسلموا حكم منطقة وادي الفرات . وقد جاؤوا من بغداد . ان أحداً لا يعرف كيف تم الامر . بالرغم من انه كان واضحا وضوح الشمس . فقد احتل الفرنسيون الساحل السوري ، أي غرب البلاد ، واحتل الانكليز شرق البلاد . وهكذا .. لقد اشترك الفريقان مع الشعب العربي بمحاربة العثمانين ، ثم جاء هـذان الفريقان ليحاربـوا حليفهم ويستولوا على ارضـه . كان يقال بـأن هناك اتفاقا بين زعمـاء عشائرنا وبين هؤلاء الانكليز . الم أقل اني كنت اريد ان اغرق هؤلاء رؤساء العشائر ؛ انني اعود الى هذه القصة كل مرة ، ولكن الآن انتهى امرهم وكفى .. ولكن بعد فوات الأوان ، فقد سببوا لأبنائي من المصائب ما يطـول شرحه . ولكن يجب ان اكون وفيا تجاه المخلصين من ابنائي ، فقد رفض مرعي باشا المتصـرف ، الانصياع لطلب الميجـر الانكليزي بالتخلي عـن منصبه ، والى ان يسلمه مفاتيح المدينة . فهدده الميجر باستعمال القوة . وابـرز له عضلاته وقوات جنـده وعددهم واسلحتهم ، دون ان ينسى عصاه . وخشي المتصرف ان ينفذ الميجر تهديده . ولكي يرفع المسؤولية عن نفسه تجاه الناس ، طلب اليه ان يستشير رؤساءه بهـذه القضية . واصطحبه الى رئيسه المباشر حاكم حلب . وكان اسمه شكري باشـا الايوبي . واذا بالقضية مرتبة ترتيبا رائعا . فقد اعلن الباشا الايوبي ،

ان الانكليز سيحكمون منطقة الفرات ، تنفيذا لمعاهدة اسمها (معاهدة سايكس بيكو) اليس هذا صحيحا يا مهيار ! الم تقرأ هذا في المدرسة !
ضيف الله لم يقرأ ذلك ولا يعرفه . اما انت . !

وهز مهيار رأسه . انه هو الذي يتحدث وليس النهر . وضيف الله يصغي ، متخيلا ان النهر هو الذي يتحدث ، ومهيار يتذكر حديث والده عندما تتوقف طاحونه عن العمل الى جوار النهر .

وهكذا ترى يا ولدي ، ان رؤساءنا سلمونا الى الانكليز لقمة سائغة . فحين عاد الميجر الانكليزي الى دير الزور ، مخلفا متصرفنا وراءه ، نشر جنوده في كل مكان . وامر برفع اعلامنا وراياتنا ، التي قضينا اياما في نسجها وتلوينها ، ونحن نمنّي انفسنا بكل الاماني الطيبة . وطوى اعلامنا التي تحمل السيف والنجمة والمنجل ، ورمى بها الى النهر .. نعم رمى بهذه الرايات .. هذه الرايات الجميلة فوق مائي ، فأخذتها بعيدا .. بعيدا ، حيث راح يلتقطها أبنائي الصغار في الميادين والبوكمال ، فيجففونها ، ويعيدون رفعها من جديد ، على عصي مقصوصة من اوراق الشجر . وقد غرق عدد قليل من هؤلاء الاطفال ، ولكني لم احملهم بعيدا ، بل أعدتهم الى أهليهم الذين ما كانوا يذرفون الدموع ، بقدر ما كانوا مندهشين للرايات التي كان اطفالهم يتوشحون بها . انا وحدي الذي كنت اذرف الدموع ، ولكن ابنائي الكبار لم يرضخوا لما اسموه مؤامرة ضد وطنهم ، ولم يقبلوا باحتلال جديد لبلادهم . فاضطربت نفوسهم ، وهاجت خواطرهم ، وعبروا عن سخطهم بالمظاهرات ، وتحطيم اللافتات ، والقاء الحجارة على الحوانيت والثكنات ودور الحكومة . فأغلقت الحوانيت ابوابها . وانزل الميجر الانكليزي رجاله المسلحين الى الشوارع وامرهم باطلاق النار . وقد اسمى

هذه البوادر بأنها اخلال بالسلامة والامن . ثم فرض الاحكام العرفية ، والقى القبض على الشباب ، والقى بهم في زنزانات السجون .

.....

عند إعلان الهدنة بين الحلفاء ، بعيد انتهاء الحرب العالمية الاولى عام الف وتسعمائة وثمانية عشر . لم تكن الحدود بين سورية والعراق موضوعة او محددة بشكل من الاشكال . ففي ايام الحكم العثماني ، كانت ما يسمى العراق الآن ، عبارة عن الوية ممزقة ، اهمها ولاية بغداد ، وتضم اليها لواء اسمه قضاء (العانة) . وكانت هـذه الولاية تمتـد على طول نهـر الفرات . اما دير الزور فلم تكن تابعة لولاية بغداد او ولاية حلب ، وانما كانت عبارة عن متصرفيه قائمة بذاتها ، وتتبع العاصمة التركية استانبول مباشرة ، وظلت هكذا الى ما قبل الحرب بمدة قصيرة . الى ان حدثت بعض التغييرات في التقسيمات الادارية في البلدان التابعة للحكم التركي ، فالحقت بمتصرفية الدير نواحي من ولاية بغداد ، بما فيها قضاء (عانـة) نفسه .

وبعد تقهقر الاتراك ، حدثت تغييرات جديدة . فأرسلت الحكومـة البريطانية الى (عانة) معاون حاكم سياسي بريطاني . اما بشأن دير الزور فلم تتخذ أي ترتيبات وذلك لعدم وجود تعليمات بشأنها لدى السلطات البريطانية . وهذا ما اتاح لاهالي منطقة الفرات بأن يتمتعوا بعض الوقت بما يشبه الحكم الذاتي ، الى ان تمّ تنفيذ اتفاقية (سايكس بيكو) التي كشفت روسيـا عن تفاصيلها بعد قيـام ثورة اكتوبر العظمى عام الف وتسعمائة وسبعة عشر .

ولم يرضخ ابناء الفرات الى الاحتلال الانكليزي ، وبالتالي يئسوا من مساعدة زعمائهم الحاكمين ، لأنهم عرفـوا بأن الامور تجـري برضـاهم

ومعرفتهم . وشردت الاذهان الى ضابط من ابناء الفرات يتوسم فيه الناس النبل والأريحية و والطيبة . وكان هذا الضابط قائمقاما عسكريا لقضائي الرقة والخابور، فاتجه الوطنيون اليه،طالبين تخليصهم من حكم من اسموهم البرابرة الذين لايؤمنون بالله . وكان العقيد (رمضان شلاش) ـ وقد سمي فيما بعد بالضابط الوطني الغيور ـ ، ينتظر الفرصة السانحة التي تتيح له ان يقوم بعمل رائع وهام ، يحقق مجداً من الامجاد . فجمع رجالة من أبناء الفرات ، وسار على رأسهم متوجها الى دير الزور ، لتحريرها من ماضفي الكلمات كما جرت تسميتهم . وهذا ما حدث في البداية . .

في التاسع عشر من تشرين الثاني عام الف وتسعمائة وتسعة عشر ؛ استلمت السلطات العسكرية العيا في بغداد من المندوب السامي في القاهرة، برقية تفيد بأن عقيداسوريا فراتيا اسمه رمضان شلاش، وهو يشغل منصب قائمقام لمنطقتين على وادي الفرات ، قد جاء الى حلب لاتخاذ بعض الترتيبات المشبوهة ، للتدخل ضد الاحتلال الانكليزي لمنطقة الفرات ، وانه قد عاد الى الرقة وشرع يتصل بالقبائل العربية بصورة فعالة تدعو الى الريبة والحذر . . وفي العاشر من كانون الاول ، نمي الى الكابتين (كاميرا) معاون الحاكم السياسي بدير الزور ، ان قوة عربية كبيرة ؛ كانت تزحف من الرقة لتهاجم دير الزور ، فهاج الكابتين وماج ، وجمع قواته، ثم اعلن النفير العام . واراد ان يتخذ موقفاً حاسماً لدرء الخطر عن المستعمرة ، فاصطحب قائد آلياته المصفحة ، وذهب وإياه في سيارة مكشوفة لاستطلاع الطرق الشمالية الغربية المؤدية الى الرقة والخابور ، ولكنه في طريقه لم يلحظ اية حركة غير عادية . فشك في امر البرقية ، وقال في نفسه : أن رجال الاستخبارات ليسوا دائماً على صواب . انهم يطلقون

التكهنات ، ولن يكون منها صائب غير بالمائة واحد او اقل . ولكنه في اثناء عودته ، وفي منتصف الطريق تقريبا ، عند مفرق احلابيا وزلابيا ، الموقعين الاثريين ، فوجيء باطلاق الرصاص عليه من وراء رجم من الرجوم المنبثة في امكنة كثيرة في الصحراء ، ولكنه تمكن مع زميله من النجاة باعجوبة .
والواقع أن القائد رمضان شلاش لم يكن ضابطاً غرا سطحي التفكير ، بل كان محنكاً وذا بصيرة ، فأرسل بدوره مخافر أمامية للرصد والاستطلاع ، وقد قام أحد هذه المخافر بتلك المهمة ، التي وإن كانت لم تعط ثمرة مباشرة ، الا انها أعطت مردودا حاسما . غير أن الكابتين البريطاني ظل على زعمه بأن الفراتيين لن يستطيعوا القيام بأية حركة تقلب ميزان القوى. ثم انه أبرق الى بغداد — ومن قبيل الاحتياط — بأن هناك قلاقل في منطقة الفرات ، يحتمل ان تؤدي الى احداث وخيمة العواقب . ثم أمرعلى الفور — متوقعا ان يكون تخمينه صحيحا — بتوقيف رئيس البلدية الديري لارتيابه في سلوكه غير الداعي الى الاطمئنان ، ثم اتخذ جميع الاحتياطات وتدابير الامن الداعية الى اخماد أي حركة مسلحة تهدف الى احتلال المدينة . واعتصم مع ضباطه وجنوده في ثكنة دير الزور الكبرى ، ممركزا اسلحته الرشاشة ومدفعيته الخفيفة ، في اماكن التربص . ولكن برغم ذلك حدث ما سجله التاريخ بلا نقص او مبالغة .

ففي صباح الحادي عشر من كانون الاول الباكر ، دخلت القبائل العربية مدينة دير الزور من جهة الجنوب بدلا من الشمال الغربي . وهب سكان المدينة لاستقبالهم وملاقاتهم . وهاجمت القبائل المسلحة دائرة الحاكم السياسي البريطاني ، فكسر رجالها الخزائن واستولوا على محتوياتها .. كما نسفوا مستودعات الوقود . وفتحوا ابواب السجون

واخرجوا المناضلين من الزنزانات وافرجوا عنهم وضموهم الى صفوفهم ، وفي اليوم التالي ، هاجم رجال القبائل الثكنة التي يعتصم فيها معاون الحاكم العسكري وضباطه وجنوده واسكتوا الرشاشات والمدافع المنصوبة على الاسطحة ، ورفعوا مكانها الاعلام العربية .

وفي هذا الوقت بالذات كان وزير المستعمرات البريطاني السير (ونستون تشرشل) يخطب في مجلس العموم :

ان لبريطانيا العظمى عدوين لدودين في الشرق ، هما لينين في روسيا ورمضان شلاش قائد العصاة في منطقة الفرات في سورية . (١)

---

(١) الكفاح الشعبي في سورية ص ٨٦ الرائد احسان هنيدي .

١٦

قال عبد الاحد حبيب لجمعة السالم الذي كان يجلس الى جواره في حفلة السمر :

ـ هل هذه حفلة سمر ام هي خطابات ! انهم يدخلون الخطابات في كل مناسبة دون أن يتركوا لنا اية لحظة لنرفه عن انفسنا . !

ولكن جمعة طمأنه قائلا :

ـ الخطابات يا صديقي ضرورية في المناسبات الكبيرة . وهذه الحفلة هي مناسبة هامة بمناسبة تحويل مجرى النهر .

ولم يكن المراقب نايف سعيد عريفا في هذه الحفلة ، فقد كان يجلس في الصف الامامي منطويا على نفسه ، غارقا في خضم خواطره . فقد زار صديقه عبد السلام حيدر بالأمس في مستشفى حلب وهناك التقى مذهولا بالفتاة سامية خطيبة عبد السلام . ان سامية ابنة قريته في الغاب وكان يحبها ، ويمكن القول انه كان يعبدها ، ولكن الفتاة لم تكن تعيره أية اذن صاغية في أي وقت من الاوقات . ولم تكن لتعطيه انتباها . لم تشجعه مرة على أن يتحدث اليها ، وكانت تعزف حتى عن تحياته . وظل فترة مندهشا لهذه البادرة وهذا الصد من الفتاة ، الى أن عرف السبب من اخته ، وبطريق المصادفة . ففي احدى المرات ، وكان يتحدث عن

سامية في داره ، كانت اخته حاضرة ، ففشت السر . كانت سامية تعمل خادمة أيضا لدى عائلة قاضي صلح في مدينة حماه ، وكانت الفتاتان تلتقيان حين تذهبان الى السوق لشراء الحاجيات ، وكانت انتصار أخته تحدثها عن الظروف السيئة التي دفعتها لان تشتغل خادمة لدى الناس ، وان أخاها نايف هو السبب المباشر لهذه الظروف . فهي مضطرة لان تكسب المال وتقدمه لابيها لينفقه على دراسته . وهنا كونت الخادمة ساميه انطباعا سيئاً عن نايف ، واعتبرته شاباً مدللاً يعيش من أتعاب الآخرين وشقائهم ، واستجابت على الفور لطلب يدها من قبل عائلة عبد السلام حيدر التي كانت تسكن في قرية مجاورة كقريتها . فأصبح الشاب خطيبها دون قيد او شرط . والآن ، وهي تزور خطيبها الذي قطعت ساقه ، وهو في انتظار تركيب ساق صناعية ، وجدها غير حزينة أو آسفة ، كما انه لاحظ أن عواطفها تجاه خطيبها لم تتبدل أو يعتريها اي تحفظ . وكان نايف قد راودته أفكار آثمة ، حين علم بأن عبد السلام هو خطيب لسامية . وقال في نفسه : ستعزف سامية عن الزواج برجل مقطوع الساق ، وستعيد النظر بمسألة الرضى به هو كزوج يتحلى بأخلاق حميدة ، وذي مستقبل مشرق مضمون . ولكن في الامس خاب ظنه ، واعتراه يأس مطلق . فساميه ستبقى خطيبة لعبد السلام ، وهي لا تعتبر فقد خطيبها لاحدى ساقيه مشكلة ذات بال ، وستبقى له ولو فقد ساقه الثانية ، أو بعض اعضائه الاخرى . مما اضطره لان يفتح في المساء دفتر مذكراته ، ويضيف اليها فقرات وافكارا وخواطر جديدة ، تتعلق بساميه ومسألة الزواج والحياة العائلية الرغيدة .

وفي الاحتفال عاد عبد الاحد حبيب الى التبرم من مسألة الخطابات

والكلمات . حين نهض احد اعضاء شبيبة الثورة واعتلى خشبة المسرح ليلقي كلمة ، غير ان جمعة اخذ يبرر الموقف :

ـ ستكون الكلمة هامة يا صاحبي . فيجب ان تعلم انه، اثر المعاهدة التي عقدتها الجمهورية السورية مع الجمهورية الفرنسية في الثاني والعشرين من الشهر الثاني عشر من عام الف وتسعمائة وستة وثلاثين ، تشكل في سورية جيش وطني على هيئة قطعات خاصة ، ضم متطوعين من فئات الشعب كافة . وبدأ اقبال الناس على الانخراط في هذا الجيش . كما افتتحت كلية عسكرية عربية تخرّج الضباط السوريين واللبنانيين ، فقد كانت سورية ولبنان دولة واحدة ، ومن الواضح ان قطعات هذا الجيش كانت موضوعة تحت امرة وقيادة السلطات الفرنسية . وذلك بصورة مؤقتة، كما تم الاتفاق على ذلك، ريثما يتم الاستقلال الذي كان يجري التمهيد له . ولكن الدستور السوري جرى تعليقه من ذلك الحين ، نظراً للاضطرابات الشعبية التي كانت تندلع بين الحين والآخر مطالبة بالاستقلال . وبعد أن جرى تعليق الدستور ، عادت فرنسا لتحكم سورية من جديد ، وبصورة مباشرة ، وذلك بعد أن رفضت الجمعية الوطنية الفرنسية تصديق المعاهدة السورية الفرنسية . وهذا هو الموضوع الهام الذي سيتحدث عنه عضو شبيبة الثورة الآن باعتبار أنه يؤدي خدمة العلم برتبة ملازم ، وان احد اقربائه كان يعمل في فترة الاستقلال في منطقة الفرات .

قال عضو شبيبة الثورة :

ـ كان خالي ضابط صف في ذلك الحين . وكان يخدم بالفوج ـ كانت الكتيبة تسمى فوجا ـ السابع عشر في منطقة دير الزور . وقد

قرأت مذكراته كلها .

قال رمضان الدرادر ، وقد كان ابوه ضابط صف ايضاً :

ـــ وماذا جاء في هذه المذكرات ؟ .

ورد عضو شبيبة الثورة دون التعليق على السؤال :

ـــ تتحدث مذكرات خالي عن مرحلة الاربعينات من هذا القرن ، وعن مدى التذمر والاحتجاج الذي كان يسري في صفوف الجيش العربي السوري، اي ماكانت تسمى (القطعات الخاصة)،وجنودها كانوا يتقبعون الطرابيش الحمراء ، وكانوا يسمونهم أصحاب الطرابيش الحمر بلا ذنب .

قال فواز بمرح شديد ، ويبدو انه كان شاربا :

ـــ وهل يسمون طرة الطربوش ذنبا . !

ورد عضو الشبيبة في رحابه صدر :

ـــ ليس اسم ذلك الذيل طره على اية حال : المهم . انه بدات حوادث التمرد بين ضباط الجيش خاصة على رؤسائهم الفرنسيين . وراحوا يرفضون تنفيذ الاوامر الصادرة اليهم . وحدث بينهم وبين الضباط الفرنسيين كثير من المناوشات والمشاودات العنيفة ، كانت تؤدي في كثير من الاحيان الى التماسك بالأيدي واشهار السلاح . وبدا ضباط الجيش السوري وكثير من صف الضباط والافراد ينفكون عن الجيش ويلتحقون بثورة العراق التي اندلعت في ذلك الحين بقيادة رشيد عالي الكيلاني ضد الانكليز .

صاح شعبان الصالح :

ـــ نعم . . فقد التحق ابي بهذه الثورة وجرح فيها .

وقال اسطفان مستفسرا :

ــ وهل كان أبوك ضابطاً ؟

وارتبك شعبان لهذا السؤال ورد :

ــ لا . . نعم . .

وضحك بشاره اسطفان لانتصاره :

ــ كيف لا . . وكيف نعم . ؟

ولكن شعبان لم يسقط في يده فقد رد :

ــ هذهكلمة تقال ، وهي تعني لا على كل حال . .

قال الحجي وقد اسهم في النقاش لاول مره :

ــ ولكننا نحن نتحدث عن الضباط الوطنيين في الجيش السوري .

واضاف متزلفاً :

ــ الباسل .

قال فواز هلال بلسان يكاد ان يكون ملتوياً :

ــ كان ابوه وطنياً وليس ضابطاً .

واسعف شعبان الصالح هذا الجواب فقال :

ــ نعم . . لم يكن في ذلك الحين ضابطا ، ولكنه صار ضابط اثناء ثورة الكيلاني .

وكان عضو اتحاد شبيبة الثورة في اثناء الجدل يصغي في اهتمام دون ان يعتوره التذمر او السخط مما بدا عليه انه غير متحمس لالقاء كلمته او انه مدفوع لالقائها دفعا . وفي هذه الاثناء كان الشاعر ضيف

الله غارقا في خضم آخر . فهو يستحضر في ذهنه نوعاً جديدا من الاشعار ، لم يسبق أن فاه به أحد او خطر بباله . اما المراقب نايف سعيد فما زال يعاني من ازمته النفسية : كلهم سيتزوجون ويحصلون على مساكن ، الا انا فسأبقى في عداد العازبين الذين ليس لهم شأن . غير ان ما كـان يدخل العزاء الى قلبه هو النبأ الذي حصل عليه اثناء زيارته لفرع الحزب في حلب ، وهو انه سيتفرغ للعمل في فرع الحـزب في السقيلبية منطقـة الغاب . لقد أصبح مستقبله مضمونا ، وسيتخلص من الانتقـال الـى المشروع الرائد الذي تهيأ الآخرون للانتقال اليه . فهناك ستبدأ حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن الحياة التي يعيشهـا الناس في كل مكان . في المشروع الرائد سيبنى العاملون عالما آخر تكتنفه كثير من الصعوبات . وهو ليس متهربا من مواجهة الصعوبات ، بل — ولسبب ما — بـات يبحث عن الاستقرار . وما له أن يكون للفتاة سامية كل هذا التأثير في حياتـه .

واغتنم عضو اتحاد شبيبة فترة الصمت فتابع كلامه :

— انكم — بل أكثركم يعلم — انـه في عام ، الف وتسعمائـة وثلاثـة واربعـين تمّ في بلادنـا ما نسميه استقـلالا ، وذلك نتيجـة للضغـط الـذي مارسته بعـض الـدول على فرنسـا ومـن بينهـا ، روسيـا الاشتراكية ، لالغاء امتيازاتها في سورية ولاعطاء الدول المستعمرة استقلالها . خاصة وان فرنسا كانت قد سقطت بيد الالمان النازيين وانتقلت الفاشية الى سورية بقيادة الجنرال بتيان ، الذي تسلم الجمهورية الفرنسية تحت حكم الالمان النازيين . وهكذا نرى ان الدول الضعيفة تبقى لقمة سائغـة بين انياب الدول المستعمرة .

هتف فواز هلال — ويبدو انه كان يتناول الشراب من زجاجة في جيبه : وهكذا نتخلص من الاستعمار العثماني لنقع في الاستعمار الانكليزي، ونتخلص من الاستعمار الانكليزي لنقع في الاستعمار الفرنسي ، ونتخلص من الاستعمار الفرنسي لنقع في الاستعمار الفاشي ، ونتخلص من الاستعمار الفاشي لنقع في الاستعمار الصهيوني . و ..

وقاطعه الجميع بنبرة واحدة :

— خسيء الصهاينة .. خسيء الصهاينة ..

ونادى المراقب نايف سعيد ولاول مره ظهر صوته ، وكان حادا ..

— ارفعوا الزجاجة من جيبه .. انه سكران ..

وهدا الضجيج ، عندما نهض فواز هلال خشية ان ينفذ العمال اوامر المراقب نايف ، وانفرد بعيدا في كرسي منعزل . وقرر أن يصمت .

هتف شاهد . وكان طوال الوقت يستعرض الاحداث . مستعرضا ما يسمعه ، مقارنا بينه وبين ما كان قد قراه .

— ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب .

وايد اسطفان هذا القول .

هذا هو الكلام الجوهري .

قال جمعه السالم فجأة موجها كلامه لعضو الشبيبة :

— وبعد ذلك ماذا حدث ! .

وساجله عبد الاحد قائلا :

— انهم يدرسون هذه المعلومات في المدارس الابتدائية .

ولكن فواز هلال الذي لم يعتبر رد من الخلف :

— وماذا يفعل جمعه السالم اذا كان لم يدرس في المدارس الابتدائية .

واضاف مشاكس آخر :

لقد انتقل جمعة السالم الى الكلية راسا .

ورفع عضو الشبيبة ساعده ، ويبدو انه اراد حسم الموقف ، او ان رئيس الفرقة الفنية القادمة لاحياء الحفلة قد غمزه لينهي كلمته . فأردف في اختصار :

ــ وقد ظهر أثناء الحرب بعض السياسيين والعسكريين الفاشيين في فرنسا نفسها . فصرّحوا بأن فرنسا باقية في سورية الى الأبد ولن تتخلى عن شبر منها .

وهتف فواز هلال من جديد :

ــ كما يصرح القادة الاسرائيليون بالنسبة الى الجولان .

وفي هذه المره رد عضو شبيبة الثورة بنفسه ، وقد اتخذت لهجته لهجة طالب يؤدي خدمة العلم :

ــ تماماً . . ولكن الفرنسيين سبقوهم بأن طردوا من سورية .

فعلا التصفيق والهتاف من كل جانب لهذه الاجابة الصحيحة . وتابع عضو الشبيبة :

ــ وكرد فعل علي تلك التصريحات الفاشية من القادة الفرنسيين، بدا الضباط السوريون منذ اوائل شهر آذار من عام الف وتسعمائة وخمسة واربعين يتجمعون سرا . ويختلون بمرؤوسيهم يحضونهم على الثورة ضد الاحتلال الفرنسي . وبما ان قيادة الامن الداخلي كانت بيد السلطة الوطنية ، فقد اخذ الضباط وصف الضباط وافراد الجيش يلتحقون بهذه القيادة . كان افرادها هم الشرطة والدرك في ذلك الحين ، او شرطة الارياف . وكانت هذه القوى مسلحة ويمكنها أن تقف في وجهة القوات

الفرنسية موقف المقاتل . فجحظت عيون السلطة الفرنسية من الرعب ، وأمرت بحجز العسكريين السوريين في ثكناتهم . وهذا ما حدث عندنا هنا في منطقة الفرات بصورة خاصة .

وهنا صاح مهيار عيسى عبيد

ـ حدثتني امي انه في صيف عام خمسة واربعين لم يبق في البوكمال ودير الزور والميادين اي ضابط او صف ضابط في الثكنات ، بل التحقوا جميعهم في قيادة الدرك وهم بكامل اسلحتهم .

سأل ضيف الله الشاعر وقد بدأ يصغي للحديث :

ـ وفي الرقة ! .

قال عضو الشبيبة :

ـ يقول خالي في مذكراته . ان سلطات الرقة الفرنسية كانت اكثر عنفاً ، فقد سجنت العسكر مع ضباطهم وجردتهم من اسلحتهم .

وقال مهيار :

ـ ولكنهم .. هربوا .. الم يهربوا . !

قال عضو الشبيبة :

ـ طبعاً .. والتحقوا بدير الزور مع ضباط موقع تل أبيض ، وكانت هذه القوى هي التشكيلة الاولى للجيش السوري الوطني الوليد الذي خاض معارك فلسطين بعد ثلاثة اعوام ..

وعلا التصفيق والهتاف من جديد .

وهتف مهيار خلوف لعبد الله :

ـ هيه .. نحن الوطنيين الأول اذن . !

ولكن فواز هلال صاح وقد ربط لسانه :

ـ لاتنس دمشق وحوران وجبل العرب وضباطهم الاشاوس .

وتدخل شعبان :

ـ لاتنسوا المنطقة الوسطى حمص وحماه اذن . !

وصاح عزيز الجابري :

ـ ولاتنسوا حلب يوب ..

لم يدر احد متى دخل عالم الآثار انطونيو وهو يحمل تحت ابطه لوحة كبيرة مغطاة بقماش ابيض ، صعد الى خشبة المسرح بهدوء ، وسند لوحته في أسفل الجدار . ولم تثر حركته لغطاً كبيراً . وكان البعض يعرفون ان الرسام يريد أن يشارك بالاحتفال بتقديم آخر لوحاته الجميلة . أما وجود المساعد وشرطيين من افراد مخفره فلم يكن ليخطر لاحد على بال . وكان قد قدم منذ فترة طويلة وجلس مع مرافقيه في الصفوف الخلفية . وكان مدعوا بصورة رسمية من قبل مديرية العلاقات .

وانهى عضو شبيبة الثورة مذكراته بكلمة رصينة وهادئة عن ثورة الجيش والشعب السوري لتحقيق جلاء الفرنسيين عن سورية في عام ستة واربعين . ونهض الشاعر ضيف الله ليقول كلمته ، ولكن ظهور رئيس البعثة الفنية في تلك اللحظة ، أهاج المشاعر ، وجعل ضيف الله يصمت ويعود للجلوس في مكانه .

تعارف الناس على لقب فنان او مطرب على كل من وقف على خشبة مرتفعة ومستوية ، ثم أطلق عقيرته بأي نوع من انواع الصياح . أما اذا فعل ذلك في مكان آخر ، في الطريق مثلا ، فهم يعتبرونه مجنوناً . وقد دلت التجارب على انه ليس هناك فرق كبير ، اذا وجد هذا الفرق ، بين الفنانين أو المطربين أو المجانين . ولكن الفنان الاول سرعان مايصل الى الاذاعة أو شاشة التلفزيون دونما اي جهد ، وبعد ذلك يكرس ليكون فناناً بصورة كاملة . ومن سوء الحظ ان المرء يستطيع أن يحصل على لقب فنان او فنانة دون اي مقابل ، ودون ان يدفع من جهده او راحته وحتى ماله اي ثمن . ناهيك عما يسمى بالموهبة فهذه المادة لاضرورة لوجودها على الاطلاق . اما الصوت الجميل ، فيمكن عدم ادراجه في الحسبان أيضا لطالما كانت أوتار الحلق متينة وثابتة . ولايعلم حتى الآن لماذا لايعير الناس أصوات الحيوانات الاليفة آذاناً صاغية ، ولا يضعون لها اية قيمة من القيم . ولاشك في انهم لو جربوا ذلك وافسحوا لهذه المخلوقات مكاناً متواضعاً لتجرب فيه حظها لتأكد أيضاً نصيبها من حسن الاستقبال ، ولا حتلت مكاناً لا ئقا . ولكن ما الفائدة اذا كان البشر يمتازون بالتعصب والتحزب لابناء جنسهم ، وينعتون الخارج على أبسط القواعد الاجتماعية التي سنوها كيفما اتفق ــ بأنه حيوان . وهذه الصفة تعتبر اهانة كبيرة لايمكن السكوت عنها الا للضعفاء والمساكين ، خاصة اذا صدرت عن جهة أعلى مقاما ولو شعره . او عن جهة تملك مالا او نفوذا أو ربطة عنق من صنف رفيع .

والفرقة الفنية التي قدمت الى مدينة الثورة لتحيي ليلة مجيدة بمناسبة تحويل مجرى النهر لم تكن من فرق المرتزقة أو الهواة ، بل كانت

من الفرق الفنية الرفيعة المقام . بدليل أن مقدم الحفلة كان يذكر قبل ذكر اسم اي مطرب او مطربة ـ لقب مطربة الاذاعة والتلفزيون ، واحيانا يذكر السينما . وكان الامر نفسه بالنسبة للجنس الاخر ايضا . وهؤلاء المطربون والمطربات لا يمكن اغفال حسن ذوقهم باختيار اسمائهم . فكل منهم يختار لنفسه اسما لائقا ، يتصل بشكل ما بلغة الفــن . مخلوف حسين العقيدات يسمي نفسه شادي الالحــان . وخديجة الدروبيه تسمي نفسها تغريد. وهكذا . . كان على شادي الالحان والمطربة تغريد أن تحييا حفلنا اليوم . وبصحبتهما بعض آخر من المطربين والمطربات الذين اتخذوا لانفسهم اسماء ا بذل جهد كبير لانتقائها .

والفنانون عادة يرفضون احياء حفلة يكون روادها مرضى عقليين او فلاسفة متمرسين ، الا اذا اجبروا على ذلك ، او اغروا بمنح مبالغ كبيرة من المال ، وذلك لان سمعتهم تتعرض للخطر . العقلاء وحدهم هم الزبائن المناسبون لهؤلاء الفنانين ، فهؤلاء لايعبرون عن عواطفهم ، وردود فعلهم الوحيدة تجـاه ما يسمونه من كلمات اغــان والحــان ، بغير الاستيــاء والاشمئزاز والخيبة والشعور بالقرف والغثيان ، واحيانا اذا كان المستمع رحب الصدر ، يعبّر عن ذلك ببعض النوادر أو النكات التي تثلج صدره وتريحه من ضيقه . اما المرضى العقليون والفلاسفة ، فأمرهم يكــون غير سهل وغير مأمون العاقبة . وبالطبع لاينتظر أن يكون كل منهم يحمل في يده خنجراً أو قنبلة متوسطة الحجم ، ولكن وسائلهم بالتعبير عن عواطفهم تكون بطرق مختلفة عن طرق العقلاء . ولكن ما العمل اذا كان واحد من فريق غير العقلاء كان حاضرا هذه الحفلة . فضــاق صــدره وحبست انفاسه ، وتملكه غيظ لا حد له، لانه صعد الى خشبة المسرح دون مقدمات

واقترب من لوحته وازاح عنها الغطاء . اليست هذه الليلة هي ليلة احتفال؟

لقد ضاعت صرخات الدهشة ، وعبارات الذهول وسط حركتين متميزتين ، قام بأولهما المراقب نايف سعيد الذي مد يده الى جيبه الداخلي واخرج منه صورة الفتاة الغريقة . أما المساعد فقدهم بالقفز من مكانه وجيش في حنجرته صرخة مدوية . ولكنه ما لبث أن جلس وهمس في اذن مساعديه :

ـ اليست هي . . !

لاحظ نايف ان ساق الغريقة في الصورة التي يحملها مستقيمة وكاملة ، اماهنا في لوحة الرسام ، فهي منحنية قليلا الى جانب لتستر شعر العانة . كما لاحظ ان ساعديها المنبسطين في الصورة يميل احدهما على الآخر هنا بشكل يوحي بالشوق الى العناق . اما الحاجبان فلم يطرأ عليهما أي تعديل . الفم مفغور قليلا يوحي بالشبق ، والعينان مغمضتان . في الصورة اغماضهما بدا طبيعيا ، أما هنا فكان يوحي بالتلذذ . ولاحظ أن ظفر اصبع القدم الوسطى في الصورة مشوهاً من اثر كسر ، وفي اللوحة كان مستقيماً وكاملا بل وبدا مصقولا .

وتجمهر الفنانون امام اللوحة لفترة وهم يعبرون عن نشوة فريده من نوعها . ولم يحاول احد من الحضور ان يوعز اليهم بالابتعاد، لان الامر كان من كافة وجوهه خارجاً عن الحسبان ، وغير مصدق . كان حلماً لا اكثر . والحالم اذا صاح او تكلم سمي ذلك كابوساً . كان الحاضرون يعانون كابوساً فعلياً ولكن من نوع مختلف . هناك امر آخر كان قد حدث ؛ ولكنه لم يسبب اي تشويش . فقد قفز الشاعر ضيف الله الى جانب

صاحبه فواز هلال، واخذ الاثنان يتساران في اهتمام شديد . وقبل ان يفيق الناس من انطباعاتهم ، ويتخذوا افعالا متوقعة او غير متوقعة لهذا المشهد . صعد الى خشبة المسرح رئيس مكتب المدير العام لمؤسسة سد الفرات . وباشر مهمته على الفور :

— والان أيها الاخوان العاملون ، ومع تحيات مدير العام للمؤسسة .

نعلن اليكن التسمية التي تقرر اطلاقها على البحيرة . .

ولكنه صمت حين سمع لغطاً يشبه الصلاة ينبعث من ورائه . كان انطونينوا الرسام قد تقدم من لوحته ، جللها بالغطاء وتأبطها في حرص شديد وهو يتهجد :

انني استخدم الجسد الانساني للتعبير عن الحياة . وتوصلت الى مفهوم معين وأساسي وهو (البطولة) . . التحرر من الغرق والموت . ان البطل هو المثل الاعلى للانسان . انه يقارع المصير ويتغلب على الفناء ليمثل الخلود . انني اعكس طهارة الحياة . فقدتكون هذه الفتاة منحرفة أو قديسة أو مومس وليس المهم أن تكون ثيب أو عذراء . ليس المهم غشاء البكارة بل المهم هوطهارة القلب . ان قصة الخليقة تحكي قصة صراع الانسان بين الخير والشر . هذه هي الملحمة المقدسة . لاتبحثوا عنها في اي مكان . فهي هنا . . معنا . ترمز الى الحياة الخالدة . انها تجسد الابدية : ان الانسان قادر على الخلود وعلى تحدي الغرق . . وتحدي الموت . .

واجهش المطران انطونينو بالبكاء . ولم يمسح عبراته . بل تركها تتساقط على لحيته وعلى لوحته . ثم مضى وئيدا يحمل لوحته و يهبط

درجات خشبة المسرح ، في حين كان المساعد يطلب الى مساعده الشرطي ، ان يستخرج مذكرة لجلب عالم الآثار للتحقيق معه بشان جثة الغريقــة . ولكن ــ وقد حدث . كما يبدو مصادفة ــ ان قدمت في صباح اليوم التالي سيارة تحمل نمره دبلوماسية ونقلت عالم الآثار انطونينو الى دمشق .

* * *

خاتمة

صارت أغنية البحيرة نشيدا على جميع الافواه . تردد صداها في جميع الاصقاع . ورقصت أنغامها على شفاه الاطفال . وحين كان الشاعر ضيف الله صامتا طول الوقت ، كان بحاسته السادسة يهيء لقريحته أن ترسم هذه القصيدة .

بحيرة الاسد
ستعمر البلد
تزداد كل يوم
تعلو بلا زبد
تجدد الامل
وتبعد الحسد
تسقي في العطش
وتطعم الولد
تشفي من المرض
وتبرىء الرمد
تحرر الانسان
وتكسر الصفد
تطوّل الشجر

وتكثر العـــدد

اهتف يا فواز

ارقص يا حمد

سنحرر القدس

ويافا وصفد .

في تلك الليلة ، خرج العمال من قاعة المســرح ضائعي الصــواب صحيح أن تسمية البحيرة قـد أعادت لهم الصــواب ، وجعلتهم راسخي النفوس ، الا ان قصة اللوحة قد خلفت في نفوسهم بلبلة لا حد لها .

فقد انتشر سرها انتشار الغاز في الفضاء . وهام العمـــال علـى وجوههم في هواء تموز الليلي المنعش للنفوس .

ولم ينقطع ضيف الله عن النشيد ، بعد أن ارتجل قصيدة البحيرة دفعة واحدة ، وهو يقاطع بالهتاف والتصفيق . وتابع وهم في طريقهم الى البحيرة .

ارضنا أرض الجدود

وكان قد توقف عن القاء هذه القصيدة في الامس ، دون أن يلح عليه ميار بمتابعتها .

نحن من يبني السدود

لا نبالي بالمصاعب

نحن لانهوى الجمود

اخوتي يا اخوتي

هيا بنا نحو الخلود .

وعلى ضفاف البحيرة جلس العمال يتسامرون . اخرج فواز هلال زجاجته وأحضر الزيتون والخيار واللبن المجفف . ورفض بشاره سمعان وعبد الاحد حبيب ان يشربا كما اعتذر الحاج أيضا . ولكن شاهدا أحب ان يشارك بهذه الامسية اللطيفة . وجرى النقاش حول لوحة الغريقة . وتبين من اقوال فواز وضيف الله ان الفتاة شوهدت مرارا في مزار الشاه سليمان تقوم بخدمة الزائرين ، كما شوهدت في مخفر الحرس التركي تجلي الصحون . وجرى الحديث عما اذا كان الرسام قد رسمها ثم اغرقها ، أم انه سرق جثتها ليفعل ذلك ، ولكن الاحتمال الثاني كان هو الغالب ، لان الصورة تعبر عن ذلك . أين اختفت جثتها اذن ؟ لا يظن بأن انطونينو قد سرق الجثة . أين اختفت جثتها اذن ! لا يظن بأن انطونينو قد سرق الجثة . اذنكيفرسمها ! وضع في الحسبان ان يكون قد حصل على صورة لها من أحد مخافر الشرطة ، أو من أحد مخاتير القرى التي جرى توزيع صورها عليها . واذاكان قد سرق جثتها فعلا ، فلماذا لايعيدها الى مكانها ؟ وكان رأي البعض أن أرض الله واسعة ، فسيدفنها في أي مكان . ورأى البعض ان يكون الجنود الاتراك أنفسهم قد انتشلوا جثتها لسبب ما . وبالاجمال جرى بحث كافة الاحتمالات الى ان أشرق الصباح . ولوحظت سيارة السينما تقترب من المكان .

- ضفاف الفرات تعيش فيدوامة مقفره قاحلة، لاشجر ولاحقول.
- مطــر ريــح غبــار .
- فلاحون يسيرون على الضفتين يتحسرون بأسى وتوجع .
- ثياب نساء ورجال طافية على وجه الماء .
- دائرة بشكل دوامه فارغة تدور حول نفسها .
- فيضان يغمر البيوت . والفلاحون يرحلون ويجرون أمتعتهم ويحملون أطفالهم .
- طيور سوداء تتجه نحو غروب الشمس .
- القطار يأتي من بعيد ويتابع سيره حتى النهاية .
- تفجيرات في المقالع المحيطة بالنهر .
- وجوه ذات عزم وسواعد قوية تحفر الصخر .
- جرافات تعمــل .
- أيدي الخبراء والمهندسين تشير هنا وهناك .
- سيارات تفرغ حمولاتها واخرى تعبىء .
- رافعات شامخة .
- أعمدة كهرباء .
- أطفال يضحكون .
- البحيرة الواسعــة .

- منطقة البليخ (لوحة) جداول المياه تسري بين الحقول .
- الخابور الاسفل (لوحة) جداول المياه .
- حوض الرصافة (لوحة) جداول المياه .
- سهل الميادين (لوحة) جداول المياه .
- حوض مسكنة (لوحة) جداول المياه .
- محطة ضخ كديران (لوحة) المياه تتدفق .
- القرى النموذجية .. البيوت . الغسيل المنشور .

ان انغام النشيد التذكاري الذي ولد مع بناء سد الفرات يطير عبر الدنيا . عبر الاراضي القاحلة عبر الحقول اليابسة ، عبر الشوارع والبيوت المظلمة . يسقي ماؤه الارض والحقول ، وينير كهرباؤه الشوارع والكهوف . ستغل الارض محصولا ، وتنبت الحدائق زهرا ، ويعلن الانسان العربي الظفر الكبير . الذي احرزه بجهده وعبقريته بعد المعاناة الطويلة .

الفجر الربيعي يشرق على الارض، والصباح يتسلم نفوذه، وشعاعات الشمس المؤنسة تضيء الجمال الذي ظل متواريا طوال حقب التاريخ البائد الطويل .

انتهت

صدر للمؤلف

ـ حتى القطرة الأخيرة	مجموعة قصص	١٩٦١
ـ معارك الحرية في سورية	دراسة	١٩٦٢
ـ حسن جبل	رواية	١٩٦٩
ـ لن تسقط المدينة	رواية	١٩٦٩
ـ ٤٢ راكباً ونصف	مجموعة قصص	١٩٦٩
ـ اللاإجتماعيون	روايـــة	١٩٧٠
ـ الأشقياء والسادة	روايـــة	١٩٧١
ـ الحفاة وخفّي حنين	روايـــة	١٩٧١
ـ المذنبون	روايـــة	١٩٧٤
ـ لا هو كما هو	مجموعة قصص	١٩٧٥
ـ غرفة للعامل وأمه	قصـــة	١٩٧٦
ـ آن له أن ينصاع	روايـــة	١٩٨٠

[illegible]

[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]

منشورات اتحاد الكتاب العرب

لعــام ١٩٨٠

اسم الكتاب	المادة	المؤلف	السعر
١ ـ آن له أن ينصــاع	رواية	فارس زرزور	١٠,٠٠
٢ ـ الوقائــع	شعر	خالد درويش	٤,٠٠
٣ ـ نشيد الصبــاح	شعر للاطفال	ممدوح السكاف	٣,٠٠
٤ ـ كيف النار تختصر	شعر	علي محمد حسن	٥,٠٠
٥ ـ اغنية الانهار الصغيرة	قصة للاطفال	سعيد جبار فرحان	٣,٠٠

تحت الطبع

اسم الكتاب	المادة	المؤلف
ـ اللوز المـر	قصص قصيرة	محمد الهرّادي
ـ ربيع وخريف	قصص قصيرة	علي خلقي
ـ سلامات ايها السعداء	قصص قصيرة	يوسف احمد المحمود
ـ بحثا عن مدينة أخرى	روايـــة	محي الدين زنكنه
ـ العرش والعذراء	مسرحية شعرية	خالد محي الدين البرادعي
ـ الرؤية النقدية	دراسة	محمود منقذ الهاشمي
ـ الحجر في الرماد ملحمة	شعر	عبد الرحمن عمـــار



هـذا الكتاب

عمل جديد للروائي المعروف فارس زرزور يحكي به قصة سد الفرات منذ بدايتها وحتى نهايتهـا .

رواية مطعمة بعدد من القصص التي تعبر عن العلاقات الانسانية بين العمال ، وسرد تاريخي لحوض الفرات ، وسرد عملي لمراحل الحفر والبناء .

لغة خاصة بالكاتب تمتاز بالجاذبية والشاعرية وبمزيج من الطرافة والسلاسة.

السعر : ١٠ ليرات

مطبعة الكاتب العربي — دمشق